سلسلة كتب الأطفال

حياة محمد ﷺ للأطفال

إعداد

حامد أحمد الطاهر

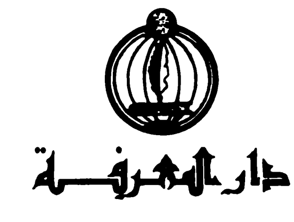


حياة محمد صلى الله عليه وسلم

للأطفال

إعداد

حامد أحمد الطاهر



المغرب

الطبعة الأولى
١٤٣١ ـ ١٤٣٢ هـ
٢٠١١



ابنُ الذَّبِيحَيْن

قَبْلَ مَا يَزِيدُ عَنْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَرْناً مِنَ الزَّمَانِ كَانَ العَالَمُ كُلُّهُ يَرْتَقِبُ حَدَثاً عَظِيماً أَوْشَكَ عَلَى الْوُقُوعِ، وَيَنْتَظِرُ مَوْلُوداً كَرِيماً أَوْشَكَ عَلَى القُدُومِ إِلَى الدُّنْيَا، وَالوُفُودِ إِلَى الحَيَاةِ.

لَقَدْ تَأَكَّدَ الْجَمِيعُ مِنْ أَنَّ هٰذَا المَوْلُودَ لَمْ يَعُدْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَيَاةِ غَيْرُ أَيَّام قَلائِلَ، وَبَعْدَهَا سَوْفَ يَشُقُّ صَوْتُهُ الْوُجُودَ، وَيُنِيرُ وَجْهُهُ الظُّلُمَاتِ الَّتِي مَلأَتِ العَالَمَ، لَقَدْ ظَهَرَتِ الْعَلَامَاتُ، وَمَلأَتِ البَشَائِرُ الْوُجُودَ كُلَّهُ.

وَهَا هُمُ الرُّهْبَانُ[١] فِي كُلِّ لَيْلَةٍ يَنْتَظِرُونَ قُدُومَ هَذَا المَوْلُودِ، إِنَّهمْ يَنْظُرُونَ إِلَى نُجُوم السَّمَاءِ كُلَّ لَيْلَةٍ، وَيَسْأَلُونَ القَادِمينَ إِلَى بِلادِ الشَّام مِنْ بِلادِ العَرَبِ عَنْ كُلِّ مَوْلُودٍ جَدِيدٍ فِي أَرْضِهِمْ، وَلَمْ يَطُلِ الانْتِظَارُ، فَقَدْ حَانَتِ اللَّحْظَةُ الْفَاصِلَةُ فِي تَارِيخ البَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ، وَجَاءَ هَذَا المَوْلُودُ المُرْتَقَبُ، وَلٰكِنْ مَنْ هُوَ؟ وَأَيْنَ وُلِدَ؟

* * *

(١) **الرُّهبان**: جمع راهب، وهم رجال سكنوا الشام قبل الإسلام وانقطعوا للعبادة.

فِي أَرْضِ الجَزيرَةِ العَرَبِيَّةِ كَانَتْ مَكَّةُ أُمُّ القُرَى هِيَ المَكَانَ الَّذِي يَقْصُدُهُ العَرَبُ جَمِيعاً لِزِيارَةِ بَيْتِ اللهِ الحَرَامِ، وَهِيَ الكَعْبَةُ المُشَرَّفَةُ الَّتِي بَنَاهَا ابْرَاهِيمُ وَاسْمَاعِيلُ عليه السلام .

وَلِأَنَّ قُرَيْشاً كَانَتْ تَسْكُنُ مَكَّةَ، فَقَدْ كَانَتْ القَبِيلَةَ الْعُظْمَى بَيْنَ الْعَرَبِ، فَهَذِهِ القَبِيلَةُ قُرَيْشٌ كَانَتْ رَاعِيَةَ الكَعْبَةِ؛ تَسْقِي الحُجَّاجَ وَتَخْدُمُهُمْ؛ فاسْتَحَقَّتْ تَعْظِيمَ العَرَبِ جَمِيعاً. وَحَوْلَ الكَعْبَةِ الْتَفَّتْ أَصنامُ العَرَبِ وأَوْثَانُهُمْ، وَهِيَ تِلْكَ التَّمَاثِيلُ الَّتِي نَحتُوهَا مِنَ الْحِجَارَةِ وَالخَشَبِ وَعَبَدُوهَا مِنْ دُونِ اللهِ تَعَالَى.

فَكَانَتِ «اللَّاتُ - والعُزَّى - وَمَنَاةُ - وُهُبَلُ - وَإِسَافُ - وَنَائِلَةُ»، وَأصنامٌ أُخْرَى حَوْلَ الكَعْبَةِ يَسْجُدُونَ لَهَا وَيلْتَفُّونَ حَوْلَهَا؛ فَكَفَرُوا باللهِ تَعَالَى وَأَشْرَكُوا بِهِ.

وَفِي أَنْحَاءِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ كَانَتِ الحُرُوبُ تَجْرِي بَينَ القَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ لِأَسْبَابٍ تَافِهَةٍ، فَرُبَّمَا كَانَتِ الحَرْبُ بِسَبَبِ حِصَانٍ سَبَقَ الآخَرَ، أَوْ طَمَعٍ مِنْ أَحَدِهِمْ فِي أَرْضِ الآخَرِ وَمَائِهِ، وَلَمْ تَكُنِ الْحَرْبُ تَنْتَهِي سَرِيعاً، بَلْ كَانَتْ تَمْتَدُّ سِنِينَ طَوِيلَةً، مِثْلَ حَرْبِ البَسُوسِ، وَدَاحِسَ وَالغَبْرَاءِ.

وَقَدْ يَسْتَمِعُ القَادِمُونَ إِلَى مَكَّةَ لِأَصْوَاتِ الصِّغَارِ مِنَ البَنَاتِ، وَآباؤُهُمْ يَئِدُونَهُنَّ أحْيَاءً[1] فِي التُّرَابِ؛ خَوْفاً مِن أَنْ يَلْحَقَهُمُ العَارُ. وَفِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ كَانَ العَرَبِيُّ يَلْجأُ إِلَى الخَمْرِ يَشْرَبُهَا، وَهِيَ عَادَةٌ سَيِّئَةٌ أُخْرَى مِنْ عَادَاتِهِمْ.

وَرغْمَ هَذِهِ الصِّفَاتِ السَّيِّئَةِ كانَ العَرَبُ يَتَّصِفُونَ بِصِفَاتٍ طَيِّبَةٍ؛ كَالجُودِ وَالكَرَم، فَلَقَدْ عَرَفُوا كَيْفَ يُؤَدُّونَ لِلضَّيْفِ حَقَّهُ، وَكَانُوا إِذَا وَعَدُوا وَفَوْا، وَلَوْ كَلَّفَهُمْ ذَلِكَ حَيَاتَهُمْ.

وَكانَ رِزْقُ القُرَشِيِّ مَا بَيْنَ التِّجَارَةِ وَالرَّعْيِ، فَكَانَ بَعْضُهُمْ يَرْعَى الغَنَمَ فِي جِبَالِ مَكَّةَ، يَشْرَبُ لَبَنَهَا، وَيَصْنَعُ مِن صُوفِهَا مَا يَنَامُ عَلَيْهِ وَمَا يَسْتُرُهُ فِي نَوْمِهِ، وَكَانَ الأَغْنِيَاءُ مِنْهُمْ يَخرُجُونَ فِي تِجَارَةٍ إِمَّا إِلَى الشَّام فِي الصَّيْفِ، أَوْ إِلَى اليَمَنِ فِي الشِّتَاءِ، وَهَذَا مَا ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَى فِي القُرْآنِ الْكَرِيمِ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۞ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۞ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۞ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾

[قريش: ١-٤].

(١) وَأَدَ الرجلُ ابنتهُ: دفنها حيَّةً.

وَفِي بَنِي هَاشِم - إِحْدَى بُطُونِ قُرَيْشٍ - كَانَ عَبْدُ المُطَّلِبِ سَيِّدُ قُرَيْشٍ يَعِيشُ بَيْنَ أَوْلادِهِ العَشَرَةِ.

وَتَذَكَّرَ عَبْدُ المُطَّلِبِ يَوْمَ أَنْ رَأَى فِي نَوْمِهِ مَنْ يَأْمُرُهُ بِحَفْرِ بِئْرِ زَمْزَمَ بَعْدَ أَنْ رُدِمَتْ بِالتُّرَابِ.

فَلَمَّا حفَرَهَا وَقَفَتْ قُرَيْشٌ لَهُ لأَنَّهُ كَانَ وَحِيداً، فَنَذَرَ للهِ إِنْ رَزَقَهُ عَشَرَةَ أَوْلادٍ أَنْ يَذْبَحَ أَحَدَهُمْ عِنْدَ بَابِ الكَعْبَةِ.

وَهَا هُمْ أَوْلادُهُ العَشَرَةُ «الحارِثُ، وَالزُّبَيْرُ، وَحَجَلٌ، وضِرارٌ، والمُقَوِّمُ، وَأَبُو لَهَب، وَالعَبَّاسُ، وَحَمْزَةُ، وَأَبُو طَالِبِ، وَعَبْدُ اللهِ». إِنَّهُ الآنَ لا بُدَّ أَنْ يُوفِيَ بِنَذْرِهِ[1] وَيَذْبَحَ أَحَدَهُمْ، وَعَزَّ عَلَيْهِ فِرَاقُ وَلَدٍ مِنْ أَوْلادِهِ، وَلَكِنْ لا بُدَّ لِلْعَهْدِ مِنْ وَفَاءٍ، وَلِلْوَعْدِ مِنْ تَحْقِيقٍ، وَلَمْ يَطُلْ تَفْكِيرُ عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَقَدْ جَعَلَ كُلَّ وَلَـدٍ مِنْ أَوْلادِهِ يَكْتُبُ اسْمَهُ عَلَى قَدَحٍ مِنَ الأَقْدَاحِ لِيَقْتَرِعُوا[2] فِيمَا بَيْنَهُـمْ، ثُمَّ أَخَـذَهُمْ وَذَهَبَ بِهِمْ إِلَى «هُبَلَ».

---

(١) **النذر**: ما يجعله الرجل من مال أو حيوان، يُذْبَح إذا استجاب اللّه لدعائه.

(٢) **يعني**: ليجروا القُرْعَة.

وَكَانَ هُوَ الصَّنَمَ الَّذِي يَحْتَكِمُونَ إِلَيْهِ، وَخَرَجَتِ القُرْعَةَ عَلَى وَلَدِهِ الأَصْغَرِ عَبْدِ اللهِ، وَكَانَ عَبْدُ اللهِ أَحَبَّ أَوْلادِهِ إِلَيْهِ، فَمَاذَا يَفْعَلُ؟ هَلْ يُطِيعُ أَمْرَ الآلِهَةِ؟ أَوْ يُخْلِفُ عَهْدَهُ؟

وَاحْتَارَ عَبْدُ المُطَّلِبِ، وَلَكِنَّهُ سَرِيعاً مَا قَرَّرَ ذَبْحَ وَلَدِهِ وَقُرَّةِ عَيْنِهِ وَحَبِيبِ قَلْبِهِ، وَشَحَذَ عَبْدُ المُطَّلِبِ سِكِّينَهُ، وَأَوْشَكَ أَنْ يَذْبَحَ وَلَدَهُ، لَكِنّ قُرَيْشاً كُلَّهَا خَرَجَتْ إِلَيْهِ تَمْنَعُهُ مِنْ ذَبْحِ الصَّغِيرِ عَبْدِ اللهِ، حَتَّى لَا تَصِيرَ هَذِهِ عَادَةً لِلْعَرَبِ بَعْدَ ذَلِكَ فَيَذْبَحُوا أَوْلادَهُمْ، وَأَشَارُوا عَلَى عَبْدِ المطَّلِبِ بِالذَّهَابِ إِلَى عَرّافَةٍ[1] فِي أَرْضِ الحِجَازِ؛ لِيَسْتَشِيرَهَا فِي هَذَا الأَمْرِ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهَا أَمَرَتْهُ أَنْ يُعِيدَ القُرْعَةَ مَرَّةً أُخْرَى.

وَلَكِنْ هَذِهِ المَرَّةَ يَضَعُ عَشَرَةً مِنَ الإِبِلِ فِي سَهْمٍ، وَفِي السَّهْمِ الآخَرِ اسْمَ وَلَدِهِ عَبْدِ اللهِ وَيَسْتَمِرُّ حَتَّى تَخْرُجَ القُرْعَةُ عَلَى الإِبِلِ.

وَعَادَ عَبْدُ المُطَّلِبِ وَوَلَدُهُ سَعِيْدَيْنِ بِهَذِهِ الحِيلَةِ الذَّكِيَّةِ، وَلا زَالَ عَبْدُ المُطَّلِبِ يَقْتَرِعُ بَيْنَ الإِبِلِ وَبَيْنَ عَبْدِ اللهِ حَتَّى انْتَهَى الأَمْرُ أَخِيراً بِذَبْحِ مِائَةٍ مِنَ الإِبِلِ

(١) يعني: من تدّعي معرفة الغيب.

وَنَجَاةِ عَبْدِ اللهِ مِنَ الذَّبْحِ، لِتُنْقِذَ العِنَايَةُ الإِلَهِيَّةُ عَبْدَ اللهِ مِنَ الذَّبْحِ، وَتَدَّخِرَهُ لِمُهِمَّةٍ أُخْرَى أَصْعَبَ وَأَشَقَّ.

***

كَانَ القَدَرُ السَّعِيدُ قَدْ أَعَدَّ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ المطَّلِبِ مُهِمَّةً لَوْ عَلِمَهَا هُوَ؛ لمَاتَ مِنْ شِدَّةِ الفَرْحَةِ.

وَقَدْ ذَاعَ خَبَرُ نَجاةِ عَبْدِ اللهِ مِنَ الذَّبْحِ فِي مَكَّةَ وَمَا حَوْلَها مِنَ القُرَى وَالْمُدُنِ.

وَأَعَادَتْ هَذِهِ القِصَّةُ إِلَى الأَذْهَانِ ذِكْرَى الجَدِّ الأَكْبَرِ لِلْعَرَبِ اسْمَاعِيلَ الَّذِي فَدَاهُ اللهُ تَعالَى بِذِبْحٍ عَظِيمٍ، وَنَجَّاهُ مِنَ الذَّبْحِ هُوَ الآخَرُ، وَصَارَتْ قِصَّةُ عَبْدِ اللهِ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ، وَفِي كُلِّ بَيْتٍ، وَبَيْنَمَا عَبْدُ اللهِ يَسِيرُ إِذْ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ وَعَرَضَتْ عَلَيْهِ أَنْ يَتزَوَّجَهَا، مُقَابِلَ أَنْ تُعْطِيَهُ مِائَةَ الإبِلِ الَّتِي ذَبَحَها أَبُوهُ، وَلَكِنَّ عَبْدَ اللهِ لَمْ يَهْتَمَّ كَثِيراً بِهَا.

وَاصْطَحَبَ عَبْدُ المُطَّلِبِ وَلَدَهُ عَبْدَ اللهِ قَرِيباً مِنْ «يَثْرِبَ» لِيُزَوِّجَهُ مِنْ «بَنِي زُهْرَةَ»، وَكَانُوا أَهْلَ كَرَمٍ وَمُرُوءَةٍ، وَلَمْ يَجِدْ عَبْدُ المُطَّلِبِ خَيْراً مِنْ سَيِّدَةِ نِسَاءِ قُرَيْشٍ فِي وَقْتِها، وَهِيَ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ ابْنِ زُهْرَةَ.

فَصَارَتْ آمِنَةُ زَوْجَةَ عَبْدِ اللهِ وَشَهِدَتْ قُرَيْشٌ عُرْساً كَانُوا يَنْتَظِرُونَهُ، فَاخْتَلَطَتْ فَرْحَةُ نَجَاةِ عَبْدِ اللهِ، بِفَرْحَةِ زَوَاجِهِ مِنْ آمِنَةَ، فَيَا لَهَا مِنْ سَعَادَةٍ بَالِغَةٍ!

وَلَمَّا عَادَ العُرُوسَانِ إِلَى مَكَّةَ، ذَهَبَ عَبْدُ اللهِ إِلى المَرْأَةِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ عَرَضَتْ عَلَيْهِ الزَّوَاجَ فَقَالَتْ لَهُ: هَلْ تَزَوَّجْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَكَيْفَ عَرَفْتِ؟!

قَالَتْ: قَدْ كَانَ فِي وَجْهِكَ نُورٌ، وَلَكِنَّهُ ذَهَبَ مِنْكَ، فَعَرَفْتُ أَنَّكَ قَدْ تَزَوَّجْتَ. وَلَمْ يَفْهَمْ عَبْدُ اللهِ كَلامَهَا، وَلَكِنَّهُ عَادَ إِلَى آمِنَةَ لِتَزُّفَ إِلَيْهِ خَبَراً سَعِيداً، إِنَّهَا فِي شُهُورِ حَمْلِهَا الأُولَى، وَقَدْ أَحَسَّتْ بِمَا تُحِسُّ بِهِ النِّسَاءُ مِنْ آلامِ الحَمْلِ.

وَسَعِدَ عَبْدُ اللهِ سَعَادَةً كُبْرَى، إِنَّهُ قَدْ نَجَا مِنَ الذَّبْحِ، ثُمَّ تَزَوَّجَ، ثُمَّ هَا هِيَ بَشَائِرُ القَادِمِ الجَدِيدِ إِلَى الحَيَاةِ مِنْ وَلَدِهِ قَدْ بَدَأَتْ فِي الظُّهُورِ، وَظَنَّ أَنَّهُ قَدْ حَقَّقَ كُلَّ مَا أَرَادَ، لَكِنَّ القَدَرَ لَمْ يُمْهِلْهُ، فَلَقَدْ دَفَعَ ثَمَنَ هَذِهِ الأَحْدَاثِ السَّعِيدَةِ.

فَبَيْنَمَا هُوَ عَائِدٌ مِنْ تِجَارَتِهِ إِذَا بِهِ يَسْقُطُ مَيِّتاً وَهُوَ فِي زَهْرَةِ شَبَابِهِ، لَمْ تَسْعَدْ عَيْنُهُ بِرُؤْيَةِ مَوْلُودِهِ الأَوَّلِ.

وَحزِنَتْ مَكَّةُ كُلُّهَا لِمَوْتِ عَبْدِ اللهِ، فَلَئِنْ نَجا مِنْ سِكِّينِ الذَّبْحِ، فَإِنَّ سَيْفَ الموْتِ لَا نَجَاةَ مِنْهُ، وَهَذِهِ هِيَ إِرَادَةُ اللهِ.

وَفَاضَتْ عَيْنَا آمِنَةَ بِالدُّمُوعِ، وَهِيَ الَّتِي لَمْ تَسْعَدْ طَوِيلًا بِالْحَيَاةِ مَعَ زَوْجِهَا، فَإِنَّ مَلابِسَ العُرْسِ مَا زَالَ العَرَقُ فِيهَا لَمْ يَجِفَّ بَعْدُ، وَلَكِنَّ وفَاةَ عَبْدِ اللهِ أَحَالَتِ السَّعَادَةَ إِلَى بُؤْسٍ، فَقَدْ صَارَتِ العَرُوسُ الشَّابَّةُ أَرْمَلَةً[١]، وَفَقَدَتِ الزَّوْجَ الحَبِيبَ، لَكِنَّهُ تَرَكَ لَهَا ذِكْرَى لَنْ تَنْسَاهَا، إِنَّهُ ذَلِكَ المَوْلُودُ الَّذِي يَتَحَرَّكُ فِي أَحْشَائِهَا، فَكَانَ هَذا مِمَّا خَفَّفَ آلامَ الفِرَاقِ، وَجعَلَهَا تُفَارِقُ الأَحْزَانَ سَرِيعاً.

***

ارْتَجَّتْ[٢] مَكَّةُ كُلُّهَا فِي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ، فَخَرَجَ النَّاسُ لِيَرَوْا مَا الأَمْرُ، لَقَدْ جَاءَ أَبْرَهَةُ الحَبَشِيُّ - قَائِدُ جُيُوشِ الحَبَشَةِ - يُرِيدُ هَدْمَ الكَعْبَةِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ بَنَى بَيْتاً يُرِيدُ أَنْ يَحُجَّ إِلَيْهِ النَّاسُ بَدَلًا مِنَ الكَعْبَةِ، وَسَمَّاهُ [القُلَّيْسَ]، لَكِنَّ أَعْرَابِيًّا تَبَوَّلَ فِيهِ بَدَلًا مِنْ أَنْ يَطُوفَ

(١) **الأرملة**: من مات زوجها.

(٢) اهتزت.

بِهِ؛ فَأَقْسَمَ أَبْرَهَةُ لَيَهْدِمَنَّ الكَعْبَةَ بَيْتَ اللهِ الَّذِي يَحُجُ إِلَيْهِ العَرَبُ جَمِيعاً.

وَجَاءَ أَبْرَهَةُ بِجَيْشٍ جَرَّارٍ، وَمَعَهُمْ فِيلٌ عَظِيمٌ لِهَدْمِ الكَعْبَةِ، وَفِي الطَّرِيقِ كَانَتْ إِبِلٌ لِعَبْدِ المُطَّلِبِ تَرْعَى، فَأَخَذَهَا جُنُودُ أَبْرَهَةَ، فَخَرَجَ عَبْدُ المُطَّلِبِ إِلَى أَبْرَهَةَ وَطَلَبَ مِنْهُ الْإِبِلَ.

فَقَالَ أَبْرَهَةُ: ظَنَنْتُ أَنَّكَ جِئْتَنِي تَطْلُبُ مِنِّي أَلَّا أَهْدُمَ الْكَعْبَةَ، فَإِذا بِكَ تَطْلُبُ الإِبِلَ.

فَقَالَ عَبْدُ المُطَّلِبَ: أَنَا صَاحِبُ الإِبِلِ؛ وَلِذَا جِئْتُ أَحْمِيهَا، وَلِلْبَيْتِ رَبٌّ يَحْمِيهِ.

وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ كُلُّهَا تَنْتَظِرُ مَاذَا سَيَفْعَلُ أَبْرَهَةُ؟ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَقْدِرُوا عَلَى الوُقُوفِ ضِدَّهُ، وَوَقَفَ الفِيلُ العَظِيمُ لَا يُرِيدُ التَّحَرُّكَ، فَأَمَرَهُمْ أَبْرَهَةُ أَنْ يَضْرِبُوهُ فَلَمْ يَتَحَرَّكْ، فَزَادَ ضَرْبُهُمْ لَهُ، فَازْدَادَ ثَبَاتُهُ وَوُقُوفُهُ.

وَفَجْأَةً وَدُونَ سَابِقِ إِنْذَارٍ، امْتَلأَتِ السَّمَاءُ بِطَيْرٍ صَغِيرٍ فِي فَم كُلٍّ مِنْهَا حِجَارَةٌ صَغِيرَةٌ، إِذَا نَزَلَتْ عَلَى الرَّجُلِ مِنْ جَيْشِ أَبْرَهَةَ قَتَلَتْهُ، وَبَعْدَ قَلِيلٍ صَارَ الجَيْشُ العَظِيمُ جُثَثاً تَأْكُلُ مِنْهَا الطَّيْرُ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ

بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١-٥].

وَفرِحَ عَبْدُ المُطَّلِبِ وَسَعِدَتْ قُرَيْشٌ كُلُّها، فَلَقَدْ حَمَى رَبُّ الْكَعْبَةِ كَعْبَتَهُ، وَوَقَاهَا شَرَّ أَبْرَهَةَ وَجُنُودِهِ، وَسُمِّيَ هَذَا العَامُ عَامَ الفِيلِ، وَعَادَ عَبْدُ المُطَّلِبِ سَرِيعاً إِلَى دَارِهِ، لِيَتَفَقَّدَ حالَ آمِنَةَ الَّتِي كَانَتْ قَدِ اقْتَرَبَ مَوْعِدُ وَلادَتِها.

امْتَلأَتِ السَّمَاءُ الصَّافِيَةُ بِالنُّجُومِ المُتَلأْلِئَةِ، وَنَظَرَ أَهْلُ الأَرْضِ جَميعاً فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ إلى السَّمَاءِ فَوَجَدُوهَا قَدْ تَزَيَّنَتْ، كَأَنَّها العَرُوسُ تَنْتَظِرُ رَجُلَهَا، وَهَا هُوَ القَمَرُ قَدْ لَبِسَ أَحْلَى أثْوَابِهِ، فَأَنَارَ السَّمَاءَ كُلَّهَا بِنُّورِهِ الوَضَّاحِ.

وَهَا هِيَ نَسَماتُ الهَوَاءِ الرَّقِيقَةُ تَهُبُّ فِي كُلِّ مَكَانٍ تَحْمِلُ رِيحاً طَيِّبَةً، كَأَنَّها مِنْ رِيحِ الجَنَّةِ، وَالكُلُّ يَجِدُ نَفْسَهُ فِي هَذَا اليَوْمِ سَعِيداً لا يَدْرِي لِماذَا؟!

وَفِي بِلادِ فَارِسَ حَيْثُ كَانَ النَّاسُ يَعْبُدُونَ النَّارَ إِذَا

بِهِمْ يَجِدُونَ نَارَهُمْ قَدِ انْطَفَأَتْ فَجْأَةً، وَفِي قَصْرِ مَلِكِهِمْ «كِسْرَى أَنُوشِرْوَانَ» سَقَطَتْ شُرُفَاتُ[١] قَصْرِهِ؛ فَفَزِعَ مَنْ فِي القَصْرِ جَمِيعاً، وَقَدْ جَفَّتْ بُحَيْرَةُ «سَاوَة» الَّتِي كَانُوا يُعَظِّمُونَهَا، وَإِذَا بِكِسْرَى يَرَى عَرْشَهُ أَمَامَهُ يَهْتَزُّ وَيَنْشَقُّ؛ فَخَافَ هُوَ الآخَرُ، وَجَرَى بَعِيداً.

وَخَرَجَ الرُّهْبَانُ جَمِيعاً وَقَدْ تَأَكَّدُوا مِنْ مِيلادِ الوافِدِ الجَدِيدِ، إِنَّهُ مُحَمَّدٌ، أَحْمَدُ نَبِيُّ آخِرِ الزَّمَانِ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ مُوسَى نَبِيُّ اللهِ فِي التَّوْرَاةِ، وأَخْبَرَهُمْ بِهِ المسيحُ عِيسَى عليه السلام، وَإِنَّهُمْ لَيَجِدُونَ صِفَتَهُ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ، وَيَعْرِفُونَ عَلامَةَ مَوْلِدِهِ، فَهَتَفَ الجَمِيعُ: اليَوْمَ وُلِدَ أَحْمَدُ، اليَوْمُ وُلِدَ مُحَمَّدٌ.

وَفِي أُمِّ القُرَى كَانَ عَبْدُ المُطَّلِبِ يُحَدِّثُ النَّاسَ بِأَنَّهُ رَأَى فِي نَوْمِهِ أَنَّ نُوراً قَدْ خَرَجَ مِنْ ظَهْرِهِ فَأَضَاءَ الدُّنْيَا، وَقَدْ حَدَّثَتْهُ آمِنَةَ أَنَّهَا رَأَتْ نُوراً يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَضَاءَ لَهَا قُصُورَ الشَّام، وَإِذَا بِصَرْخَةِ آمِنَةَ تَعْلُو، لَقَدْ حَانَتْ لَحْظَةُ الوِلادَةِ، لَكِنَّهَا لَمْ تُحِسَّ بآلامِ الوَضْعِ، إِنَّ المَوْلُودَ الآنَ يَنْزِلُ مِنْ بَطْنِهَا مُتَبَسِّماً لا بَاكِياً، وَقَدْ رَفَعَ إِصْبَعَهُ السَّبَّابَةَ

---

(١) **شرفات**: جمع شرفة وهي بناء خارج من البيت يستشرف منه على ما حوله.

مُشِيراً بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ خَرّ عَلَى السَّرِيرِ سَاجِداً لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

فَنظَرَتْ آمِنَةُ حَوْلَهَا فَكَأَنَّمَا سَقَطَتْ نُجُومُ السَّمَاءِ بِجوَارِهَا، فَكلُّ شَيْءٍ الآنَ يَكْسُوهُ النُّورُ، لَكِنَّهُ لَيس كَأَيِّ نُورٍ، إِنَّهُ نُورٌ لَا يَضُرُّ العَيْنَ، بَلْ يُسْعِدُهَا وَيُرِيحُهَا، وَتَتَمَنَّى العَيْنِ لَوْ دَامَ هَذَا النُّورُ.

وَكَانَ عَبْدُ المُطَّلِبِ جَالِساً عِنْدَ الكَعْبَةِ، فَلَمَّا بُشِّرَ بِمِيلادِ ابْنٍ لَهُ يُعَوِّضَهُ عَنْ وَلَدِهِ عَبْدِ اللهِ قَامَ سَرِيعاً وَهُوَ يَقُولُ: مُحَمَّدٌ، سَأُسَمِّيهِ مُحَمَّداً؛ حَتَّى يَحْمَدَهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَأَهْلُ الأَرْضِ.

وَدَخَلَتِ الأَفْرَاحُ بَيْتَ عَبْدِ المُطَّلِبِ بَعْدَ أَنْ مَلأَتْهُ الأَحْزَانُ بِرَحِيلِ عبدِ اللهِ أحبِّ أَوْلَادِهِ إِليه، وَتَبَدَّدَتِ الأَحْزَانُ، وَعَمَّتِ الأَفْرَاحُ، وَمُدَّتْ مَوائِدُ الطَّعَامِ فَقَدْ كَانَتِ الفَرْحَةُ عَارِمَةً وَكَبِيرَةً، فَإِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ هُوَ ابْنُ الذَّبِيْحَيْنِ اسْمَاعِيلَ جَدِّه الأَكْبَرِ، وَعَبْدِ اللهِ وَالِدِهِ، وَاسْتَعَدَّ العَالَمُ كُلُّهُ لاسْتِقْبَالِ نُورِ ابْنِ الذَّبِيحَيْنِ.

الدروس المستفادة

(١) الوَفَاءُ بِالْوَعْدِ وَالعَهْدِ مِنَ الصِّفَاتِ الحَمِيدَةِ.

(٢) الكَعْبَةُ هِيَ بَيْتُ اللهِ الحَرَامُ.

(٣) اللهُ تَعَالَى يَحْفَظُ بَيْتَهُ الحَرَامَ مِنْ كُلِّ سُوءٍ.

(٤) نَسَبُ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَسَبٌ شَرِيفٌ عَفِيفٌ.

(٥) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ ابْنُ الذَّبِيحَيْنِ اسْمَاعِيلَ عليه السلام جَدِّهِ، وَعَبْدِ اللهِ وَالِدِهِ.

* * *



(أ) أكمل ما يأتي:

[كانت .... هي .... القرى تسكنها قبيلة ..... التي كانت تخدم ..... وتسقي

. . . .، لكن أهلها عبدوا . . . . . . ووضعوها . . . . . الكعبة].

(ب) اذكر صفات العرب السَّيِّئة، والصفات الطيِّبة.

(ج) ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة، وعلامة (✗) أمام العبارة الخاطئة:

(١) سُمِّيَ العام الذي وُلد فيه النبي ﷺ بعام الفيل ( )

(٢) كان العربي كريماً يوفي بعهده ووعده ( )

(٣) استطاع أبرهة هدمَ الكعبة وتدميرَها ( )

(٤) كانت آمنةُ بنتُ وَهْبٍ هي زوجة عبد المطلب ( )

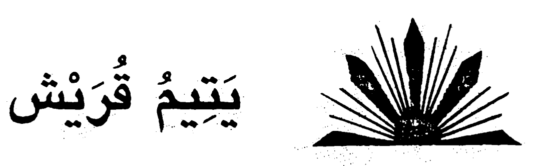
* * *

الإجابات

[مكة، أم، قريش، الكعبة، الحجاج، الأصنام، حول].

[✓، ✓، ✗، ✗].

* * *



يَتِيمُ قُرَيْش

كَانَ مِنْ عَادَةِ العَرَبِ قَدِيماً أَنْ يُرْسِلُوا أَوْلادَهُمْ إِلَى البَادِيَةِ(١) ، فَيَكْبَرُ الصَّغِيرُ وَقَدْ تَعَلَّمَ النُّطْقَ الصَّحِيحَ لِلُّغَةِ، كَمَا يَتَعَلَّمُ القُوَّةَ وَالشِّدَّةَ وَالرَّمْيَ بِالرُّمْحِ وَالنَّبْلِ، فَإِذَا عَادَ إِلَى وَالِدَيْهِ كَانَ قَوِيًّا شَدِيداً فَصِيحاً.

وَلَمْ تَكُنِ الأُمُّ تُرْضِعُ وَلِيدَهَا بَلْ كَانَتْ تُعْطِيهِ لإِحْدَى مُرْضِعَاتِ البَوَادِي الأَمِينَاتِ تُرْضِعُهُ وتُرَبِّيهِ ثُمَّ تُعِيدُهُ إِلَيْهَا.

وَإِلَى مَكَّةَ جَاءَتْ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ إِحْدَى مُرْضِعَاتِ بَادِيَةِ بَنِي سَعْدٍ وَقَدْ تَرَكَتْ دِيَارَهَا مِنْ أَجْلِ الحُصُولِ عَلَى طِفْلٍ مِنْ بَيْتٍ غَنِيٍّ حَتَّى تُرْضِعَهُ فَتَسْتَطِيعَ بِذَلِكَ الحُصُولَ عَلَى أَكْبَرِ قَدْرٍ مُمْكِنٍ مِنَ المالِ.

إِنَّ حَلِيمَةَ لَتُفَكِّرُ الآنَ فِي دِيارِ بَنِي سَعْدٍ الَّتِي انْقَطَعَ المَطَرُ عَنْهَا مُنْذُ شُهُورٍ، فَأَصَابَهُمُ الجَفَافُ، وَلَا زَالَ مَشْهَدُ أَغْنَامِهَا الهَزِيلَةِ(٢) يُدَاعِبُهَا بِحُزْنٍ، وَحَتَّى ثَدْيَيْهَا

(١) المكان الذي يسكن فيه البدو، والجمع: (بوادي).

(٢) **الضعيفات**: النحيلات.

قَدْ صَارَ اللَّبَنُ فِيهِمَا قَلِيلًا، وَإِنَّهَا لَتَنْظُرُ أَمَامَهَا فَتَجِدُ المرْضِعَاتِ قَدْ سَبَقْنَهَا، فَإِنَّ أَتَانَهَا[1] الَّتِي تَرْكَبُهَا تَحْتَاجُ إِلَى المساعَدَةِ هِيَ الأُخْرَى، وَلَكِنْ مَا زَادَها صَبْراً أَنَّهَا طَمِعَتْ فِي العَوْدَةِ بِمَوْلُودٍ غَنِيٍّ يُعَوِّضُها كُلَّ هَذِهِ الخَسَائِرِ.

وَفِي بَيْتِ عَبْدِ المُطَّلِبِ كَانَتْ بَسَمَاتُ الصَّغِيرِ مُحَمَّدٍ ﷺ تَمْلَأُ أَرْكَانَ البَيْتِ وَجَنَبَاتِهِ، وَلَا زَالَ النُّورُ يَتَلأْلأُ فِي وَجْهِهِ، وَإِنَّهُ الآنَ قَدْ رَضَعَ لِلْمَرَّةِ الأُولَى مِنْ صَدْرِ «ثُوَيْبَةَ» خَادِمَةِ عَمِّهِ أَبِي لَهَبٍ، وَلَكِنْ عَادَ فَمُ الصَّغِيرِ يَطْلُبُ اللَّبَنَ وَالرَّضَاعَةَ.

فَتَأَكَّدَ لَدَى الجَمِيعِ أَنَّهُ لا بُدَّ مِنْ مُرْضِعَةٍ لِحَفِيدِ سَيِّدِ قُرَيْشٍ، وَلَكِنْ مَا مِنْ مُرْضِعَةٍ تَنْظُرُ إِلَى هَذَا اليَتِيم، فَلا أَبَ لَهُ يُعْطِي المالَ وَالهَدَايَا، وَإِنَّ جَدَّهُ عَبْدَ المطَّلِبِ رَجُلٌ ذُو صِيتٍ وَشُهْرَةٍ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ صَاحِبَ مَالٍ وَغِنًى.

وَمِنْ هُنَا تَرَدَّدَتِ المُرْضِعَاتُ - وَمِنْهُنَّ حَلِيمَةُ - فِي قَبُولِ إِرْضَاعِ هَذَا الصَّغِيرِ، وَيَئِسَ الجَمِيعُ فِي بَيْتِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَحَاوَلَتْ آمِنَةُ أَنْ تُرْضِعَ وَلَدَها، وَلَكِنْ لَا شَيْءَ يَنْزِلُ مِنْ صَدْرِهَا.

---

(١) **الأتان**: أُنثى الحمار.

وَفَجْأَةً سَمِعَ الجَمِيعُ طَرْقاً عَلَى البَابِ، إِنَّهَا حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ عَادَتْ لِتَأْخُذَ هَذَا الغُلامَ اليَتِيمَ لِتُرْضِعَهُ، فَقَدْ ظَلَّتْ طِيلَةَ يَومِهَا تَبْحَثُ عَنْ رَضِيعٍ غَنِيٍّ لَكِنَّهَا لَمْ تَجِدْ، فَلَمْ يَكُنْ أَمَامَهَا إِلَّا قَبُولُ أَعْظَمِ مَوْلُودٍ فِي التَّارِيخِ، وَهِيَ لا تَعْرِفُهُ.

وَمَضَتْ حَلِيمَةُ إِلَى زَوْجِهَا تَحْمِلُ رَضِيعَهَا الجَدِيدَ، وَكَانَ زَوْجُهَا قَدْ حَضَرَ إِلَى مَكَّةَ مَعَهَا، وإِنَّهُ لَحَزِينٌ هُوَ الآخَرُ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْثُرْ عَلَى ما أَرَادَ مِنَ المالِ.

وأَخْرَجَتْ حَلِيمَةُ ثَدْيَهَا لِتُرْضِعَ الصَّغِيرَ مُحَمَّداً ﷺ، فَإِذَا بِاللَّبَنِ يَنْزِلُ كَثِيراً وَفِيراً وَكَأَنَّهُ المَطَرُ الغَزِيرُ، وَإِنَّ حَلِيمَةَ لَتَنْظُرُ فَتَتَعَجَّبُ، إِنَّهَا حَاوَلَتْ إِرْضَاعَ ابْنِهَا الصَّغِيرَ مُنْذُ سَاعَاتٍ قَلِيلَةٍ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا لَبَنٌ قَلِيلٌ.

أَمَّا الآنَ فَإِنَّ اللَّبَنَ يَنْزِلُ غَزِيراً كَأَنَّهُ شَلَّالُ مَاءٍ جَارِفٍ حَتَّى شَرِبَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَابْنُهَا، وَكَانَتْ هَذِهِ بِدَايَةَ الأَقْدَارِ السَّعِيدَةِ.

وَحَانَتْ لَحْظَةُ العَوْدَةِ إِلَى بَادِيَةِ بَنِي سَعْدٍ فَجَهَّزَ الجَمِيعُ العُدَّةَ لِلسَّفَرِ، وَذَهَبَتْ حَلِيمَةُ إِلَى أَتَانِهَا الضَّعِيفَةِ الهَزِيلَةِ، فَرَكِبَتْهَا وَهِيَ مُشْفِقَةٌ عَلَيْهَا، فَلَقَدْ زَادَ حِمْلُهَا طِفْلاً رَضِيعاً آخَرَ، هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ.

وَلَكِنْ يَا لَلْمُفَاجَأَةِ! إِنَّ الأَتَانَ بَدَلًا مِنْ أَنْ تَتْعَبَ وتَهْزُلَ إِذَا بِهَا تَصِيرُ أَسْرَعَ دَابَّةٍ[1] فِي الوُجُودِ، لَا فِي مَكَّةَ وَحْدَهَا، إِنَّهَا تَجْرِي سَعِيدَةً مَسْرُورَةً كَأَنَّهَا فَرِحَةٌ بِالصَّغِيرِ الَّذِي رَكِبَهَا.

وَهُنَا تَبدَّل الحَالُ، لَقَدْ صَارَتْ مُرْضِعَاتُ بَنِي سَعْدٍ خَلْفَ حَلِيمَةَ لَا أَمَامَهَا، وَإِنَّهَا لَتَتَعَجَّبُ مِنْ أَمْرِ هَذَا الصَّغِيرِ الَّذِي عَمَّتْ بَرَكَتُهُ المَكَانَ حَتَّى إِنَّ صَاحِبَاتِهَا يُقُلْنَ لَهَا: يَا حَلِيمَةُ أَهَذِه هِيَ أَتَانُكِ؟! قَالَتْ: نَعَمْ، وَاللهِ هِيَ.

وَوَصَلَ الرَّكْبُ المُبَارَكُ إِلَى دِيَارِ بَنِي سَعْدٍ الَّتِي سَادَهَا الجَفَافُ، وَانْقَطَعَ المَطَرُ عَنْهَا وَضَعُفَتِ الغَنَمُ وَالماشِيَةُ فِيهَا.

وَلَكِنْ قُدِّرَ لِبَادِيَةِ بَنِي سَعْدٍ أَنْ تَسْتَقْبِلَ أَعْظَمَ النَّاسِ بَرَكَةً، وَأَنْ تَكُونَ هِيَ مَهْدَ النُّبُوَّةِ، فَمَا هِيَ إِلَّا لَحَظَاتٌ حَتَّى نَزَلَ المَطَرُ مِنَ السَّمَاءِ الَّتِي كَانَتْ كَالأُمِّ تَنْتَظِرُ وَلِيدَهَا، فَلَمَّا رَأَتْهُ فَرِحَتْ، فَنَزَلَتْ دُمُوعُهَا سَرِيعَةً وَغَزِيرَةً، لَقَدْ أَيْقَنَ الجَمِيعُ أَنَّ الصَّغِيرَ مُحَمَّداً ﷺ لَهُ أَمْرٌ آخَرُ غَيْرَ النَّاسِ جَمِيعاً.

---

(١) **الدابَّة**: هي كلّ ما يركبه الإنسان، مثل: الحصان والحمار والجمع: «دوابُّ».

لَقَدْ قَوِيَتِ الأَتَانُ بَعْدَ ضَعْفٍ، وَنَزَلَ المَطَرُ بَعْدَ جَفَافٍ، وَعَمَّتِ البَرَكَةُ كُلَّ مَكَانٍ، حَتَّى الغَنَمُ صَارَتْ قَوِيَّةً شَدِيدَةً، فَأَدْرَكَتْ حَلِيمَةُ أَنَّ صَاحِبَاتِهَا إِنْ كُنَّ فُزْنَ بِأَطْفَالٍ أَغْنِيَاءَ، فَإِنَّهَا فَازَتْ بِأَفْضَلِ وَأَعْظَمِ وَأَغْلَى مَوْلُودٍ فِي الوُجُودِ.

***

مَا زَالَتِ البَرَكَةُ تَنْزِلُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَلا زَالَ الخَيْرُ يَعُمُّ دِيَارَ بَنِي سَعْدٍ الَّتِي مَلأَهَا السُّرُورُ بَعْدَ أَنْ قَدِمَ إِلَيْهَا مُحَمَّدٌ ﷺ.

وَمَا هِيَ إِلَّا سَنَتَانِ حَتَّى صَارَ الوَلِيدُ كَأَنَّهُ صَبِيٌّ قَدْ جَاوَزَ الخَامِسَةَ مِنْ عُمُرِهِ، كُلُّ هَذَا وَحَلِيمَةُ لَا تَتَحَمَّلُ فِرَاقَهُ وَالابْتِعَادَ عَنْهُ.

لَقَدْ كَانَتْ تَحْمِلُهُ مَعَهَا إِلَى الْمَرْعَى الَّذِي تَرْعَى فِيهِ الأَغْنَامَ، فَإِذَا بِالْغَنَم تَعُودُ قَدْ امْتَلأَت ضُرُوعُهَا[١] بِاللَّبَنِ، بَيْنَمَا أَغْنَامُ الآخَرِينَ هَزِيلَةٌ نَحِيفَةٌ ضَعِيفَةٌ، حَتَّى كَانُوا يَقُولُونَ: اجْعَلُوا أَغْنَامَكُمْ تَسْرَحُ مَعَ أَغْنَام حَلِيمَة بِنْتِ أَبِي ذُؤَيْبٍ، وَلَكِنْ تَعُودُ أَغْنَامُ حَلِيمَةَ شِبَاعاً[٢]،

---

(١) **الضرع**: المكان الذي يتجمع فيه اللبن في الأغنام والماشية.

(٢) **شباعاً**: شبعانة قد امتلأت بطونها.

وَالأُخْرَى جِياعاً، وَأَرَادَتْ حَلِيمَةُ أَنْ تُعِيدُ مُحَمَّداً ﷺ إِلَى أُمِّهِ، لَمَّا بَلَغَ عُمْرُهُ سَنَتَيْنِ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ فِراقَ الصَّغِيرِ.

فَلَمَّا وصلَتْ إِلَى أُمِّهِ وَنَاوَلَتْهَا مُحَمَّداً ﷺ أَحَسَّتْ كَأَنَّهَا تَفْقِدُ قَلْبَهَا وَعَيْنَهَا؛ فَأَسْرَعَتْ قَائِلَةً لِآمِنَةَ: أَلَا تَتْرُكِينَهُ لَنَا عاماً آخَرَ؛ فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْهِ أَنْ يَمْرَضَ فِي مَكَّةَ.

وَتَرَدَّدَتْ آمِنَةُ فِي القَبُولِ، وَلَكِنَّهَا رَأَتْ دُمُوعَ حَلِيمَةَ تَسْبِقُها، فَقَبِلَتْ أَنْ تُعِيدَهُ إِلَيْهَا مَرَّةً أُخْرَى، وَيَا لَلسَّعَادَةِ الَّتِي امْتَلأَتْ بِها حَلِيمَةُ حِينَمَا عَادَتْ بِهِ مَرَّةً أُخْرَى! وَخَرَجَ مُحَمَّدٌ ﷺ لِيَلْعَبَ مَعَ أَخِيهِ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَهُوَ ابْنُ حَلِيمَةَ، وَعَادَ ابْنُ حَلِيمَةَ مُسْرِعاً إِلَى أُمِّهِ وَقَدْ تَغَيَّرَ لَوْنُ وَجْهِهِ، وَإِنَّهَا لَتَسْمَعُ صَوْتَ أَنْفَاسِهِ، وَدَقَّاتِ قَلْبِهِ.

فَقَالَتْ: مَا بِكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ يا أُمَّاهُ، جَاءَ رَجُلانِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بَيْضَاءَ فَأَضْجَعَاهُ[1] ثُمَّ فَتَحَا صَدْرَهُ، فَتَرَكْتُهُ لَمَّا خِفْتُ مِنْهُمَا.

فَأَسْرَعَ زَوْجُ حَلِيمَةَ، فَوَجَدَ مُحَمَّداً ﷺ قَدْ تَغَيَّرَ لَوْنُ وَجْهِهِ، فَسَأَلَهُ، فَحَكَى لَهُ مَا حَكَاهُ وَلَدُهُ لَهُ، ثُمَّ

(١) جعلاه ينام على جنبه أو ظهره.

قَالَ: «**إِنَّ الرَّجُلَيْنِ أَخَذَا شَيْئاً مِنْ قَلْبِي ثُمَّ أَعَادَاهُ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى صَدْرِي**».

وَلَمْ يكُنِ الجَمِيعُ يَعْرِفُ أَنَّ هَذِهِ الحَادِثَةَ سَوْفَ يُسَطِّرُهَا التَّارِيخُ، وَتُعْرَفُ بِاسْمِ «حَادِثَةِ شَقِّ الصَّدْرِ»؛ لِأَنَّ الملائِكَةَ أَخْرَجَتْ مِنْ قَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ حَظَّ الشَّيْطَانِ؛ وَخَشِيَتْ حَلِيمَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَأَعَادَتْهُ إِلَى أُمِّهِ فِي مَكَّةَ بَعْدَ أَنْ أَحَبَّتْهُ وَكَانَ يَوْماً حَزِيناً بَكَتْ فِيهِ دِيَارُ بَنِي سَعْدٍ جَمِيعاً حَتَّى كَأَنَّكَ تَسْمَعُ الرِّمَالَ تَبْكِي لِأَنَّ مُحَمَّداً ﷺ لَنْ يَمْشِيَ عَلَيْهَا بَعْدَ اليَوْمِ أَوْ يَدُوسَهَا بِقَدَمِهِ، وَلَكِنْ لِكُلِّ أَوَّلٍ آخِرُ، وَلِكُلِّ بِدَايَةٍ نِهَايَةٌ.

* * *

نَظَرَتْ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبٍ إِلَى صَغِيرِهَا مُحَمَّدٍ ﷺ فَوَجَدَتْهُ خَيْرَ غُلامٍ أَنْجَبَتْهُ أَرْضُ العَرَبِ؛ فَكَانَتْ تَجْعَلُهُ أَمَامَ عَيْنَيْهَا دائماً، وَتَحْنُو[١] عَلَيْهِ، كَمَا كَانَ جَدُّهُ عَبْدُ المُطَّلِبِ يَرَى فِيهِ عِوَضاً عَنْ فَقِيدِهِ عَبْدِ اللهِ، وَكَانَ هُوَ الآخَرُ لا يُطِيقُ فِرَاقَهُ كَمَا كَانَتْ أُمُّهُ.

وَأَرَادَتْ آمِنَةُ يَوْماً أَنْ تَزُورَ أَهْلَهَا، وَتُعَرِّفَ مُحَمَّداً ﷺ بِأَخْوَالِهِ، فَاسْتَأْذَنَتْ عَبْدَ المُطَّلِبِ، فَرَضِيَ وَوَافَقَ،

(١) **تحنو**: تعطف.

وَأَرْسَلَ مَعَهَا جَارِيَتَهُ «أُمَّ أَيْمَنَ» وَكانَ الصَّغِيرُ قَدْ بَلَغَ السَّادِسَةَ مِنْ عُمُرِهِ.

وَفِي «يَثْرِبَ» فَرِحَ بِهِ أَخْوَالُهُ وَسَعِدُوا بِرُؤْيَتِهِ؛ وَلَمْ يَأْذَنُوا لِآمِنَةَ بِالْعَوْدَةِ بِهِ إِلَّا بَعْدَ عَنَاءٍ طَوِيلٍ.

وَبَيْنَمَا آمِنَةُ وَوَلَدُهَا وَأُمُّ أَيمَنَ فِي طَرِيقِ العَوْدَةِ، وَقَرِيباً مِنْ قَبْرِ عَبْدِ اللهِ أَحَسَّتْ آمِنَةُ بِأَلَمٍ شَدِيدٍ، وَوَجَعٍ أَلِيمٍ، فَإِذَا بِهَا تَتَوَقَّفُ عَنِ المَسِيرِ، بَعْدَ أَنْ أَوْقَفَتْهَا الآلَامُ وَأَثْقَلَتْهَا، وَنَظَرَ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَى أُمِّهِ فَرَآهَا فِي لَحظَاتِهَا الأَخِيرَةِ، وَهِيَ تُسْلِمُ الرُّوحَ للهِ تَعَالَى، فَمَاتَتْ آمِنَةُ لِتَلْحَقَ بِعَبْدِ اللهِ.

وَهَا هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ يَفْقِدُ أُمَّهُ صَغِيراً، كَمَا فَقَدَ أَبَاهُ وَلِيداً، وَلَمْ يَتَمَالَكْ نَفْسَهُ حَتَّى فَاضَتْ عَيْنَاهُ بِالدُّمُوعِ؛ حُزْناً عَلَى أُمِّهِ الرَّؤُومِ، وَلَقَدْ صَارَ الآنَ بِلا أَبٍ أَوْ أُمٍّ فَاحْتَضَنَتْهُ أُمُّ أَيْمَنَ وَهِيَ تُغَالِبُ دَمْعَ عَيْنَيْهَا، فَلَمَّا عَادَتْ بِهِ إِلَى مَكَّةَ أَسْرَعَ إِلَيْهِ جَدُّهُ عَبْدُ المُطَّلِبِ لِيَضُمَّهُ إِلَيْهِ، وَاحْتَضَنَهُ، وَكَأَنَّ لِسَانَ حَالِهِ يَقُولُ:

مَا أَصْغَرَكَ وَأَضْعَفَكَ عَنْ تَحَمُّلِ مِثْلِ هَذِهِ الآلَامِ! لَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ سِرٍّ فِي هَذَا الأَمْرِ.

وَصَارَ عَبْدُ المُطَّلِبِ الأَبَ، وَالأُمَّ، وَالأَخَ لِمُحَمَّدٍ

ﷺ، فَكَانَ يُقَرِّبُهُ مِنْهُ وَلا يَأْذَنُ لِأَحَدٍ بِالدُّخُولِ عَلَيْهِ إِلَّا هُوَ، حَتَّى أَنَّه كَانَ - أَيْ عَبْدُ المُطَّلِبِ - يَجْلِسُ فِي الكَعْبَةِ وَأَوْلادُهُ حَوْلَهُ لا يَجْرُؤُ أَحَدٌ أَنْ يَقْتَرِبَ مِنْهُ إِلَّا بِإِذْنٍ، إِلَّا مُحَمَّداً ﷺ فَإِنَّهُ كَانَ يَجْلِسُ بِجِوَارِهِ كَمَا يُرِيدُ وَيُحِبُّ، بَلْ لا يَأْكُلُ إِلَّا وَمُحَمَّدٌ مَعَهُ، وَكَانَ يُوصِي «أُمَّ أَيْمَنَ» (وَهِيَ حَاضِنَتُهُ وَمُرَبِّيَتُهُ) أَنْ تَهْتَمَّ بِهِ وَلا تَغْفَلَ عَنْهُ، وَأَنْ تُطْعِمَهُ وَتَسْقِيَهُ.

وَلَكِنَّ القَدَرَ لَمْ يُمْهِلْ عَبْدَ المُطَّلِبِ لِيَرَى عَظَمَةَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَدِ اخْتَطَفَهُ الموتُ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ مُحَمَّدٌ ﷺ الثَّامِنَةَ مِنْ عُمُرِهِ، لِيَتْرُكَهُ ﷺ وَحِيداً فِي هَذَا الكَوْنِ الوَاسِعِ.

***

وَقَبْلَ وَفَاةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَفِي لَحَظَاتِهِ الأَخِيرَةِ أَوْصَى وَلَدَهُ أَبَا طَالِبٍ أَنْ يَحْفَظَ مُحَمَّداً ﷺ وَيَرْعَاهُ، فَكَانَ أَبُو طَالِبٍ نِعْمَ الرَّاعِي وَالكَفِيلُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ وَكَانَ أَبُو طَالِبٍ رَجُلًا فَقِيراً لَا مَالَ لَهُ.

وَلَكِنْ مَا إِنْ دَخَلَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ ﷺ حَتَّى بَارَكَ اللهُ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَرَغْمَ أَنَّ أَوْلادَ أَبِي طَالِبٍ كَانُوا كَثِيراً إِلَّا أَنَّ أَبَا طَالِبٍ كَانَ يَرَى فِي مُحَمَّدٍ ﷺ وَلَدًا رَائِعاً مُؤَدَّباً؛

فَكَانَ لا يَطِيقُ فِرَاقَهُ، وَلا يَأْكُلُ إِلَّا مَعَهُ، بَلْ إِنَّهُ لَيَخُصُّهُ بِبَعْضِ الطَّعَامِ أَكْثَرَ مِنْ أَوْلادِهِ.

وَمِنْ عَجَائِبِ مَا كَانَ يَحْدُثُ فِي دَارِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّ أَوْلَادَهُ إِذَا أَكَلُوا وَحْدَهُمْ وَلَمْ يَأْكُلْ مَعَهُمْ لَمْ يَشْبَعُوا، فَإِذَا أَكَلَ مَعَهُمْ شَبِعُوا، حَتَّى أَنَّ أَبَا طَالِبٍ كَانَ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الطَّعَامِ؛ حَتَّى يَأْتِيَ مُحَمَّدٌ ﷺ لِيَأْكُلَ مَعَهُمْ فَإِذَا أَكَلُوا جَمِيعاً شَبِعُوا.

وَكَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ أَسَدٍ زَوْجَةُ أَبِي طَالِبٍ تُحِبُّ مُحَمَّداً ﷺ هِيَ الأُخْرَى، فَكَانَتْ تَجُوعُ وَتُطْعِمُهُ، وَتَكْسُوهُ خَيْرَ المَلابِسِ، وَتَمْنَعُ نَفْسَهَا وَأَوْلادَهَا خَيْرَ الطَّعَامِ، وَتُعْطِيهِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، كَمَا كَانَتْ تُنَظِّفُهُ، وَتَدْهَنُ شَعْرَهُ، وَتُفَضِّلُهُ عَلَى أَوْلادِهَا جَمِيعاً.

***

وَنَظَرَ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَى حَالِ عَمِّهِ، فَوَجَدَهُ فَقِيراً صَاحِبَ عِيَالٍ، فَأَرَادَ أَنْ يُسَاعِدَهُ؛ فَقَرَّرَ أَنْ يَبْدَأَ فِي عَمَلٍ يُسَاعِدُ بِهِ عَمَّهُ، أَوْ يَحْمِلُ عَنْهُ قَلِيلًا، وَيَرُدُّ إِلَيْهِ المَعْرُوفَ الَّذِي أَسْدَاهُ إِلَيْهِ، لِتَبْدَأَ حَيَاةُ الكِفَاحِ وَالعَمَلِ فَيَبْدَأُ الصَّغِيرُ مُحَمَّدٌ ﷺ فِي رَعْيِ الأَغْنَامِ.

وَمِنْ شِدَّةِ حُبِّ أَبِي طَالِبٍ لِابْنِ أَخِيهِ مُحَمَّدٍ ﷺ

كَانَ يَجْعَلُهُ مَعَهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ يَذْهَبُ إِلَيْهِ.

وَذَاتَ مَرَّةٍ أَرَادَ أَبُو طَالِبٍ الخُرُوجَ إِلَى الشَّامِ فِي تِجَارَةٍ لَهُ، وَقَبْلَ خُرُوجِهِ نَظَرَ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَأَحَسَّ بِشِدَّةِ الحُبِّ لَهُ، وَتَأَكَّدَ أَنَّهُ لَنْ يَسْتَطِيعَ فِرَاقَهُ، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: وَاللهِ لَا أَخْرُجُ إِلَّا وَأَنْتَ مَعِي، فَلَنْ تُفَارِقَنِي أَبَداً.

وَفِي الطَّرِيقِ كَانَتْ تَنْتَشِرُ صَوَامِعُ[1] الرُّهْبَانِ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى عِلْمٍ بِأَوْصَافِ نَبِيِّ آخِرِ الزَّمَانِ، وَكَانُوا قَدْ قَرَؤُوا صِفَتَهُ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ، وَمِنْ هَؤُلَاءِ كَانَ أَحَدُ الرُّهْبَانِ وَيُسَمَّى «بَحِيرَا»، وَكَانَ صَالِحاً، يَعْرِفُ صِفَةَ النَّبِيِّ ﷺ.

وَنَظَرَ بَحِيرَا إِلَى القَافِلَةِ الَّتِي قَدِمَ فِيهَا أَبُو طَالِبٍ وَمُحَمَّدٌ ﷺ فَإِذَا بِهِ يَرَى غَمَامَةً[2] فِي السَّمَاءِ تُظَلِّلُ مُحَمَّداً ﷺ وَتَسِيرُ مَعَهُ أَيْنَمَا سَارَ، وَهَذِهِ عَلَامَةٌ مِنْ عَلَامَاتِ نَبِيِّ آخِرِ الزَّمَانِ، وَأَرَادَ «بَحِيرَا» التَّأَكُّدَ مِنْ هَذَا النَّبِيِّ، وَالنَّظَرَ فِي وَجْهِهِ، فَصَنَعَ طَعاماً، وَدَعَا القَافِلَةَ جَمِيعاً لِلأَكْلِ، فَقَالُوا:

---

(١) **الصوامع**: جمع صومعة، وهي مكان يسكنه الرهبان للعبادة.

(٢) سحابة.

- يَا بَحِيرَا كُنَّا نَمُرُّ عَلَيْكَ فَلَمْ تَصْنَعْ لَنَا طَعَاماً، فَلِمَاذَا هَذِهِ المَرَّةَ؟!

- قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ ضُيُوفِي، فَلْتَأْتُوا جَمِيعاً وَلَا يَتَخَلَّفْ مِنْكُمْ أَحَدٌ.

وَجَاؤُوا جَمِيعاً إِلَّا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَنَظَرَ بَحِيرَا فَلَمْ يَجِدْهُ، فَقَالَ: هَلْ جِئْتُمْ جَمِيعاً؟

قَالُوا: نَعَمْ، إِلَّا غُلاماً صَغِيراً، اسْمُهُ مُحَمَّدٌ جَعَلْنَاهُ فِي رِحَالِنَا.

فَقَالَ: إِذَنْ، لِيَذْهَبْ أَحَدُكُمْ وَلْيَأْتِنِي بِهِ.

وَحَضَرَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَجَلَسَ لِلطَّعَامِ مَعَ قَوْمِهِ فَلَمَّا فَرَغَ القَوْمُ مِنَ الطَّعَامِ، وَبَقِيَ بَحِيرَا وَمُحَمَّدٌ ﷺ وَحْدَهُمَا.

قَالَ بَحِيرَا: يَا غُلامُ أَسْتَحْلِفُكَ باللَّاتِ وَالعُزَّى، أَنْ تُجِيبَنِي عَمَّا أَسْأَلُكَ عَنْهُ، قَالَ: «**لَا تَسْأَلْنِي بِاللَّاتِ وَالعُزَّى شَيْئاً، فَوَاللهِ إِنِّي لأَكْرَهُهُمَا**».

فَقَالَ: إِذَنْ أَسْأَلُكَ بِاللهِ.

قَالَ: «**اسْأَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ**».

فَرَاحَ بَحِيرَا يَسْأَلُهُ عَنْ أُمُورِ نَوْمِهِ، وَطَعَامِهِ، حَتَّى كَشَفَ عَنْ كَتِفِهِ؛ فَرَأَى خَاتَمَ النُّبُوَّةِ عَلَى كَتِفِهِ، وَهُوَ بَعْضُ شَعَرَاتٍ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَقَالَ بَحِيرَا لِأَبِي طَالِبٍ: مَنْ هَذَا الغُلَامُ؟ فَقَالَ: ابْنِي. قَالَ بَحِيرَا: لَا، مَا هُوَ بِابْنِكَ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَبَوَاهُ قَدْ مَاتَا.

قَالَ أَبُو طَالِبٍ: نَعَمْ، مَاتَ أَبُوهُ وَأُمُّهُ حُبْلَى[١]، وَمَاتَتْ أُمُّهُ.

فَقَالَ بَحِيرَا: صَدَقْتَ، فَارْجِعْ بِابْنِ أَخِيكَ إِلَى بَلَدِكَ، وَاحْذَرْ عَلَيْهِ اليَهُودَ، فَلَوْ عَرَفُوهُ لَقَتَلُوهُ.

وَعَادَ أَبُو طَالِبٍ إِلَى مَكَّةَ.

وَقَدْ تَأَكَّدَ أَنَّ لِابْنِ أَخِيهِ شَأْناً بَيْنَ النَّاسِ جَمِيعاً، وَمَا زَالَتْ كَلِمَاتُ بَحِيرَا فِي أُذُنِهِ: «احْذَرْ عَلَيْهِ اليَهُودَ».

---

(١) حُبْلَى: أي حامل.

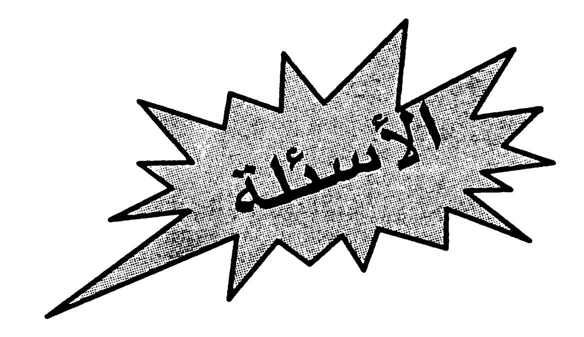
الدروس المستفادة

(١) مَوْتُ وَالِدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ؛ كَيْ يَكُونَ اللهُ تَعَالَى هُوَ الرَّاعِي لِلنَّبِي ﷺ ، وَلَا يَرْعَاهُ أَحَدٌ غَيْرَهُ.

(٢) الرَّسُولُ ﷺ أَعْظَمُ مَوْلُودٍ فِي الوُجُودِ، عَمَّت بَرَكَتُهُ كُلَّ مَكَانٍ ذَهَبَ إِلَيْهِ.

(٣) اللهُ تَعَالَى يُطَهِّرُ قُلُوبَ الأَنْبِيَاءِ وَالصَّالحينَ مِنْ حَظِّ الشَّيْطَانِ.

(٤) ضَرُورَةُ العَمَلِ فِي حَيَاةِ الإِنْسَانِ.



من هو؟

(١) جدُّ النبيِّ ﷺ الذي رعاه بعد موتِ أُمِّه.

(٢) راهبٌ في الشام رأى رسول الله وكَلَّمَه.

(٣) مُرضعة النبيِّ ﷺ التي كانت من بادية بني سعد؟.

*** اختر من بين الأقواس الإجابة الصحيحة:**

(١) كانت أُولى مُرضعات النبي ﷺ هي ..... [بريرة - ثويبة - نفيسة].

(٢) أم النبي ﷺ التي كانت تحبُّه وهي .... [آمنة - خديجة - حليمة].

(٣) امرأة أبي طالب التي كانت ترعى النبيَّ ﷺ .... [فاطمة الزهراء - فاطمة بنت أسد - فاطمة النبويَّة].

*** صِفْ لنا حادثة شقّ الصدر بأسلوبك الشخصي.**

الإجابة:

عبد المطلب، بَحِيرًا، حليمة السَّعدية.

ثويبة، آمنة، فاطمة بنت أسد.

مَا قَبل البِعثَة

وَسْطَ ظُلُمَاتِ مَكَّةَ الَّتِي كَانَتْ غَارِقَةً فِي جَاهِلِيَّتِهَا نَشَأَ الرَّسُولُ ﷺ ، فَلَمْ يَسْجُدْ لِصَنَمٍ مِنَ الأَصْنَامِ قَطّ.

وَلَمْ يَكُنْ يَفعَلُ كَمَا يَفْعَلُ شَبَابُ مَكَّةَ مِنَ اللَّهْوِ، بَلْ كَانَ مَثَلًا لِلأَخْلَاقِ الطَّيِّبَةِ، فَكَانَ ﷺ هُوَ الصَّادِقَ الأَمِينَ الَّذِي أَحَبَّهُ أَهْلُ مَكَّةَ جَمِيعاً.

وَبَيْنَمَا هُوَ صَغِيرٌ ﷺ إِذَا بِهِ يُشَارِكُ فِي نَقْلِ الحِجَارَةِ لِبِنَاءِ الكَعْبَةِ.

فَقَالَ لَهُ عَمُّهُ العَبَّاسُ: اجْعَلْ إِزَارَكَ(١) عَلَى رَقَبَتِكَ؛ فَفَعَلَ، فَإِذَا بِهِ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ، فَيَرَى مَنْ يَأْمُرُهُ بِأَنْ يُعِيدَ إِزَارَهُ كَمَا كَانَ، وَلَمْ يَرَ أَحَدٌ عَوْرَتَهُ(٢) بَعْدَ ذَلِكَ أَبَداً.

وَلِأَنَّهُ رَأَى عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ فَقِيراً وَصَاحِبَ عِيَالٍ، أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ لِمُسَاعَدَتِهِ، فَبَدَأَ أَوَّلًا بِرَعْيِ الأَغْنَامِ فِي مَكَّةَ، وَكَانَ الأَنْبِيَاءُ قَبْلَهُ قَدْ رَعَوُا الأَغْنَامَ.

---

(١) **الإزار**: هو الثوب الذي يلبسه الإنسان في جزئه الأسفل.

(٢) **العورة**: هي الجزء الذي يجب ستره وعدم إظهاره.

وَإِنَّ فِي رَعْيِ الأَغْنَام فَوَائِدُ عَدِيدَةٌ؛ مِنْهَا: أَنَّ رَاعِيَ الغَنَم يَسْتَطِيعُ الحِفَاظَ عَلَيْهَا، وَهِدَايَتَهَا إِلَى الطَّرِيقِ الصَّحِيح، وَحِفْظَهَا مِنَ الذِّئَابِ، وَالضِّيَاع، وَهَكَذَا يَفْعَلُ النَّبِيُّ يَهْدِي النَّاسَ إِلَى طَرِيقِ اللهِ، بَدَلًا مِنْ أَنْ يَدْخُلُوا النَّارَ.

وَبَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْعَى الغَنَمَ - ذَاتَ مَرَّةٍ - إِذَا بِهِ يَسْمَعُ صَوْتَ المَزامِيرِ وَالطُّبُولِ، فَحَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ أَنْ يَذْهَبَ لِسَمَاعِ هَذَا اللَّهْوِ كَمَا يَفْعَلُ الشَّبَابُ، فَقَالَ لِرَاعٍ آخَرَ كَانَ مَعَهُ: احْفَظْ لِي غَنَمِي حَتَّى أَدْخُلَ مَكَّةَ، فَأَلْهُوَ ثُمَّ أَعُودَ.

وَانْطَلَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى البَيْتِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ صَوْتُ المَزَامِيرِ فَعَرَفَ أَنَّهُ حَفْلُ زَوَاجٍ، فَنَظَرَ إِلَى هَذَا البَيْتِ، وَإِذَا بِهِ يَحْدُثُ لَهُ العَجَبُ، فَلَقَدْ أَحسَّ فَجأَةً أَنَّ الشَّمْسَ الحَارَّةَ تُوقِظُهُ مِنْ نَوْمِهِ، نَعَمْ، لَقَدْ نَامَ مُحَمَّدٌ وَحَفِظَهُ رَبُّهُ مِنَ اللَّهْوِ، فَلَمْ يَسْتَيْقِظْ إِلَّا فِي اليَوْم التَّالِي، فَعَادَ إِلَى غَنَمِهِ وَصَاحِبِهِ، وَحَاوَلَ أَنْ يُكَرِّرَ هَذَا الأَمْرَ مَرَّةً أُخْرَى، لَكِنْ حَدَثَ لَهُ مَا حَدَثَ فِي المَرَّةِ الأُولَى، فَلَمْ يَعُدْ إِلَى اللَّهْوِ أَبَدًا.

وَفِي مَكَّةَ كَانَتِ الحُرُوبُ لَا تَهْدَأُ، بَلْ إِنَّ الحُروبَ دَائِماً مُشْتَعِلَةٌ كَأَنَّهَا النَّارُ، وَحَدَثَ أَنْ قَامَتْ حَرْبٌ بَيْنَ قُرَيْشٍ وَقَبِيلَةٍ أُخْرَى تُسَمَّى «قَيْسَ عَيْلَانَ»، وَسُمِّيَتْ هَذِهِ الحَرْبُ «حَرْبَ الفِجَارِ» وَكَانَتْ فِي الأَشْهرِ الحُرُمِ.

وَفِي ذَلِكَ الوَقْتِ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَدْ بَلَغَ مِنَ العُمُرِ عِشْرِينَ عَاماً كَامِلَةً، فَاشْتَرَكَ فِي هَذِهِ الحَرْبِ، فَكَانَ يَجْمَعُ لَهُمُ النِّبَالَ الَّتِي يَرمِيهَا عَلَيْهِمْ أَعْدَاؤُهُمْ، ثُمَّ يُعْطِيهَا لِأَعْمَامِهِ مَرَّةً أُخْرَى.

وَانْتَهتْ هَذِهِ الْحَرْبُ لِأَنَّ كِلَا الطَّرَفَيْنِ كَانَ قَوِيًّا فَلَمْ يَهْزِمْ فَرِيقٌ الآخَرَ؛ فَقَرَّرَا الصُّلْحَ فِيمَا بيْنَهُمَا، وَزَادَتْ هَذِهِ الحَرْبُ رَسُولَ اللهِ ﷺ خِبْرَةً وحِنْكَةً وَمَهَارَةً.

وَفِي هَذِهِ الأَيَّام أَيْضاً سَجَّلَتْ مَكَّةُ حَدَثاً عَظِيماً دَلَّ عَلَى أَنَّ لِلْعَرَبِ أَخْلاقاً طَيِّبَةً وَكَرِيمَةً، فَقَدْ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى مَكَّةَ لِيُتَاجِرَ فِي بَعْضِ السِّلَعِ التِّجَارِيَّةِ، فَاشْتَرَاهَا مِنْهُ العَاصُ بْنُ وَائِلٍ السَّهْمِيُّ - وَالِدُ عَمْرو بْنِ العَاصِ - وَلَمْ يُعْطِ الرَّجُلَ حَقَّهُ وَمَالَهُ؛ فَرَاحَ الرَّجُلُ يَصْرُخُ بَاحِثاً عَنْ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ يَنْصُرُهُ ويُعِيدُ لَهُ حَقَّهُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ أَحَداً فِي مَكَّةَ يُسَاعِدُهُ فِي طَلَبِهِ المُحِقِّ.

فَصَعِدَ الرَّجُلُ عَلَى جَبَلٍ بِمَكَّةَ وَهُوَ جَبَلُ «أَبِي

قُبَيْسٍ» فَنَادَى فِي أَهْلِ مَكَّةَ لِيَنْصُرُوهُ عَلَى العَاصِ بْنِ وَائِلٍ؛ فَقَامَ الزُّبَيْرُ بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ عَمُّ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَجَمَعَ قُرَيْشاً فِي دَارِ رَجُلٍ مِنْ رِجَالِهَا وَهُوَ «عَبْدُ اللهِ بْنُ جُدْعَانَ».

ثُمَّ تَحَالَفَتْ قُرَيْشٌ فِيمَا بَيْنَهَا لِيَكُونُوا يَداً وَاحِدَةً مَعَ المَظْلُوم عَلَى الظَّالِم حَتَّى يَأْخُذَ حَقَّهُ، وَتَحَالَفُوا[١] أَيْضاً أَنْ يَتَقَاسَمُوا مَعَ الفُقَرَاءِ بَعْضَ أَمْوَالِهِمْ؛ حَتَّى لَا يَبْقَى فَقِيرٌ يَسْأَلُ النَّاسَ.

وَلِأَنَّ هَذَا الحِلْفَ كَانَ حِلْفَ خَيْرٍ فَقَدْ سُمِّيَ «حِلْفَ الفُضُولِ»، وَشَهِدَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَحِينَمَا تَذَكَّرَهُ بَعْدَ البِعْثَةِ النَّبَوِيَّةِ قَالَ: «**لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفاً لَوْ دُعِيتُ إِلَيْهِ فِي الإِسْلام لأَجَبْتُ، تَحَالَفُوا أَنْ يَرُدُّوا الفُضُولَ عَلَى أَهْلِهَا، وَأَلَّا يَعْدُوَ[٢] ظَالِمٌ على مَظْلُومٍ**»، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى رِضَا النَّبِيِّ ﷺ عَن هَذَا الحِلْفِ.

***

وَلَمَّا انْتَشَرَ فِي مَكَّةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ هُوَ «الصَّادِقُ

---

(١) **تحالفوا**: تعاهدوا، والحِلْف: العهد.

(٢) يظلم.

الأَمِينُ» كَانَ رِجَالُ قُرَيْشٍ يَضَعُونَ عِنْدَهُ أَمَانَاتِهِمْ، وَيَطْلُبُونَ مِنْهُ المُتَاجَرَةَ فِي أَمْوَالِهِمْ، فَكَانَ يَرْبَحُ المالَ الوَفِيرَ، ثُمَّ يَأْخُذُ مَالاً يَعِيشُ بِهِ وَيُسَاعِدُ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ.

وَكَانَ فِي قُرَيْشٍ امْرَأَةٌ تُسَمَّى «خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ» وَهِيَ امْرَأَةٌ غَنِيَّةٌ؛ فَقَدْ تَزَوَّجَتْ بِرَجُلٍ غَنِيٍّ مَاتَ عَنْهَا، ثُمَّ تَزَوَّجَتْ بِآخَرَ فَمَاتَ وَتَرَكَ لَهَا مَالاً وَفِيراً، وَلأَنَّهَا امْرَأَةٌ فَقَدْ كَانَتْ تَسْتَأْجِرُ الرِّجَالَ لِلْعَمَلِ فِي تِجَارَتِهَا، وَيَبْدُو أَنَّهَا قَدْ تَعَرَّضَتْ كَثِيراً لِلسَّرِقَةِ أَوْ لِضَيَاعِ بَعْضِ مَالِهَا.

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِالصَّادِقِ الأَمِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَتَأَكَّدَتْ مِنْ أَمَانَتِهِ؛ طَلَبَتْ مِنْهُ أَنْ يَخْرُجَ فِي تِجَارَةٍ لَهَا، وَتُعْطِيَهُ أَجْراً مُقَابِلَ هٰذَا، وَأَرْسَلَتْ مَعَهُ غُلاماً لَهَا اسْمُهُ «مَيْسَرَةُ».

وَأَثْنَاءَ هَذِهِ الرِّحْلَةِ إِلَى الشَّام رَأَى مَيْسَرَةُ العَجَبَ العُجَابَ؛ لَقَدْ رَآهُ ﷺ أَمِيناً فِي تِجَارَتِهِ، صَادِقاً فِي حَدِيثِهِ، وَرَأَى سَحَابَةً تُظِلُّهُ أَيْنَمَا ذَهَبَ.

وَفِي طَرِيقِ العَوْدَةِ جَلَسَ الصَّادِقُ الأَمِينُ تَحْتَ شَجَرَةٍ يَسْتَظِلُّ بِهَا مِنَ الشَّمْسِ؛ فَرَآهُ أَحَدُ الرُّهْبَانِ، فَدَعَا مَيْسَرَةَ وَسَأَلَهُ عَنْهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: إِنَّ هَذِهِ الشَّجَرَةَ لَمْ يَنْزِلْ تَحْتَهَا إِلَّا نَبِيٌّ.

وَكَانَ مَيْسَرَةُ يَرَى مَعَهُ مَلَكَيْنِ يُظِلَّانِهِ بِجَنَاحَيْهِمَا أَيْنَمَا ذَهَبَ، فَلَمَّا عَادَ أَخْبَرَ سَيِّدَتَهُ خَدِيجَة بِهَذَا الأَمْرِ؛ فَذَهَبَتْ إِلَى ابْنِ عَمِّهَا «وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ»، وَكَانَ نَصْرَانِيًّا[١]، قَرَأَ الكُتُبَ وَعَرَفَ صِفَةَ نَبِيِّ آخِرِ الزَّمَانِ، فَبَشَّرَهَا بِذَلِكَ.

وَأَحَسَّتْ خَدِيجَةُ أَنَّ الصَّادِقَ الأَمِينَ كَنْزٌ لا يَنْبَغِي أَنْ يُتْرَكَ، وَلَكِنْ كَيْفَ تَتَزَوَّجُهُ؟ فَهُوَ فِي الخَامِسَةِ وَالعِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ، وَهِيَ فِي الأَرْبَعِينَ مِنْ عُمُرِهَا، فَلْتُحَاوِلْ؛ فَإِنَّهَا الجَمِيلَةُ الغَنِيَّةُ الَّتِي يَخْطُبُهَا الرِّجَالُ، وَيَرَوْن فِيهَا امْرَأَةً مُنَاسِبَةً لِلزَّوَاجِ، وَبِالْفِعْلِ أَرْسَلَتْ صَدِيقَتَهَا إِلَى الصَّادِقِ الأَمِينِ تَعْرِضُ عَلَيْهِ الزَّوَاجَ مِنْهَا، فَقَبِلَ وَوَافَقَ عَلَى الفَوْرِ؛ فَهِيَ امْرَأَةٌ حَسَنَةُ الأَخْلاقِ، شَرِيفَةٌ فِي حَسَبِهَا وَنَسَبِهَا.

وَكَانَ العُرْسُ عَلَى مَشْهَدٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَفِيهِ قَامَ أَبُو طَالِبٍ خَطِيباً فِي قَوْمِهِ يَمْدَحُ رَسُولَ اللهِ وَخَدِيجَةَ، وَطَارَ الخَبَرُ فِي مَكَّةَ كُلِّهَا، تَزَوَّجَ الأَمِينُ مُحَمَّدٌ بِالشَّرِيفَةِ خَدِيجَةَ.

وَمَضَتِ الحَيَاةُ حُلْوَةً عَذْبَةً حَتَّى أَنْجَبَتْ خَدِيجَةُ

(١) **النصراني**: المعتنق للدين المسيحي.

لِمُحَمَّدٍ ﷺ: القَاسِمَ، وَعَبْدَ اللهِ، وَرُقَيَّةَ، وَأُمَّ كُلْثُوم، وَزَيْنَبَ، وَفَاطِمَةَ، وَلَكِنْ مَاتَ القَاسِمُ وَمَاتَ عَبْدُ اللهِ، وَبَقِيتِ البَنَاتُ جَمِيعُهُنَّ، وَعُرِفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكُنْيَتِهِ وَهِيَ «أَبُو القَاسِم» وَرَبَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ بَنَاتَهُ وأَشْرَفَ عليهنَّ حَتَّى كَبُرْنَ وتزوجن وَهُوَ رَاضٍ عَنْهُنَّ جَمِيعاً.

***

حَدَثَتْ حَادِثَةٌ كُبْرَى فِي تَارِيخِ مَكَّةَ وَهِيَ أَنَّ قُرَيْشاً أَرَادَتْ أَنْ تَبْنِيَ الكَعْبَةَ بَعْدَ أَنِ انْهَدَمَتْ. وَجَمَعَتْ قُرَيْشٌ المالَ لِتَبْنِيَ الكَعْبَةَ، وَشَارَكَتْ كُلُّ القَبَائِلِ فِي بِنَائِهَا.

وَلَمَّا انْتَهَتْ قُرَيْشٌ مِنَ البِنَاءِ بَقِيَ أَنْ يُوضَعَ الحَجَرُ الأَسْوَدُ[١] فِي مَكَانِهِ، وَهُوَ شَرَفٌ عَظِيمٌ؛ أَرَادَتْ كُلُّ القَبَائِلِ أَنْ تَأْخُذَهُ وَحْدَهَا، وَأَوْشَكَتْ نَارُ الحَرْبِ عَلَى الاشْتِعَالِ، حَتَّى قَالَ أَحَدُهُمْ: نَجْعَلُ أَوَّلَ رَجُلٍ يَمُرُّ مِنْ هُنَا حَكَماً فِيمَا بَيْنَنَا.

(١) انظر قصته في قصة إبراهيم عليه السلام في قصص الأنبياء للأطفال - ط. دار الفجر للتراث.

وَمِنْ سَعِيدِ الأَقْدَارِ أَنَّ أَوَّلَ المارِّينَ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ فَقَالُوا: إِنَّهُ الأَمِينُ، فَعَرَضُوا عَلَيْهِ الأَمْرَ، فَخَلَعَ ثَوْبَهُ، وَوَضَعَ الحَجَرَ الأَسْوَدَ فِيهِ، ثُمَّ أَمَرَ رَجُلًا مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ أَنْ يُمْسِكَ بِطَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِ ثَوْبِهِ؛ فَفَعَلُوا، ثُمَّ رَفَعُوا الحَجَرَ، وَوَضَعَهُ مُحَمَّدٌ فِي الكَعْبَةِ لِيَظَلَّ هَذَا حَدِيثَ مَكَّةَ كُلِّهَا، وَرَاحُوا يَتَعَجَّبُونَ كَيْفَ اسْتَطَاعَ الأَمِينُ بِحِكْمَتِهِ أَنْ يُطْفِئَ نَارَ الحَرْبِ وَالفِتْنَةِ!

وَخِلَالَ سَنَوَاتِ مَا قَبْلَ البِعْثَةِ النَّبَوِيَّةِ كَانَ الأَمِينُ مُحَمَّدٌ ﷺ يَعْبُدُ رَبَّهُ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، حَيْثُ يَذْهَبُ إِلَى غَارِ حِرَاءٍ فِي جِبَالِ مَكَّةَ يَتَعَبَّدُ فِيهِ لله، وَيَخْتَلِي بِرَبِّهِ شَهْرَ رَمَضَانَ كَامِلًا، يَتَفَكَّرُ وَيَتَأَمَّلُ فِي خَلْقِ اللهِ تَعَالَى.

* * *

وَفِي العَالَمِ الآخَرِ كَانَتِ الشَّيَاطِينُ تُحِسُّ بِأَمْرٍ غَرِيبٍ، فَلَقَدْ كَانَ الشَّيَاطِينُ يَتَجَسَّسُونَ وَيَسْمَعُونَ الأَخْبَارَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَكِنْ حَدَثَ أَمْرٌ عَجِيبٌ، فَإِنَّ النُّجُومَ الآنَ تُطَارِدُ كُلَّ شَيْطَانٍ يُحَاوِلُ مَعْرِفَةَ الأَخْبَارِ فِي السَّمَاءِ، تُحْرِقُهُ وَتَقْتُلُهُ، فَأَصَابَهُمُ العَجَبُ.

وَفِي بَيْتِ الأَمِينِ مُحَمَّدٍ كَانَ يَرَى الرُّؤْيَا فِي نَوْمِهِ فَيَجِدُهَا قَدْ تَحَقَّقَتْ فِي اليَوْمِ التَّالِي.

وَفِي الشَّامِ نَظَرَ الرُّهْبَانُ إِلَى السَّمَاءِ، فَوَجَدُوا نُورَهَا قَدِ ازْدَادَ.

وَفِي (يَثْرِبَ) نَظَرَ اليَهُودُ إِلَى السَّمَاءِ فَوَجَدُوا عَلامَاتِ ظُهُورِ نَبِيِّ آخِرِ الزَّمَانِ قَدْ ظَهَرَتْ وَتَحَقَّقَتْ.

وَخَدِيجَةُ تَرْتَقِبُ هَذَا الأَمْرَ العَظِيمَ الَّذِي بَشَّرَهَا بِهِ ابْنُ عَمِّهَا (وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ) إِنَّ مُحَمَّداً قَدْ بَلَغَ الأَرْبَعِينَ مِنْ عُمُرِهِ، وَلَا زَالَ يَخْتَلِي كُلَّ عَامٍ فِي رَمَضَانَ بِرَبِّهِ فِي غَارِ حِرَاءٍ، لَكِنَّهُ الآنَ يُحِسُّ بِشَيْءٍ غَرِيبٍ فِي قَلْبِهِ.

فَالْكَوْنُ كُلُّهُ مِنْ حَوْلِهِ قَدْ تَغَيَّرَتْ فِيهِ أَشْيَاءُ عَجِيبَةٌ، فَلا الجِبَالُ هِيَ الجِبَالُ، وَلَا السَّمَاءُ هِيَ السَّمَاءُ، ثُمَّ مَا هَذِهِ الرُّؤَى الَّتِي يَرَاهَا ثُمَّ تَتَحَقَّقُ؟!

إِنَّ الأَمِينَ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَنَّ الوَحْيَ سَيَهْبِطُ عَلَيْهِ، وَأَنَّ وَجْهَ العَالَمِ سَوْفَ يَتَغَيَّرُ.

***

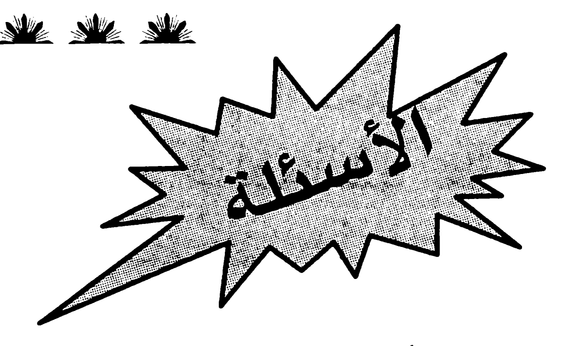
الدروس المستفادة

(١) ضرورةُ العَمَلِ فِي حَيَاةِ الإِنْسَانِ.

(٢) كُلُّ الأَنْبِياءِ رَعَوُا الغَنَمَ.

(٣) الأَمَانَةُ وَالصِّدْقُ مِنْ صِفاتِ الأَنْبِياءِ.

***



(١) لُقِّبُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِلَقَبٍ قَبْلَ الإسلامِ يَدُلُّ على حُسْنِ أخلاقِهِ، فما هُوَ؟

(٢) اذْكُرِ اسْمَ غُلامِ السَّيِّدة خديجةَ الذي ذهبَ معَ رسولِ الله إِلى الشامِ وَرَأَى العَجَبَ.

(٣) كم كان عُمرُ رَسُولِ اللهِ ﷺ حينَ تَزَوَّجَ خديجةَ؟ وكَمْ كانَ عُمْرُها؟

***

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ

أَطَلَّ شَهْرُ رَمَضَانَ المُعَظَّمُ بِنُورِهِ عَلَى الكَوْنِ، وَخَرَجَ الأَمِينُ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَى غَارِ حِرَاءٍ، لِيَتَعَبَّدَ فِيهِ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيُشَاهِدَ رَوْعَةَ الخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ، إِنَّهُ يَنْظُرُ بِعَيْنِهِ إِلَى السَّمَاءِ فَيَجِدُهَا مِهْرَجاناً إِلٰهِيًّا فَرِيداً مِنَ الإِبْدَاعِ، فَهَا هِيَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ النُّجُومِ كَأَنَّهُنَّ فِي حَفْلَةِ سَمَرٍ يَتَحَدَّثْنَ سَوِيًّا.

وَقَدِ انْفَرَدَتْ نَجْمَتَانِ بَعِيداً كَأَنَّهُمَا تَتَحَدَّثَانِ فِي أَمْرٍ هَامٍّ، وَهَا هِيَ نَجْمَةٌ وَحِيدَةٌ قَدْ عَزَلَتْ نَفْسَهَا بَعِيداً عَنْ بَاقِي أَخَوَاتِهَا فَإِذَا بِهَا عَيْنٌ جَمِيلَةٌ تَلْمَعُ بِالْمَحَبَّةِ.

وَهَا هِيَ الجِبَالُ شَاهِقَةُ الارْتِفَاعِ، فَمَنِ الَّذِي أَعْطَاهَا هَذَا الارْتِفَاعَ؟

مَنِ الَّذِي خَلَقَ هَذِهِ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ؟

وَمنِ الَّذِي أَنْزَلَ الماءَ مِنَ السَّمَاءِ فَإِذَا بِالإِنْسَانِ يَشْرَبُ وَيَرْتَوِي، وَكَذَا الحَيَوَانُ وَالزُّرُوعُ؟

إِنَّ خَالِقاً لِلْكَوْنِ هُوَ أَعْظَمُ مِنْ تِلْكَ الآلِهَةِ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا.

إِنَّهُمْ صَنَعُوا الآلِهَةَ وَعَبَدُوهَا، لٰكِنَّ الإِلٰهَ الَّذِي يُعْبَدُ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَظِيماً، وأَكْبَرَ مِنْهُمْ جَمِيعاً، إِنَّهُ هُوَ اللهُ العَلِيُّ القَدِيرُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، وَسَخَّرَ السُّفُنَ فِي البِحَارِ، وَجَعَلَ النُّجُومَ فِي السَّمَاءِ.

فَإِذَا بِالْكَوْنِ كُلِّهِ يَرْكَعُ فِي مِهْرَجَانِ الوُجُودِ الجَمِيلِ، وَيَتَّصِلُ بِبَارِئِ الوُجُودِ الجَلِيلِ، فَقَدِ اهْتَدَى مُحَمَّدٌ لِرَبِّهِ دُونَ أَنْ يَرَاهُ، فَعَبَدَهُ وَأَحَبَّهُ دُونَ أَنْ يَدْرِيَ أَنَّ رَبَّهُ يُعِدّهُ لِأَعْظَمِ مُهِمَّةٍ فِي الوُجُودِ وَهِيَ النُّبُوَّةُ.

إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ الآنَ هَادِئٌ تَمَاماً، وَقَدْ مَضَى مِنْ رَمَضَانَ أَكْثَرُ مِنْ عِشْرِينَ لَيْلَةً كاملةً.

وَمَا زَالَ الأَمِينُ فِي حِرَاءٍ يَفِيضُ قَلْبُهُ بِالْحُبِّ لِرَبِّهِ، وَتَدْمَعُ عَيْنَاهُ شَوْقاً لِلِقَائِه وَرُؤْيَاهُ، وَقَدْ عَادَ قَرِيباً مِنْ مَكَّةَ بَعْدَ أَنْ تَزَوَّدَ بِالماءِ وَالطَّعَامِ.

وَفَجْأَةً سَطَعَ فِي الكَوْنِ نُورٌ مَا رَأَى الأَمِينُ مِثْلَهُ قَبْلَ اليَوْمِ، لَقَدْ أَضَاءَ الغارُ المُظْلِمُ فَكَأَنَّ الشَّمْسَ قَدْ سَطَعَتْ[١] بِاللَّيْلِ، وَإِذَا بِهِ يَرَى مَخْلُوقاً عَجِيباً، رَآهُ

(١) **سطعت**: أشرقت.

مَخْلُوقاً مِنْ نُورٍ، عَظِيمَ الجِسْمِ، لَيْسَ كَالْبَشَرِ، فَكَأَنَّهُ مَلَكٌ مِنَ المَلائِكَةِ، وَاقْتَرَبَ المَلَكُ مِنْهُ وَجَذَبَهُ إِلَيْهِ جَذْبَةً شَدِيدَةً وَقَالَ: اقْرَأْ.

فَقَالَ مُحَمَّدٌ: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**»؛ فَقَدْ كَانَ أُمِّيًّا لَا يَقْرَأُ وَلا يَكْتُبُ. فَأَعَادَ المَلَكُ جَذْبَهُ وَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَالَ: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**».

وَأَوْشَكَ الأَمِينُ عَلَى الْمَوْتِ فَتَرَكَهُ المَلَكُ ثُمَّ جَذَبَهُ مَرَّةً ثَالِثَةً وَقَالَ اقْرَأْ، ثُمَّ تَرَكَهُ وَقَالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۞ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۞ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥].

ثُمَّ ارْتَفَعَ المَلَكُ إِلَى السَّمَاءِ تَارِكاً مُحَمَّداً ﷺ خَائِفاً مَرْعُوباً، قَدْ مَلأَ العَرَقُ جَسَدَهُ وَمَلابِسَهُ، وَاحْمَرَّ وَجْهُهُ، وَأَسْرَعَ بِالْعَوْدَةِ إِلَى دَارِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: «**زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي**»(١).

فَفَزِعَتْ خَدِيجَةُ لَمَّا رَأَتْهُ، فَأَخْبَرَهَا بِمَا حَدَثَ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي.

فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: لَا واللهِ لَا يُخْزِيكَ(٢) اللهُ أَبَداً،

---

(١) **أي**: غطُّوني. (٢) يُضيّعك.

فَإِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَقْرِي[١] الضَّيْفَ، وَتَحمِلُ الكَلَّ[٢]، وتُكْسِبُ المَعْدُومَ[٣]، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ[٤].

ثُمَّ ذَهَبَتْ وَمَعَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَى ابْنِ عَمِّهَا وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ، فَلَمَّا أَخْبَرَتْهُ الْخَبَرَ.

قَالَ وَرَقَةُ: هَذَا هُوَ النَّامُوسُ - أَي الوَحْيُ - الَّذِي كَانَ يَنْزِلُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا قَوِيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«وَهَلْ سُيُخْرِجُنِي قَوْمِي؟!»**.

قَالَ ورَقَةُ: نَعَمْ، مَا جَاءَ رَجُلٌ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عَادَاهُ قَوْمُهُ، وَلَوْ كُنْتُ قَوِيًّا؛ لَنَصَرْتُكَ عَلَيْهِمْ.

فَعَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَهُ خَدِيجَةُ وَقَدْ تَأَكَّدَ لَدَيْهِ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ إِلَى هَذِهِ الأُمَّةِ، وَأَنَّ قَوْمَهُ سَوْفَ يُخْرِجُونَهُ، فَصَارَ سَعِيداً حَزِيناً، سَعِيداً لأَنَّهُ صَارَ نَبِيًّا، وَحَزِيناً لِأَنَّ قَوْمَهُ سَيُخْرِجُونَهُ مِنْ بَلَدِهِ.

(١) تُكرم الضيف.

(٢) تُساعد.

(٣) تعطف على الفقير.

(٤) تُعين على المصائب والكوارث.

فَمَاذَا سَيفْعَلُ؟ إِنَّ الأَيَّامَ القَادِمَةَ تُخْفِي كَثِيراً مِنَ المُفَاجَآتِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَكِنْ أَلَمْ تَقُلْ خَدِيجَةُ: لَنْ يُضَيِّعَكَ اللهُ أَبداً؟

***

عَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى غَارِ حِرَاءٍ مَرَّةً أُخْرَى؛ لَعَلَّهُ يَرَى المَلَكَ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ، لَكِنَّهُ لَمْ يَعُدْ إِلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى.

فَلَمَّا أَوْشَكَ عَلَى العَوْدَةِ، إِذَا بِهِ يَرَاهُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ جَالِساً عَلَى كُرْسِيٍّ؛ فَارْتَعَبَ مِنْهُ.

ثُمَّ أَسْرَعَ بِالْعَوْدَةِ إِلَى خَدِيجَةَ، وَهُوَ يُكَرِّرُ «**زَمِّلُونِي .. زَمِّلُونِي**»، فَلَمَّا تَغَطَّى بِالثَّوْبِ، إِذَا بِالْمَلَكِ يَأْتِيهِ مَرَّةً أُخْرَى وهُوَ يَقْرَأُ عَلَيْهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۞ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۞ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۞ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ [المدثر: ١ -٥].

هُنا فَزِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَامَ مِنْ نَوْمِهِ مُسْرِعاً، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: نَمْ يَا مُحَمَّدُ، وَاسْتَرِحْ. فَقَالَ: مَضَى عَهْدُ النَّوْمِ يَا خَدِيجَةُ.

لَقَدْ فَهِمَ الآنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ هُوَ جِبْرِيلُ - عليه السلام - وَهُوَ الْمَلَكُ الَّذِي يَبْعَثُهُ اللهُ إِلَى الأَنْبِيَاءِ.

وَأَنَّ مَا نَزَلَ عَلَيْهِ هُوَ القُرْآنُ، وَأَنَّ عَلَيْهِ الآنَ أَنْ يَدْعُوَ النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَتَرْكِ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ، وَإِنَّهَا لَمُهِمَّةٌ شَاقَّةٌ، وَلٰكِنَّهُ لا بُدَّ مِنْ أَنْ يُطِيعَ أَمْرَ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَدْعُوَ النَّاسَ إِلَى الدِّينِ الْجَدِيدِ، إِنَّهُ الإِسْلامُ، دِينُ آدَمَ، وَإِبْرَاهِيمَ، وَإِسْمَاعِيلَ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَدِينُ الأَنْبِيَاءِ جَمِيعاً، فَصَارَ هُوَ خَاتَمَ الأَنْبِيَاءِ وَآخِرَهُمْ.

وَبَدَأَتِ الدَّعْوَةُ إِلَى الإِسْلامِ سِرًّا، فَكَانَتْ خَدِيجَةُ أُولَى المؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، بَلْ إِنَّهَا جَعَلَتْ مَالَهَا فِي خِدْمَةِ الإِسْلامِ وَنَبِيِّهِ ﷺ.

وَرَاحَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو مَنْ يَعْرِفُ عَنْهُمُ الخَيْرَ، والخُلُقَ الحَسَنَ، فَعَرَضَ الإِسْلامَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ؛ فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الرِّجَالِ.

ثُمَّ أَسْلَمَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَهُوَ صَغِيرُ السِّنِّ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ أَسَلَمَ مِنَ الصِّبْيَانِ وَالغِلْمَانِ.

ثُمَّ أَسْلَمَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ مِنَ العَبِيدِ وَالمَوَالِي.

وَبَدَأَ رَسُولُ اللهِ يَتَوَسَّعُ فِي دَعْوَتِهِ شَيْئاً فَشَيْئاً حَتَّى

بَلَغَ الإِسْلامُ: عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ، وَطَلْحَةَ، وَالزُّبَيْرَ، وَسَعْدَ ابْنَ أَبِي وَقَّاصٍ، وَأبا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ، وَعَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ، وَسعِيدَ بْنَ زَيْدٍ.

وَخَلْقاً مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ مِنْ سَادَاتِهَا، وَمِنَ العَبِيدِ أَسْلَمَ: بِلالُ بْنُ رَبَاحٍ، وخَبَّابُ بْنُ الأَرَتِّ.

وَلَمْ يَبْقَ بَيْتٌ فِي مَكَّةَ إِلَّا وَدَخَلَهُ الإِسْلامُ، وَمَرَّ مِنْ عُمْرِ الإِسْلام ثَلاثُ سَنَوَاتٍ كَامِلَةٌ، كَانَ الرَّسُولُ الكَرِيمُ ﷺ يَتَخَفَّى فِي شِعَابِ[1] مَكَّةَ، وَمَعَهُ خَدِيجَةُ وَعَلِيٌّ وَزَيْدٌ يُصَلُّونَ مَعَهُ.

حَتَّى جَاءَهُ الأَمْرُ مِنَ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]؛ وَهُنَا تَبْدَأُ مَتَاعِبُ الدَّعْوَةِ وعَنَاؤُهَا.

فَقَدْ صَارَتِ المُوَاجَهَةُ الآنَ بَيْنَ الإِسْلام وَالكُفْرِ، بَيْنَ المؤمنينَ والكَافِرِينَ، لَكِنْ قَدْ مَضَى عَهْدُ النَّوْمِ، وَأَمْرُ اللهِ نَافِذٌ لَا مَحَالَةَ.

***

وَقَفَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى جَبَلِ «الصَّفَا» ثُمَّ نَادَى فِي قَوْمِهِ جَمِيعاً فَخَرَجُوا إِلَيْهِ جَمِيعاً، فَقَالَ:

---

(١) **الشِّعَاب**: جمع شِعْب، وهو الطريق الضيِّق بين جبلين.

«**لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا وَرَاءَ هَذَا الجَبَلِ تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ**[١] **صَدَّقْتُمُونِي؟**».

قَالُوا: نَعَمْ.. إِنَّكَ الصَّادِقُ الأَمِينُ.

قَالَ: «**فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ، بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**».

فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ[٢] سَائِرَ الْيَوْمِ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟!

فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى قَوْلَهُ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١].

وَهَكَذَا كَانَ أَبُو لَهَبٍ أَوَّلَ أَعْدَاءِ الإِسْلَامِ وَالمسلمينَ، وَشَارَكَتْهُ فِي هَذِهِ العَدَاوَةِ امْرَأَتُهُ أُمُّ جَمِيلٍ «أَرْوَى بِنْتُ حَرْبٍ»، الَّتِي كَانَتْ تَكْرَهُ رَسُولَ اللهِ وَخَدِيجَةَ وَكَانَتْ قَدْ زَوَّجَتِ ابْنَيْهَا عُتْبَةَ وَعُتَيْبَةَ مِنْ رُقَيَّةَ وَأُمِّ كُلْثُومٍ ابْنَتَيْ رَسُولِ اللهِ فَأَمَرَتْهُمَا أَنْ يُطَلِّقَاهُمَا؛ فَفَعَلا.

وَكَانَتْ تَضَعُ الشَّوْكَ فِي طَرِيقِ النَّبِيِّ ﷺ، وَتُلْقِي

---

(١) **يعني**: لو أخبرتكم أن جيشًا يريد أن يهاجمكم.

(٢) خسرت ودامت خسارتك.

عَلَيْهِ مَا يُؤْذِيهِ مِنَ القُمَامَةِ حَتَّى أَنْزلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۞ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [المسد: ٤، ٥].

وَذَلِكَ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَحْمِلُ الشَّوْكَ تُلْقِيهِ فِي طَرِيقِ رَسُولِ اللهِ فَسَمَّاهَا اللهُ «حَمَّالَةَ الحَطَبِ»، وَأَنْذَرَهَا اللهُ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَكُونُ فِي عُنُقِهَا، كَأَنَّهَا طَوْقٌ شَدِيدٌ مِنْ لِيفٍ يَسْخَرُ مِنْهَا النَّاسُ كَمَا كَانَتْ تَسْخَرُ مِنْ رَسُولِ اللهِ وَالمُسْلِمِينَ.

وَفِي مَوْسِمِ الحَجِّ كَانَ العَرَبُ يَقْصُدُونَ الكَعْبَةَ فَيَحُجُّونَ ثُمَّ يُتَاجِرُونَ فِي سُوقِ عُكَاظٍ، وَسُوقٍ آخَرَ هُوَ «ذُو المَجَازِ».

فَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُوهُمْ إِلَى الإِسْلامِ وَيَقُولُ: **«قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ تُفْلِحُوا»**.

وَكَانَ ﷺ يَعِيبُ الأَصْنَامَ، وَيُذَكِّرُ النَّاسَ بِأَنَّهَا حِجَارَةٌ لَا تَنْطِقُ، وَلَا تَسْمَعُ، وَلَا تُبْصِرُ، وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ.

وَبَدَأَ المشركونَ يُحِسُّونَ بِخَطَرِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الَّتِي تُسَوِّي بَيْنَ الغَنِيِّ وَالفَقِيرِ، وَالسَّادَةِ وَالعَبِيدِ، فَلَنْ يُصْبِحَ

سَيِّدٌ يَمْلِكُ عَبْداً بَعْدَ ذَلِكَ، بَلْ سَيَصِيرُ الْكُلُّ سَوَاءً رَأْساً بِرَأْسٍ، فَالنَّاسُ فِي الإِسْلام عَبِيدٌ فِي مَمْلَكَةِ اللهِ تَعَالَى، الَّذِي لَا فَضْلَ لِغَنِيٍّ عَلَى فَقِيرٍ عِنْدَهُ إِلَّا بإِيمانٍ وَتَقْوَى، لَا بِالمالِ أَوِ الجَمَالِ، أَو الجَاهِ أَوِ السُّلْطَانِ.

وَفَكَّر الكُهَّانُ - وَهُمْ خَدَمُ الأَصْنَام - الَّذِينَ كَانُوا يَحْصُلُونَ عَلَى مَالٍ وَفِيرٍ مُقَابِلَ الْهَدَايَا الَّتِي كَانَ يَدْفَعُهَا البُسَطَاءُ وَعَبَدَةُ الأَصْنَام.

وَأَحَسَّ الجَمِيعُ بِالخَطَرِ؛ فَقَرَّرُوا مُوَاجَهَةَ الإِسْلام وَالمُسْلِمِينَ، فَذَهَبُوا أَوَّلًا إِلَى أَبِي طَالِب - عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَشَكَوْا رَسُولَ اللهِ، وَاتَّهَمُوهُ بِأَنَّهُ يَعِيبُ آلِهَتَهُمْ، وَبِأَنَّهُ يُؤْذِيهِمْ فِي مَجَالِسِهِمْ.

وَكَانَ زَعِيمَهُمْ فِي ذَلِكَ أَبُو الحَكَم عَمْرُو بْنُ هِشَامٍ الَّذِي عُرِفَ فِيمَا بَعْدَ باسْمِ «أَبِي جَهْلٍ».

فَدَعَا أَبُو طَالِبٍ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَاؤونِي، وَقَالُوا كَذَا وَكَذَا، وَإِنِّي لَا أُطِيقُ[1] أَنَا وَأَنْتَ مَا سَيَفْعَلُونَهُ بِي وَبِكَ؛ فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى عَمِّهِ أَبِي طَالبٍ وَقَالَ لَهُ:

---

(١) أقدر.

«وَاللهِ يَا عَمُّ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي، عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ، أَيِ الإِسْلامَ - **مَا تَرْكْتُهُ أَبَداً حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ أَمُوتَ»**. ثُمَّ بَكَى رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَعِنْدَ هَذَا قَالَ أَبُو طَالِبٍ:

امْضِ يَا بْنَ أَخِي فِيمَا أَنْتَ فِيهِ، وَافْعَلْ مَا أَحْبَبْتَ، فَوَاللهِ لأَنْصُرَنَّكَ أَبداً مَا حَيِيتُ.

وَكَانَتْ خَدِيجَةُ نِعْمَ النَّصِيرُ وَالعَوْنُ، فَكَانَتْ تُخَفِّفُ كَثِيراً عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَتُسَاعِدُهُ بِمَالِهَا وَجُهْدِها، وَكَانَ أَبُو طَالِبٍ وَخَدِيجَةُ خَيْرَ نَصِيرَيْنِ للإِسْلامِ وَلِرَسُولِهِ.

وَلَكِنْ كانَ اللهُ تَعَالَى فَوْقَ الجَمِيعِ ناصِراً ومُؤَيِّداً، فَالْقُرْآنُ كَلامُهُ، وَالإِسْلامُ دِينُهُ، وَمُحَمَّدٌ - ﷺ - نَبِيُّهُ وَرَسُولُهُ، فَأَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى نَبِيِّهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧].

فقد تعَهَدَ اللهُ بِحِفْظِ نَبيِّهِ مِنْ كَيْدِ المُشْرِكِينَ وَإِيذَائِهِمْ، فَلَم يَبْقَ إِلَّا أَنْ يُطِيعَ رَسُولُ اللهُ أَمْرَ اللهِ، فَلَمْ

يَسْتَرِحْ لَحْظَةً، وَلَمْ يَنَمْ، بَلْ مَضَى في طَرِيقِهِ لا يَهْتَمُّ كَثِيراً بما يُحَاوِلُ المشركونَ فِعْلَهُ مِنَ الأَذَى بِالقَوْلِ وَالْفِعْلِ، فَلَئِنْ عَاشَ فَبِإِذْنِ اللهِ، وَلَئِنْ مَاتَ فَبإِذْنِ اللهِ، فَلاَ وَقْتَ لِلرَّاحَةِ، فَقَدْ مَضَى عَهْدُ النَّوْمِ.



(١) التَّدَبُّرُ وَالتَّأَمُّلُ فِي خَلْقِ اللهِ تَعَالَى يَزِيدُ الإِيمانَ في القلب.

(٢) الصَّبْرُ على أذى المشركينَ وطاعةُ أمْرِ اللهِ تعالى.

(٣) رَسُولُ اللهِ ﷺ مُطيعٌ لِرَبِّهِ، وهو خاتَمُ الرُّسل والأنبياء.



من هو؟

* خَاتَمُ الأنبياء والمرسلين.

* مَلَكٌ من الملائكة هو وحي الله إلى الأنبياء ينزل عليهم بأمر الله.

* عَمُّ رسول الله ﷺ وعدوُّه أنزل الله فيه قرآناً يصفه فيه بالخسارة الدائمة.

اذكُر كلمة واحدة تعبر عن الآتي:

* كلام الله تعالى الذي أنزله على رسوله بواسطة جبريل عليه السلام.

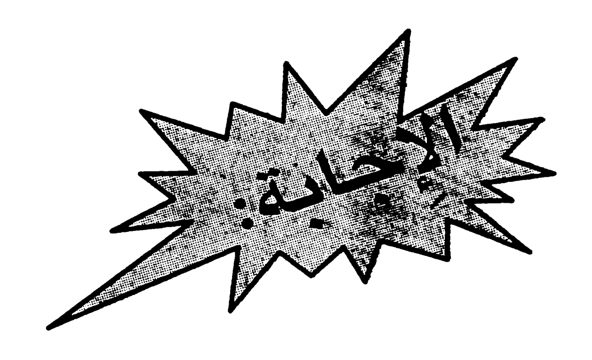
* تماثيل مصنوعة من حجارة لا تَنفع ولا تَضُرّ عبدها أهل مكة قبل الإسلام.

* دين يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة كل ما سواه.

أكمل ما يأتي:

كان رسول الله ﷺ يعبد الله قبل البعثة في غار ..... وكان ..... في الكون، ونزل عليه ..... بالقرآن، فعاد إلى خديجة فقال .....، ..... ، فذهبت به إلى ..... بن نوفل. وظلت دعوة

الإِسلام سِرًّا لمدة . . . . سنوات، ثم صعد رسول الله على جبل . . . . . فدعا قومه إِلى الإِسلام، فقال أبو لهب: . . . . . لك.



محمد ﷺ، جبريل عليه السَّلام، أبو لهب.

القرآن، الأصنام، الإِسلام.

حِراء، يتأمل، جبريل، زمِّلوني زمِّلوني، وَرَقَة، ثلاث، الصَّفا، تبًّا.

مكةُ ضدُّ الإسلام

كَانَ الْقَادِمُونَ إِلَى مَكَّةَ يَسْمَعُونَ الأَنَّاتِ[١] الْمُنْبَعِثَةَ مِنْ أَرْكَانِ مَكَّةَ، وَإِنَّهَا لَيْسَتْ آلامَ الْمَرَضِ، أَوِ الحُزْنِ، لَكِنَّهَا آلامُ الْعَذَابِ الَّذِي يَلْقَاهُ الْمُسْلِمُونَ الآنَ فِي مَكَّةَ.

فَقَدْ أَعْلَنَتْ قُرَيْشٌ الْحَرْبَ عَلَى الإِسْلامِ وَالْمُسْلِمِينَ، فَرَاحَ السَّادَةُ يُعَذِّبُونَ العَبِيدَ.

فَهَذَا هُوَ أمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ يُعَذِّبُ بِلالًا يُلْقِيهِ عَلَى الرِّمَالِ، وَيَجْلِدُهُ بِالسَّوْطِ، فَلَا يَمْلِكُ بِلالٌ إِلَّا أَنْ يَهْتِفَ بِصَوْتِهِ العَذْبِ الحَنُونِ: أَحَدٌ أَحَدٌ، وَهُوَ نَشِيدُهُ الإِلٰهِيُّ الَّذِي كَانَ الضُّعَفَاءُ يَرْتَاحُونَ إِلَيْهِ حِينَمَا يَسْمَعُونَهُ يُرَدَّدُ مِنْ قَلْبِ بِلالٍ ولِسَانِهِ.

وَلَمْ تُطِقْ سُمَيَّةُ وَيَاسِرٌ الْعَذَابَ حَتَّى جَاءَ عَدُوُّ اللهِ أَبُو جَهْلٍ فَطَعَنَ سُمَيَّةَ بِحَرْبَةٍ فَقَتَلَهَا، ثُمَّ لَحِقَ بِهَا يَاسِرٌ - رضي الله عنهما - .

(١) جمع أَنّة. وهي صوت الألم، ويُسمّى «الأنين».

وَهَا هُوَ أَبُو بَكْرٍ وَطَلْحَةُ يُرْبَطانِ فِي حَبْلٍ وَاحِدٍ ثُمَّ يَضْرِبُهُمَا «نَوْفَلُ بْنُ خُوَيْلِدٍ» ويُعَذِّبُهُمَا، وَلَكِنَّ الكُلَّ صَابِرٌ، فَلَئِنْ مَاتَ فَإِنَّ الجَنَّةَ مَوْعِدُهُ، وَلَئِنْ عَاشَ فَإِنَّ النَّصْرَ وَعْدُ اللهِ لِلمُؤمِنِينَ جَمِيعاً.

وَكَانَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَمُرُّ عَلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ يُعَذَّبُونَ؛ فَيَحْزَنُ لِما يَراهُ مِنْ آلامِهِمْ؛ وَلِمَا يَسْمَعُهُ مِنْ أَنَّاتِهِمْ، وَلَكِنَّهُ لَا يَمْلِكُ إِلَّا أَنْ يَقُولَ: «**صَبْراً آلَ يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الجَنَّةُ**»، فَإِنَّهُ لا يَمْلِكُ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئاً يُعْطِيهِ لَهُمْ، وَلَكِنَّهُ يَعِدُهُمْ بِمَا أَخْبَرَهُ اللهُ بِهِ إِنَّهَا الجَنَّة سِلْعَةُ اللهِ الغَالِيَةُ الَّتِي وَعَدَهَا اللهُ المؤمنين، فَلَمْ يَكُنْ بَيْنَ أَحَدِهِمْ وَالْجَنَّة إِلَّا أَنْ يُقْتَلَ شَهِيداً.

وَلَمْ يَكُنِ العَذَابُ خَاصّاً بِالصَّحَابَةِ وَحْدَهُمْ، بَلْ إِنَّ المُشْرِكِينَ نَالُوا مِنْ رَسُولِ اللهِ كَثِيراً، فَقَدْ كَانَ أَبُو لَهَبٍ، وَعُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، وَالحَكَمُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ جِيرَاناً لِلنَّبِيِّ ﷺ فَكَانُوا يَأْتُونَ بِسَلا الجَزُورِ(١) وَيَنْتَظِرُونَ رَسُولَ اللهِ وَهُوَ يُصَلِّي ثُمَّ يُلْقُونَهَا عَلَيْهِ، وَرَسُولُ اللهِ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ لَا يَرُدُّ أَذَاهُمْ بَلْ يَدْعُو لَهُمْ بِالْهِدَايَةِ.

(١) أمعاء الجمل المذبوح.

وَكَانَ إِذَا صَلَّى ﷺ يَسْتَتِرُ بِحَجَرٍ، فَلَمَّا رَأَوْهُ فَعَلَ ذَلِكَ، كَانُوا يُلْقُونَ القَاذُورَاتِ والقُمَامَةَ على دَاره، فَيَأْخُذُهَا وَهُوَ يَقُولُ:

- أيُّ جِوارٍ هَذَا يا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ؟!

وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ إِلَى الكَعْبَةِ لِيُصَلِّيَ؛ فَاغْتَاظَ المُشركونَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:

- مَنْ يَأتِي بِسَلا جَزُورِ بَنِي فُلانٍ ويُلْقِيهِ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ؟

فَقَامَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ سَرِيعاً، وَانْتَظَرَ حَتَّى سَجَدَ رَسُولُ اللهِ فَوَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ وَسَخِرُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ فَجَاءَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ تَمْسَحُ هَذِهِ القَاذُوراتِ، وَهِيَ تَبْكِي وَقَدْ سَالَتْ دُمُوعُهَا عَلَى خَدَّيْهَا، فَقَالَ ﷺ فِي صَبْرِ المؤمِنِ وَثِقَتِهِ بِرَبِّهِ.

«لا تَبْكِي يا بُنَيَّتِي؛ فَإِنَّ اللهَ نَاصِرٌ أَبَاكِ».

ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ دَاعِياً عَلَى أُولَئِكَ الَّذِينَ آذَوْهُ فَقَالَ:

«اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، وَعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَأَخِيهِ

شَيْبَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ» وَلَقدِ اسْتَجابَ اللَّهُ لِدُعَاءِ نَبِيِّهِ، فَمَاتُوا جَمِيعاً يَوْمَ غَزْوَةِ بَدْرٍ.

وَحدَثَ ذَاتَ يَوْم أَنْ دَعَا عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ قُرَيْشاً كُلَّهَا لِلطَّعَام فَحَضَرُوا إِلَّا رَسُولَ اللهِ، فَذَهَبَ عُقْبَةُ إِلَيْهِ، فَقَرَأَ رَسُولُ اللهِ الْقُرْآنَ وَدَعَاهُ إِلَى الإِسْلامِ، فَأَسْلَمَ، وَكَانَ لَهُ صَدِيقٌ هُوَ «أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ» وَكَانَ رَسُولُ اللهِ يُسَمِّيهِ «رَأسَ الكُفْرِ»، فَقَالَ أُمَيَّةُ لِعُقْبَةَ:

كَيْفَ تُسْلِمُ وَتَتْبَعُ مُحَمَّداً؟! لا أُكَلِّمُكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِهِ وَتُؤْذِيَهُ.

فَذَهَبَ عُقْبَةُ إِلَى رَسُولِ اللهِ وَجَذَبَهُ مِنْ ثَوْبِهِ وَخَنَقَهُ خَنْقاً شَدِيداً حَتَّى احْمَرَّتْ عَيْنَا رَسُولِ اللهِ وأَوْشَكَ عَلَى المَوْتِ، وَتَفَلَ الْكَافِرُ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللهِ، وَلَمْ يُخَلِّصْهُ مِنْهُ إِلَّا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِيقُ الَّذِي جَاءَ سَرِيعاً وَهُوَ يُدَافِعُ عَنْ رَسُولِ اللهِ وَيَقُولُ:

- أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ؟!

لَقَدْ كَانَتْ حَقّاً هَذِهِ هِيَ جَرِيمَةَ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ آمَنَ

بِاللهِ وَلَمْ يَعْبُدِ الأَصْنَامَ، وَمَا أَجْمَلَ هَذِهِ الجَرِيمَةَ الَّتِي تُدْخِلُ صَاحِبَهَا الجَنَّةَ!

لَقَدْ هَانَ الْعَذَابُ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَصَحَابَتِهِ فَكَأَنَّمَا اسْتَعْذَبُوا الْعَذَابَ، وَاحْتَقَرُوا الْمُشْرِكِينَ، فَكَانَتْ آيَاتُ اللهِ فِي الْقُرْآنِ تَرْسُمُ الْبَسْمَةَ عَلَى الشِّفَاهِ الْمُعَذَّبَةِ.

فَتَحَوَّلَ الْمُعَذَّبُونَ إِلَى قِصَصٍ مُؤَثِّرَةٍ تُرْوَى فِي التَّارِيخِ، وَإِلَى كَوَاكِبَ دُرِّيَّةٍ تُضِيءُ الطَّرِيقَ لِلْحَيَارَى فِي طَرِيقِ اللهِ تَعَالَى.

***

وَلَمْ تَكْتَفِ قُرَيْشٌ بِالتَّعْذِيبِ الجَسَدِيِّ، بَلْ كَانُوا يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ بِالْقَوْلِ أَيْضاً فَاتَّهَمُوهُ بِأَنَّهُ مَجْنُونٌ، ثُمَّ قَالُوا عَنْهُ إِنَّهُ شَاعِرٌ، وَوَصَفُوهُ بِأَنَّهُ كَانَ سَاحِراً قَدْ تَعَلَّمَ السِّحْرَ وَالكِهَانَةَ. وَكَانَ أُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ يَنْتَظِرُ رَسُولَ اللهِ فَيَلْمِزُهُ وَيَغْمِزُهُ، أَيْ يَعِيبُهُ سِرًّا وَجَهْراً.

وَلَمَّا تُوُفِّيَ الْقَاسِمُ وَعَبْدُ اللهِ وَلَدَا رَسُولِ اللهِ كَانَ العَاصُ بْنُ وَائِلٍ السَّهْمِيُّ يَقُولُ عَنْ رَسُولِ اللهِ إنه: «أَبْتَرُ» أَيْ مَقْطُوعُ النَّسْلِ وَالذُّرِّيَّةِ.

فَنَزَلَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ

﴿ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، أَيْ مُبْغِضُكَ وَكَارِهُكَ هُوَ الَّذِي قَطَعَ اللهُ عَنْهُ الرَّحْمَةَ، وَالجَنَّةَ.

وَذَهَبَ رَجُلٌ يُسَمَّى «النَّضْرَ بْنَ الحَارِثِ» إِلَى بِلادِ فَارِسَ؛ فَتَعَلَّمَ قِصَصَ أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ.

وَلَمَّا عَادَ إِلَى مَكَّةَ كَانَ يَجْلِسُ فِي الكَعْبَةِ يَحْكِي هَذِهِ القِصَصَ؛ لِيَصْرِفَ النَّاسَ عَنْ سَمَاعِ القُرْآنِ، وَيَقُولُ: مَا مُحَمَّدٌ بِأَحْسَنَ حَدِيثاً مِنِّي.

وَقَالَ المُشْرِكُونَ عَنْ رَسُولِ اللهِ لِأَنَّهُ كَانَ أُمِّيًا: إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ.

وَلَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ كُلُّهُ رَسُولَ اللهِ مِنْ أَنْ يُؤَدِّيَ دَعْوَةَ رَبِّهِ، فَكَانَ يَنْتَظِرُ مَوْسِمَ الحَجِّ وَيَقُولُ:

هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ فَأُبَلِّغَهُمْ كَلامَ رَبِّي فَإِنَّ قُرَيْشاً مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَهُمْ كَلامَ رَبِّي؟

ثُمَّ يَصْرُخُ قَائِلًا: قُولُوا: **لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ تَمْلِكُوا بِهَا العَرَبَ، وَتَذِلَّ لَكُمْ بِهَا العَجَمُ، وَتَكُونُوا بِهَا مُلُوكاً فِي الْجَنَّةِ.**

وَوَرَاءَهُ أَبُو لَهَبٍ يَقُولُ: لا تُطِيعُوهُ؛ فَإِنَّهُ كَذّابٌ. وَرَجُلٌ آخَرُ وَرَاءَ رَسُولِ اللهِ يَضَعُ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ،

وَلَا يَمْنَعُهُ عَنْ تَبْلِيغِ دَعْوَةِ اللهِ هَذَا الإِيذَاءُ.

وَقَامَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُوَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَكَانَ سَيِّداً فِي قَوْمِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يُكَلِّمُهُ وَيُفَاوِضُهُ، وَيَعْرِضُ عَلَيْهِ بَعْضَ الأُمُورِ لَعَلَّهُ يَقْبَلُهَا، وَيَعُودُ عَنْ دِينِهِ، فَلَمَّا وَصَلَ عُتْبَةُ إِلَى رَسُولِ اللهِ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّكَ قَدْ آذَيْتَ قَوْمَكَ، وَعِبْتَ آلِهَتَهُمْ، وَكَفَرْتَ بِهَا، فَسَأَعْرِضُ عَلَيْكَ بَعْضَ الأُمُورِ فَاقْبَلْ مِنْهَا مَا شِئْتَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: «**قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ؛ أَسْمَعْ مِنْكَ**».

فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ مُلْكاً مَلَّكْنَاكَ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ مَالًا جَمَعْنَا لَكَ مَالًا؛ حَتَّى صِرْتَ أَغْنَى رَجُلٍ فِينَا، وَإِنْ كُنْتَ مَرِيضاً دَاوَيْنَاكَ.

فَلَمَّا فَرَغَ الرَّجُلُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «**بِمُنْتَهَى الأَدَبِ: هَلْ فَرَغْتَ يَا عَمُّ؟**» قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: «**فَاسْمَعْ مِنِّي**»، ثُمَّ تَلَا قَوْلَ اللهِ تَعَالَى: ﴿حمٓ ۞ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ١ - ٣].

فَلَمَّا انْتَهَى رَسُولُ اللهِ؛ قَامَ عُتْبَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ

لَهُمْ: وَاللهِ لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلًا إِنَّ لَهُ لَحلاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلاوَةً، وَإِنَّ أَعْلاهُ لَمُثْمِرٌ، وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ، مَا هُوَ بِالشِّعْرِ وَلَا بِالْكَهَانَةِ، وَلَا بِقَوْلِ البَشَرِ، فَاتْرُكُوا مُحَمَّداً وَأَمْرَهُ.

فَلَئِنْ ظَهَرَ فَمُلْكُهُ مُلْكُكُم، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ هَلَكَ وَحْدَهُ.

فَقَالُوا: سَحَرَكَ يَا أَبَا الوَلِيدِ بِلِسَانِهِ.

فَقَالَ لَهُمْ: لَا تَقُولُوا سَاحِرٌ، وَلَا كَاهِنٌ، وَلَا مَجْنُونٌ، بَلْ قُولُوا: إِنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ المَرْءِ وَزَوْجِهِ، فَنَزَلَ القُرْآنُ يَذْكُرُ هَذِهِ الحَادِثَةَ، وَيَذُمُّ عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ[١]، وَيَتَوَعَّدُهُ بِالعَذَابِ فِي الآخِرَةِ.

وَيِئِسَتْ قُرَيْشٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ؛ فَرَاحَتْ تُدَبِّرُ لَهُ مُحَاوَلاتٍ لِقَتْلِهِ وَالخَلاصِ مِنْهُ.

***

رَجُلٌ وَاحِدٌ فِي مَكَّةَ كُلِّهَا كَانَ يَحْمِلُ الكُرْهَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، إِنَّهُ أَبُو جَهْلٍ عَمْرُو بْنُ هِشَامٍ، وَالَّذِي كَانَ سَيِّداً فِي قَوْمِهِ حَتَّى سَمَّوْهُ «أَبَا الحَكَمِ».

---

(١) انظر آيات: سورة المدثر (١١-١٣).

وَرَغْمَ صِغَرِ سِنِّهِ إِلَّا أَنَّهُمْ جعَلُوهُ مِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالشُّورَى، وَلٰكِنَّ هَذَا الرَّجُلَ كَانَ قَدْ امْتَلأَ قَلْبُهُ حِقْداً وَكَرَاهِيَةً لِرَسُولِ اللهِ وَالمسلمينَ؛ فَقَتَلَ سُمَيَّةَ وَيَاسِراً، وَعَذَّبَ كَثِيراً مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَسَمَّاهُ رَسُولُ اللهِ «فِرْعَوْنَ الأُمَّةِ»؛ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ يُشْبِهُ فِرْعَوْنَ مُوسَى فِي تَعْذِيبِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَأَقْسَمَ أَبُو جَهْلٍ لَيَقْتُلَنَّ رَسُولَ اللهِ وَهُوَ يُصَلِّي فِي الكَعْبَةِ، وَانْتَظَرَ حَتَّى سَجَدَ رَسُولُ اللهِ، وَحَمَلَ حَجَراً ضَخماً وأَرَادَ إِلْقَاءَهُ عَلَيْهِ، لَكِنْ تَيَبَّسَتْ[1] يَدُهُ فَلَمْ تَتَحَرَّكْ؛ فَعَادَ خَائِباً مَدْحُوراً، وَبَدَلًا مِنْ أَنْ يَرْجِعَ عَنْ كُفْرِهِ، عَادَ إِلَى الْمُحَاوَلَةِ مَرَّةً أُخْرَى، وَأَقْسَمَ بِأَغْلَظِ الأَيْمَانِ أَنْ يَقْتُلَ رَسُولَ اللهِ فِي الْكَعْبَةِ.

فَخَرَجَ وَاقْتَرَبَ مِنْ رَسُولِ اللهِ، وَلٰكِنَّهُ وَدُونَ أَنْ يَدْرِي وَجَدَ نَفْسَهُ يَعُودُ سَرِيعاً إِلَى أَصْحَابِهِ مِنَ الكُفَّارِ.

فَقَالُوا: مَا لَكَ يَا أَبَا الحَكَمِ؟!

فَقَالَ وَقَدْ خَلَا وَجْهُهُ مِنَ الدَّمِ حَتَّى اصفَرَّ وَتَغَيَّرَ: لَقَدْ رَأَيْتُ فَحْلًا[2] مِنَ الإِبِلِ فَوْقَ رَأْسِ مُحَمَّدٍ،

(١) شُلَّتْ ولم تتحرك.

(٢) الجمل العظيم.

كُلَّمَا حَاوَلْتُ الاقْتِرَابَ مِنْهُ، أَرَادَ هَذَا الفَحلُ أَنْ يَقْتُلَنِي وَيَأْكُلَنِي.

فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ وَسَخِرُوا، فَلَمَّا بَلَغَ هَذَا رَسُولَ اللهِ قَالَ:

«هَذِهِ الملائِكَةُ حَفِظَتْنِي بِأَمْرِ اللهِ وَلَوِ اقْتَرَبَ مِنِّي لَقَتَلَتْهُ الملائِكَةُ».

وَأَرَادَتْ قُرَيْشٌ السُّخْرِيَةَ مِنْ رَجُلٍ مِنْ قَوْمٍ يُسَمَّوْنَ «الإِراشِيِّينَ»، كَانَ أَبُو جَهْلٍ قَدْ أَخَذَ مِنْهُ بِضَاعَةً وَلَمْ يَدْفَعْ ثَمَنَهَا، فَقَالُوا:

- إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَأْخُذَ حَقَّكَ؛ فَاذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَإِنَّهُ سَيَأْتِي لَكَ بِمَالِكَ.

وَكَانَ هَذَا الإِرَاشِيُّ غَرِيباً لا يَعْرِفُ شَيْئاً عَنِ الإِسْلامِ وَعَدَاوَةِ أَبِي جَهْلٍ لَهُ، وَظَنَّ المُشْرِكُونَ أَنَّهُمْ سَيَضْحَكُونَ مِمَّا سَيَفْعَلُهُ أَبُو جَهْلٍ فِي مُحَمَّدٍ والإِراشِيِّ.

وَيَا لَلْمُفَاجَأَةِ لَقَدْ عَادَ الإِرَاشِيُّ مَسْرُوراً إِلَى هَؤلاءِ وَمَعَهُ مَالُهُ، فَذَهبُوا سَرِيعاً إِلَى أَبِي جَهْلٍ فَعَلِمُوا مِنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَدْ جَاءَ وَعَلَى رَأْسِهِ فَحْلٌ مِنَ الإِبِلِ، ثُمَّ

أَمَرَهُ أَنْ يُعْطِيَ المالَ للرَّجُلِ؛ فَخَافَ الكَافِرُ وَدَفَعَ المالَ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَأْكُلَهُ الفَحْلُ أَوْ يَقْتُلَهُ، وَكَانَتْ هَذِهِ هِيَ الملائِكَةُ.

وَتَحقَّقَ قَوْلُ اللهِ لِنَبيِّهِ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧] فَلَنْ يَسْتَطِيعُوا قَتْلَهُ أَوْ ذَبْحَهُ، فَاللهُ تَعَالَى يَحْفَظُهُ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُ رَبُّهُ فَلَنْ يَخَافَ شَيْئاً لِأَنَّ مَعَهُ القَادِرَ الْعَزِيزَ.

وَوَسْطَ هَذِهِ الظُّلُمَاتِ آمَنَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ - عَمُّ رَسُولِ اللهِ - وَهُوَ أَسَدُ اللهِ وَرَسُولِهِ وَكَانَ قَوِيّاً شُجَاعاً فِي قَوْمِهِ.

وَبَيْنَمَا قُرَيْشٌ حَزِينَةٌ تَكَادُ تَمُوتُ غَيْظاً مِنْ إِسْلامِ حَمْزَةَ، لَمْ يَفْجَأْهُمْ إِلَّا نَبَأٌ آخَرُ أَشَدُّ فَقَدْ أَسْلَمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَكَانَتْ هَذِهِ هِيَ البشَارَاتُ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِنَبيِّهِ بِأَنَّهُ سَيَنْصُرُهُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ لَا مَحالَةَ.

كَمَا أَسْلَمَ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ خَارِجِ مَكَّةَ مِثْلَ: أَبِي ذَرٍّ الغِفَارِيِّ، وَالطُّفَيْلِ بْنِ عَمْرٍو الدَّوْسِيِّ، وَضِمَادٍ الأَزْدِيِّ، وَغَيْرِهِمْ.

وَكَانَتْ هَذِهِ عَلامَاتُ النَّصْرِ تَأْتِي كَأَنَّهَا لَمْعُ البَرْقِ

فِي ظُلُمَاتِ مَكَّةَ الدَّامِسَةِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ قَدْ جَمَعَ أَصْحَابَهُ فِي دَارِ الأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الأَرْقَمِ، عَلَى جَبَلِ الصَّفَا؛ وَهِيَ دَارٌ بَعِيدَةٌ؛ لِيُعَلِّمهُمْ دِينَهُمْ؛ وَيَتْلُو عَلَيْهِمُ القُرْآنَ.

فَقَدْ كَانَتْ دَارُ الأَرْقَم بَعِيدَةً عَنْ أَعْيُنِ الْمُشْرِكِينَ؛ كَمَا كَانَ الأَرْقَمُ صَغِيراً لَا يَتَصَوَّرُ أَحَدٌ أَنَّهُ قَدْ أَسْلَمَ، كَمَا كَانَ بَيْنَ عَائِلَةِ الأَرْقَمِ، وَبَنِي هَاشِم - عَائِلَةِ رَسُولِ اللهِ - عَدَاوَةٌ، فَلَمْ يَتَصَوَّرْ أَحَدٌ أَنْ يَلْجَأَ رَسُولُ اللهِ إِلَى هَذَا المَكَانِ؛ فَكَانَتْ دَارُ الأَرْقَم جَامِعَةَ الإِيمانِ، وَمَهْبَطَ الْوَحْيِ، وَمَدْرَسَةَ الإِيمانِ وَالإِسْلامِ الَّتِي خَرَّجَتِ الأَبْطَالَ وَالْعُظَمَاءَ فِي تَارِيخِ الإِسْلامِ.

***

لَا صَوْتَ الآنَ يَعْلُو فَوْقَ صَوْتِ المُشْرِكِينَ، وَهُمْ يُرِيدُونَ حَرْبَ الإِسْلام وَالمُسْلِمِينَ، وَقَتْلَ رَسُولِ اللهِ وَصَحَابَتِهِ، لَقَدْ عَذَّبَهُمُ المشركونَ فَصَبَروا وَثَبَتُوا عَلَى الإِيمانِ، بَلْ زَادَ عَدَدُهُمْ وَثَبَتَ إِيمَانُهُمْ، بَلْ إِنَّ العَذَابَ كُلَّمَا ازْدَادَ نَما الإِيمانُ فِي القُلُوبِ حَتَّى صَارَ كَالجِبَالِ أَوْتَاداً فِي قُلُوبِ أَصْحَابِهِ، لَقَدْ هَاجَرَ المُسْلِمُونَ إِلَى الحَبَشَةِ مَرَّتَيْنِ، وَفَرُوا بِإِيمَانِهِمْ، وَمُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ

صَارُوا الخطَرَ الأَعْظَمَ الَّذِي صَارَ يُزَلْزِلُ عُرُوشَ الظَّالِمِينَ فِي مَكَّةَ.

وَإِنَّ القُرْآنَ لَيَجْذِبُ الْقُلُوبَ إِلَيْهِ فَمَا مِنْ أَحَدٍ اسْتَمَعَ إِلَيْهِ إِلَّا وَآمَنَ، أَوْ حَتَّى رَأَى فِيهِ كَلَامَ اللهِ الَّذِي لا يَسْتَطِيعُ البَشَرُ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، حَتَّى إِنَّهُمْ تَعَاهَدُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى أَنْ لا يَسْمَعُوا القُرْآنَ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَتَسَلَّلُونَ بِاللَّيْلِ؛ لِيَسْمَعُوا رَسُولَ اللهِ وَهُوَ يَتْلُو القُرْآنَ؛ رَغْبَةً مِنْهُمْ فِي سَمَاعِهِ فَإِنَّ لِلْقُرْآنِ سُلْطاناً عَلَى القُلُوبِ لَا يَسْتَطِيعُونَ دَفْعَهُ.

وَلَمَّا يَئِسَتْ قُرَيْشٌ مِنْ رَسُولِ اللهِ عَادُوا إِلَى أَبِي طَالِبٍ يُحَذِّرُونَهُ مِنْ أَنَّهُمْ سَيَقْتُلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَعَرَضُوا عَلَيْهِ أَنْ يُعْطُوهُ عِمَارَةَ بْنَ الْوَلِيدِ وَكَانَ أَجْمَلَ فَتًى فِي قُرَيْش عَلَى أَنْ يَأْخُذُوا رَسُولَ اللهِ فَيَقْتُلُوهُ، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ:

كَيْفَ أُعْطِيكُمْ وَلَدِي فَتَقْتُلُوهُ، وَآخُذُ وَلَدَكُمْ فَأُطْعِمُهُ؟! مَا هَذَا بِالعَدْلِ؟!

كُلُّ هَذَا وَأَبُو طَالِبٍ كَافِرٌ لَمْ يُؤْمِنْ أَوْ يُسْلِمْ، وَلَكِنَّهُ يُحِبُّ ابْنَ أَخِيهِ، فَلَمَّا خَشِيَ عَلَيْهِ مِنْ قُرَيْش وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ قَتْلَهُ، وَأَنَّ حَمْزَةَ وَعُمَرَ وَالمُسْلِمِينَ لَنْ

يَسْتَطِيعُوا الدِّفَاعَ عَنْهُ، دَعَا أَبُو طَالِبٍ بَنِي هَاشِمٍ جَمِيعاً وَأَمَرَهُمْ بِأَنْ يَسْتَعِدُّوا لِلاجْتِمَاعِ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ؛ لِيَحْفَظُوا فِيهِ رَسُولَ اللهِ مِنَ الْمَوْتِ، وَيُدَافِعُوا عَنْهُ، وَيَرُدُّوا أَذَى المشركينَ عَنْهُ.

فَاجْتَمَعَ بَنُو هَاشِمٍ لا إِسْلاماً بَلْ عَصَبِيَّةً وَجَاهِلِيَّةً لِرَسُولِ اللهِ؛ لِأَنَّهُ مِنْهُمْ، وَاخْتَارُوا شِعْباً فِي مَكَّةَ أَقَامُوا فِيهِ، وَكَانَ هَذَا هُوَ «شِعْبُ[١] أَبِي طَالِبٍ».

فَلَمَّا رَأَتْ قُرَيْشٌ هَذَا؛ تَعَاهَدُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ أَنْ يُعْلِنُوا حَرْباً جَدِيدَةً مِنْ نَوْعِهَا، وَهِيَ الْحَرْبُ الاقْتِصَادِيَّةُ، فَكَتَبُوا وَثِيقَةً فِي الْكَعْبَةِ فِيهَا الآتِي: (باسْمِكَ اللَّهُمَّ).

أَنْ يُقَاطِعُوا بَنِي هَاشِمٍ الَّذِينَ انْضَمُّوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَكُلِّ مَنْ آمَنَ مَعَهُ، وَأَلَّا يُؤَاكِلُوهُمْ أَوْ يُشَارِبُوهُمْ، أَوْ يُزَاوِجُوهُمْ، أَوْ يُتَاجِرُوا مَعَهُمْ.

وَصَارَ هَذَا الْحِصَارُ حَوْلَ شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ بَعْدَ أَنْ عَلَّقُوا هَذِهِ الصَّحِيفَةَ فِي الكَعْبَةِ؛ رَغْبَةً مِنْهُمْ فِي أَنْ يَمْنَعُوا الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ عَنِ المسلمينَ، فَإِذَا أَحَسُّوا

---

(١) **الشِّعب**: طريق بين جبلين في وسط الصحراء.

الجُوعَ وَالعَطَشَ عَادُوا عَنِ الإِسْلامِ وَكَفَرُوا، لَكِنْ مَاذَا تَفْعَلُ الفِئْرَانُ فِي الجِبَالِ الشَّامِخَةِ؟ وَهَلْ يُطْفِئُ ضَوْءُ الشَّمْعَةِ نُورَ الشَّمْسِ؟!

لَقَدِ اجْتَمَعَ المُسْلِمُونَ فِي هَذَا الشِّعْبِ وَمُنِعَ عَنْهُمُ الطَّعَامُ، حَتَّى يَبِسَتِ العُرُوقُ مِنَ الْعَطَشِ، وَتَشَقَّقَتِ الجُلُودُ، وَجَفَّتِ الحُلُوقُ، وَسَالَتِ الدِّمَاءُ، وَارْتَفَعَ بُكَاءُ الْأَطْفَالِ، وَصُرَاخُ النِّسَاءِ، لَكِنْ كَانَ القُرْآنُ بَلْسَمَ الجُرُوحِ الدَّامِيَةِ، وشِبَعَ القُلُوبِ، وَغِذَاءَ الأَرْوَاحِ.

ثَلاثَةُ أَعْوَامٍ هِيَ عُمْرُ المُسْلِمِينَ فِي هَذَا الشِّعْبِ ذَاقُوا فِيهِ الجُوعَ وَالعَطَشَ، فَلَمْ يُحَرِّكُوا سَاكِناً بَلْ صَبَرُوا لِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى، وَهَا هُوَ عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ، يَحْكِي مَشْهَداً مِنْ مَشَاهِدِ هَذَا الشِّعْبِ فَيَقُولُ:

لَمْ يَكُنْ لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الشَّجَرِ؛ حَتَّى تَقَرَّحَتْ أَشْدَاقُنَا، فَالْتَقَطْتُ بُرْدَةً فَقَسَمْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ.

إِنَّهُ يَحْكِي عَنْ حَلْقِهِ الَّذِي أَصْبَحَ يَسِيلُ قَيْحاً لا دماً، بَعْدَ أَنْ أَكَلُوا وَرَقَ الشَّجَرِ طِيلَةَ سَنواتٍ ثَلاثٍ، حَتَّى وَجَدَ خَشَبَةً فَقَسَمَهَا مَعَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ يَأْكُلانِهَا أَيَّاماً مُتَوَاصِلَةً.

كَانَ الْمُشْرِكُونَ إِذَا رَأَوْا قَافِلَةً تِجَارِيَّةً جَاءَتْ إِلَى مَكَّةَ سَارَعُوا إِلَيْهَا، فَزَادُوا عَلَى سِعْرِهَا؛ حَتَّى لَا يَشْتَرِيَهَا أَحَدٌ مِنْ شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ.

وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ لِيَنَامَ أَوْ يَسْتَرِيحَ بَلْ كَانَ يَخْرُجُ لِيَدْعُوَ إِلَى الإِسْلامِ.

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ لِمُدَّةِ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ بِلَيَالِيهِنَّ حَتَّى جَاءَهُ بِلالٌ بِبَعْضِ الطَّعَامِ القَلِيلِ فَأَكَلَهُ.

وَظَلَّتْ قُرَيْشٌ عَلَى عِنَادِهَا حَتَّى تَحَرَّكَتْ قُلُوبُ بَعْضِ الْمُشْرِكِينَ حِينَمَا رَأَوُا الصِّغَارَ يَكَادُونَ يَمُوتُونَ جُوعاً، وَسَمِعُوا أَنَّاتِ الأَطْفَالِ وَالنِّسَاءِ، فَسَعَوْا إِلَى نَقْضِ هَذِهِ الْمُقَاطَعَةِ وَتَمْزِيقِ الصَّحِيفَةِ.

وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى كَانَ أَسْبَقَ مِنَ الْجَمِيعِ، فَقَدْ سَلَّطَ اللهُ عَلَى الصَّحِيفَةِ حَشَرَةً «الأَرَضَةَ» فَأَكَلَتْ شُرُوطَهَا الظَّالِمَةَ، وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الصَّحِيفَةِ إِلَّا لَفْظَةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ: (**بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ**).

وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ وَالْمُسْلِمُونَ مِنْ شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ أَشَدَّ قُوَّةً مِمَّا سَبَقَ، فَقَدْ زَالَتْ غُمَّةُ الشِّعْبِ وَانْتَهَتْ مِحْنَتُهُ، وَلَكِنْ هَلْ سَيَحْنُو عَلَيْهِمُ الزَّمَانُ، أَمْ سَتَقْسُو الأَيَّامُ عَلَيْهِمْ مَرَّةً أُخْرَى؟

الأهداف:

(١) الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ تَعَالى وَظِيفَةُ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ مِنَ المؤمنينَ.

(٢) الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِي سَبِيلِ اللهِ مِنْ صِفَاتِ أَهْلِ الإِيمانِ.

(٣) التَّضْحِيَةُ مِنْ أَجْلِ دِينِ اللهِ تَعَالَى.

(٤) حِفْظُ اللهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ.



اختر مما بين الأقواس:

* رجل كَرِهَ رسول الله والمسلمين حتى سُمِّيَ فِرْعَونَ الأُمَّةِ: [أبو لهب - أبو طالب - أبو جهل].

* كانت دار ..... جامعة الإيمان ومهبط الوحي [الأسعد بن أبي الأسعد - الأرقم بن أبي الأرقم - الأكرم بن أبي الأكرم].

* قال الله تعالى لنبيه والله ...... من الناس [يحفظك - يعصمك - يخطفك].

ضع علامة (✓) أو (✗) مع ذكر السبب

(١) أحبّ أبو لهب رسول الله وآمن به ( )

(٢) آمن عتبة بن ربيعة برسول الله ﷺ ( )

(٣) كان أُمَيَّة بن خلف يَلْمِزُ رسول الله ويَهْمِزُه ( )

اذكر لقب كل رجل أو امرأة من هؤلاء:

[أبو جهل - أم جميل - أُمَيَّة بن خلف].

*** صف لنا حياة المسلمين في شِعب أبي طالب.**



أبو جهل، الأرقم بن أبي الأرقم، يعصمك.

✗، ✗، ✓.

فرعونُ الأُمَّة، حَمّالة الحطب، رأس الكفر.



آلامٌ .. وآمالٌ

يَعِيشُ الإِنْسَانُ فِي هَذِهِ الحيَاةِ بَيْنَ الحُزْنِ وَالْفَرَحِ، وَالأَمَلِ وَالأَلَم، وَالجُرْحِ وَالفَرَحِ، وَهَكَذَا كَانَتْ حَيَاةُ النَّبِيِّ ﷺ وَالمسلمينَ.

فَتَرَاهُ يَوْماً مِنَ الأَيَّام قَدِ اسْتَجَابَ لِدَعْوَتِهِ رَجُلٌ أَوْ رَجُلانِ، وَيَوْماً مِنَ الأَيَّام يُؤْذَى هُوَ وأَصْحَابُهُ، وَلَكِنْ لَمْ يَسْكُنِ الشَّكُّ يَوْماً قُلُوبَهُمْ بَلْ كَانُوا عَلَى يَقِينٍ مِنْ أَنَّ اللهَ سَيُظْهِرُ الإِسْلامَ وَيَرْفَعُهُ فَوْقَ الأَدْيَانِ جَمِيعِهَا.

إِنَّ الإيذَاءَ الَّذِي تَعَرَّضُوا لَهُ فِي مَكَّةَ مَا هُوَ إِلَّا اخْتِبَارٌ صَغِيرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى؛ لِيَرَى ثَبَاتَ المُؤْمِنِ عَلَى إِيمَانِهِ، وَتَرَدُّدَ المُنَافِقِ؛ وَلِكَيْ يَتَعَلَّمُوا أَنَّ دِينَهُمْ هَذَا لا يَرْتَفِعُ إِلَّا بِالصَّبْرِ والإِيمانِ.

وَعَلَى الْجَانِبِ الآخَرِ أَرَادَتْ قُرَيْشٌ أَنْ تُعْجِزَ[١] رَسُولَ اللهِ ﷺ فَطَلَبُوا مِنْهُ آيَةً وَمُعْجِزَةً لِكَيْ يُؤْمِنُوا؛ فَدَعَا رَسُولُ اللهِ رَبَّهُ لِيُرِيَهُ آيَةً تَكُونُ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِهِ فَانْشَقَّ الْقَمَرُ شِقَّيْنِ فِي مَكَّةَ، حَتَّى أَنَّ نِصْفَ القَمَرِ كَانَ عَلَى جَبَلِ أَبِي قُبَيْسٍ.

---

(١) تهزمه وتطلب منه ما لا يقدر عليه.

وَالشّقُّ الآخَرُ عَلَى جَبَلِ قُعَيْقعَانَ وَهُمَا أَكْبَرُ جبلَيْن فِي مَكَّةَ، حَتَّى أَنَّهُمْ رَأَوْا جَبَلَ حِرَاءٍ فِيمَا بَيْنَ الشِّقَّيْنِ، فَقَالُوا: هَذَا مِنْ سِحْرِكَ يَا مُحَمَّدُ.

فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اسْأَلُوا العَائِدِينَ مِنَ السَّفَرِ، أَرَأَوُا القَمَرَ شِقَّيْنِ كَمَا رَأَيْنَاهُ أَمْ أَنَّهُ سَحَرَنَا؟!

فَلَمَا عَادَ المسَافِرُونَ قَالُوا: نَعَمْ رَأَيْنَاهُ.

وَلَكِنَّ الكَافِرَ صَمَّمَ عَلَى كُفْرِهِ وَلَمْ يُؤْمِنْ، بَلْ زَادَ كُفْرُهُ وَطُغْيَانُهُ؛ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۞ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۞ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾

[القمر: ١ - ٣].

وَإِذَا بِالأَيَّام تَحْمِلُ مِحْنَةً جَدِيدَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَدْ مَاتَ عَمُّهُ أَبُو طَالِب الَّذِي اشْتَدَّ بِهِ الْمَرَضُ بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنَ الشِّعْبِ، وَكَانَتْ سِنُّهُ قَدْ تَقَدَّمَتْ، وَفِي لَحظَاتِهِ الأَخِيرَةِ، حَاوَلَ رَسُولُ اللهِ أَنْ يَهْدِيَهُ إِلَى طَرِيقِ اللهِ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ يَنْطِقُ بِالشَّهَادَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

فَكَانَ يَقُولُ: يَا عَمُّ، قُلْ كَلِمَةً وَاحِدَةً؛ أَشْفَعْ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ.

وَهُنَا قَالَ أَبُو جَهْلٍ وَكَانَ حاضِراً: يَا أَبَا طَالِبٍ هَلْ تَتْرُكُ دِينَ آبَائِكَ وَأَجْدَادِكَ؟

فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: بَلْ أَمُوتُ عَلَى دِينِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.

ثُــمَّ مَــاتَ أَبُو طَـالِبٍ كَافِراً؛ فَحَزِنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حُزْنَيْنِ، فَقَدْ حَزِنَ أَوَّلًا لِمَوْتِ عَمِّهِ وَهُوَ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ أَبِيهِ، ثُمَّ حَزِنَ لِأَنَّهُ مَاتَ كَافِراً لَمْ يُؤْمِنْ.

فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

وَأَوْحَى اللهُ لِنَبِيِّهِ أَنَّ أَبَا طَالِبٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنَّهُ أَخَفُّ أَهْلِ النَّارِ عذاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّهُ سَيُوضَعُ بَيْنَ قَدَمَيْهِ جَمْرَةٌ يَغْلِي مِنْهَا دِمَاغُهُ.

وَوَجَدَتْ قُرَيْشٌ الفُرْصَةَ سَانِحَةً للإِيذَاء؛ فَقَدْ مَاتَ الَّذِي كَانَ يَمْنَعُ رَسُولَ اللهِ وَيَحْمِيهِ، حَتَّى اعْتَرَضَهُ سَفِيهٌ من سُفَهَاءِ قُرَيْشٍ فَوَضَعَ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ ﷺ.

فَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ إِلَى بَيْتِهِ وَهُوَ يَبْكِي مَحْزُوناً، فَقَامَتْ إِحْدَى بَنَاتِهِ تَغْسِلُهُ وَتَبْكِي، وَرَسُولُ اللهِ يَقُولُ:

«لَا تَبْكِي يَا بُنَيَّةُ؛ فَإِنَّ اللهَ نَاصِرٌ أَبَاكِ».

وَلَقَدْ عَبَّرَ رَسُولُ اللهِ عَنْ هَذَا فَقَالَ: مَا نَالَتْنِي قُرَيْشٌ شَيْئاً أَكْرَهُهُ حَتَّى مَاتَ أَبُو طَالِبٍ.

وَلَمْ تُمْهِــلِ الأَقْدَارُ رَسُولَ اللهِ حَتَّى فَجَعَتْهُ فِي شَرِيكَةِ عُمُرِهِ الَّتِي صَدَّقَتْهُ حِينَ كَذَّبَهُ النَّاسُ، وَآمَنَتْ بِهِ حِينَ كَفَرَ النَّاسُ بِهِ، وَأَعْطَتْهُ المالَ حِينَ مَنَعَهُ الآخَرُونَ.

لَقَدْ مَاتَتِ الرَّقِيقَةُ الرَّفِيقَةُ خَدِيجَةُ، وَزِيرَةُ الصِّدْقِ، وأُمُّ المؤمنينَ، وَنَزَلَ جِبْرِيلُ وَهِيَ تَلْفُظُ أَنْفَاسَهَا الأَخِيرَةَ يَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ:

- بَشِّرْ خَدِيجَةَ بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ[١] لا صَخَبَ[٢] فِيهِ وَلا نَصَبَ[٣].

وَلَقَدْ ظَلَّ رَسُولُ اللهِ حَزِيناً عَلَيْهَا، وَفِيًّا لَهَا حَتَّى آخِرِ لَحْظَةٍ فِي حَيَاتِهِ.

وَالآنَ صَارَ رَسُولُ اللهِ وَحِيداً لَيسَ مَعَهُ أَحَدٌ؛ فَقَدْ مَاتَ عَمُّهُ الَّذِي كَانَ يَنْصُرُهُ.

وَمَاتَتْ خَدِيجَةُ الَّتِي كَانَتْ تُعْطِيهِ الثِّقَةَ وَالصَّبْرَ، وَلَكِنْ إِنْ مَاتَ هَؤلاءِ فَهُمْ بَشَرٌ ضُعَفَاءُ، وَيَبْقَى اللهُ

---

(١) من لؤلؤ. (٢) إزعاج. (٣) تعب.

تَعَالَى الحَيُّ الَّذِي لا يَمُوتُ، يَنْصُرُ نَبِيَّهُ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ الَّذِي أَرَادَ للإِسْلامِ أَنْ يَنْتَصِرَ بِالكِفَاحِ وَالجِهَادِ وَالصَّبْرِ، لا بِأَبِي طَالِبٍ وَغَيْرِهِ.

وَهَذَا مَا فَهِمَهُ رَسُولُ اللهِ، فَلَمْ تَتَوَقَّفْ مَسِيرَةُ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ بَلِ انْطَلَقَ لِيَنْشُرَ الإِسْلامَ، وَلَكِنْ هَذِهِ المَرَّةَ خَارِجَ مَكَّةَ.

***

كانت الطَّائِفُ قَرِيبَةً مِنْ مَكَّةَ جِدًّا، وَكَانَ أَغْنِيَاءُ مَكَّةَ يَحْتَفِظُونَ لِأَنْفُسِهِمْ بِبَسَاتِينَ وَزُرُوعٍ فِي الطَّائِفِ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ مُنَاخَهَا أَفْضَلُ كَثِيراً مِنْ مَكَّةَ، وكَمَا كَانَتْ قُرَيْشٌ فِيهَا زُعَمَاءُ مَكَّةَ، كَانَ فِي ثَقِيفٍ زُعَمَاءُ الطَّائِفِ.

وَرَأَى رَسُولُ اللهِ إِعْرَاضَ قُرَيْشٍ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لَهُ، وَظَنَّ أَنَّهُ إِنْ خَرَجَ إِلَى الطَّائِفِ يَدْعُو قَبِيلَةَ «ثَقِيفٍ» إِلَى الإِسْلامِ رُبَّمَا اسْتَجَابُوا لَهُ.

وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ مُتَخَفِّياً مِنْ مَكَّةَ يَحْدُوهُ الأَمَلُ فِي إِيمانِ أَهْلِ الطَّائِفِ، وَكَلَّمَ رَسُولُ اللهِ سَادَةَ ثَقِيفٍ وَزُعَمَاءَهَا، وَلَكِنَّ الطَّائِفَ لَمْ تَكُنْ أَفْضَلَ مِنْ مَكَّةَ،

وَلَمْ يُكنْ أَهْلُهَا إِلَّا أَصْحَابَ قُلُوبٍ قَاسِيَةٍ كَأَنَّهَا الحِجَارَةُ وَالصَّخْرُ، فَإِذَا بِهِمْ يُغرون سُفَهَاءَهُمْ[1] بِرَسُولِ اللهِ فَسَبُّوهُ، ثُمَّ اجْتَمَعُوا يَقْذِفُونَهُ بِالحِجَارَةِ.

وَرَاحَ رَسُولُ اللهِ يَجْرِي وَهُمْ وَرَاءَهُ يَقْذِفُونَهُ بِالحِجَارَةِ، حَتَّى دَمِيَتْ قَدَمَاهُ ﷺ.

وَهَا هِيَ أَرْضُ الطَّائِفِ تَبْكِي حِينَ نَزَلَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الدِّمَاءُ الطَّاهِرَةُ الزَّكِيَّةُ، ثُمَّ امْتَدَّتْ يَدٌ آثِمَةٌ بِحَجَرٍ فَأَصَابَ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَسَالَ الدَّمُ الزَّكِيُّ عَلَى وَجْهِهِ عليه السلام فَاخْتَلَطَتْ حُمْرَةُ الدِّمَاءِ بِبَيَاضِ الدُّمُوعِ، وَهُوَ صَابِرٌ لَا يَشْكُو، وَمَعَهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ يَمْسَحُ الدِّمَاءَ وَيَقُولُ: «مَا أَفْلَحَ قَوْمٌ أَدْمَوْا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ».

وَاضْطَرَّ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى اللُّجوءِ إِلَى بُسْتَانٍ لِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَأَخِيهِ شَيْبَةَ، فَلَمَّا اطْمَأَنَّ رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ وَرَاحَ يَدْعُو فِي مَشْهَدٍ مُؤَثِّرٍ تَدْمَى لَهُ القُلُوبُ، وَتَدْمَعُ لَهُ الْعُيُونُ، ثُمَّ قَالَ:

«اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي،

---

(١) **السفيه**: من يسيء التصرف، وهو التَّافه قليل العقل والمنزلة.

وَهَوانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي، لَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ».

وَخَرَجَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ مِنْ قَلْبِهِ ﷺ؛ فَبَكَى الْكَوْنُ كُلُّهُ لِبُكَائِهِ، وَحَرَّكَتِ الْكَلِمَاتُ قَلْبَ شَيْبَةَ وَأَخِيهِ عُتْبَةَ وَقَدْ كَانَا يَسْمَعَانِ كُلَّ مَا قَالَهُ رَسُولُ اللهِ مِن حَزِينِ كَلِمَاتٍ؛ فَنَادَى أَحَدُهُمَا عَلَى خَادِمٍ لَهُمَا يُقَالُ لَهُ: عَدَّاسٌ، وَأَمَرَاهُ بِوَضْعِ بَعْضِ العِنَبِ فِي طَبَقٍ وَتَقْدِيمِهِ لِرَسُولِ اللهِ فَفَعَلَ عَدَّاسٌ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ الطَّبَقَ ثُمَّ بَدَأَ الطَّعَامَ قَائِلًا: «**بِسْمِ اللهِ**».

فَقَالَ عَدَّاسٌ. وَكَانَ نَصْرَانِيًّا: إِنَّ هَذَا الكَلَامَ لَا يَقُولُهُ أَهْلُ هَذِهِ البِلَادِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: «**مِنْ أَيِّ بِلَادِ اللهِ أَنْتَ يَا عَدَّاسُ؟ وَمَا دِينُكَ؟**»

قَالَ: نَصْرَانِيٌّ، مِنْ أَهْلِ نِيْنَوَى.

فَقَالَ: **«مِنْ بَلَدِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»**.

فَتَعَجَّبَ عَدَّاسٌ قَائِلًا: وَكَيْفَ عَرَفْتَهُ؟

قَالَ: **«هُوَ نَبِيٌّ، وَأَنَا نَبِيٌّ»**.

فَانْكَبَّ عَدَّاسٌ عَلَى يَدَيْ رَسُولِ اللهِ وَقَدَمَيْهِ يُقَبِلُهُمَا، فَنَادَى عَلَيْهِ شَيْبَةُ وَعُتْبَةُ، فَقَالَا:

- إِنَّ دِينَكَ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ.

وَانْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الطَّائِفِ مَهْمُوماً مَحْزُوناً، وَبَيْنَمَا هُوَ شَارِدٌ فِي تَفْكِيرِهِ، إِذَا بِهِ يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرَى سَحَابَةً تُظِلُّهُ، فِيهَا جِبْرِيلُ عليه السلام فَنَادَاهُ وَقَالَ:

- يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ، وَقَدْ بَعَثَ مَعِي مَلِكَ الجِبَالِ، وَلَئِنْ شِئْتَ لأَطْبَقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ(١).

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: **«بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً»**.

(١) يعني هدم عليهم الجبلين، وهما قُعَيْقِعَان وأَبو قُبَيْس.

إِنَّهَا الرَّحْمَةُ فِي أَزْهَى ثِيَابِهَا، وَأَعْظَم مَعَانِيهَا، يَصْبِرُ عَلَى أَذَى قَوْمِهِ وَيَدْعُو لَهُمْ بِالْهِدَايَةِ وَلِسَانُ حَالِهِ يَقُولُ: **«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»**.

وَلَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ فَإِنَّهُ ﷺ «رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ»، وَهُوَ ﷺ «الرَّحْمَةُ الْمُهْدَاةُ» وَهُوَ الَّذِي بَكَى طِيلَةَ اللَّيْلِ يَدْعُو لأُمَّتِهِ بِالْمَغْفِرَةِ، وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ رَحْمَةَ النَّبِيِّ ﷺ فَكَيْفَ بِرَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى؟! لَا بُدَّ أَنَّهَا أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ.

وَفِي طَرِيقِ الْعَوْدَةِ إِلَى مَكَّة نَزَلَ رَسُولُ اللهِ فِي وَادٍ يُسَمَّى «وَادِي نَخْلَةَ» فَقَرَأَ القُرْآنَ وَصَلَّى.

وَفِي تِلْكُمُ اللَّحَظَاتِ وَرَسُولُ اللهِ لَا يَدْرِي حَضَرَتِ الجِنُّ، فَلَمَّا سَمِعُوا القُرْآنَ أَعْجَبَهُمْ وَآمَنَ بَعْضُهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ يَدْرِي بِهَذَا الأَمْرِ حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩]. وَكَانَتْ هَذِهِ أُولَى هَدَايَا السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ وَسْطَ هَذِهِ المِحَنِ والآلامِ.

وَأَعْلَنَتِ الأَرْضُ عِصْيَانَهَا حِينَ كَفَرَتْ قُرَيْشٌ وَثَقِيفُ، وَعَذَّبَتْ مَكَّةُ وَالطَّائِفُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ، فَتَجَلَّى كَرَمُ اللهِ تَعَالَى، فَهَبَّتْ نَسَائِمُ الإِيمانِ تَسْرِي،

لِتَقَعَ أَحْدَاثٌ نُورَانِيَّةٌ، وَمَشَاهِدُ عُلْوِيَّةٌ إِلٰهِيَّةٌ فِي جَوٍّ رُوحِيٍّ عَجِيبٍ.

فَفِي لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي مَكَّةَ المُظْلِمَةِ نَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام وَمَعَه مَلَكَانِ فَأَخَذُوا رَسُولَ اللهِ إِلَى الْكَعْبَةِ، فَشَقُّوا صَدْرَهُ، وَاسْتَخْرَجُوا قَلْبَهُ، وَوَضَعُوهُ فِي طَبَقٍ مَلآنَ بِالإِيمانِ وَالْحِكْمَةِ ثُمَّ أَعَادُوهُ مَرَّةً أُخْرَى، وَكَانَتْ هَذِهِ حَادِثَةَ «شَقِّ الصَّدْرِ» الثَّانِيَةَ لِرَسُولِ اللهِ، فَلَمَّا امْتَلأَ قَلْبُهُ حِكْمَةً وَعِلْماً وَإِيماناً زِيادَةً عَلَى مَا كَانَ قَبْلُ؛ صَارَ مُهَيَّئًا لاسْتِقْبَالِ مُعْجِزَاتِ رَبِّهِ.

وَحِينَمَا نَامَتِ العُيُونُ، وَهَدَأَتِ الأَصْوَاتُ فِي مَكَّةَ، جَاءَ جِبْرِيلُ وَمَعَهُ دَابَّةٌ شَكْلُهَا عَجِيبٌ، فَهِيَ بَيْنَ البَغْلِ وَالحِمَارِ، يَضَعُ قَدَمَهُ عِنْدَ آخِرِ مَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ بَصَرُهُ، إِنَّهُ (البُرَاقُ) - دَابَّةُ الأَنْبِيَاءِ الَّتِي يَرْكَبُونَهَا -، وَأَمَرَ جِبْرِيلُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنْ يَرْكَبَهَا؛ فَرَكِبَهَا النَّبِيُّ ﷺ لِتَبْدَأَ أَعْظَمُ رِحْلَةٍ قَامَ بِهَا أَعْظَمُ مَخْلُوقٍ يَصْحَبُهُ أَعْظَمُ الملائِكَةِ. إِنَّهَا رِحْلَةُ الإِسْرَاءِ وَالمِعْرَاجِ».

وَفِي لَمْحَةٍ غَابَ فِيهَا الزَّمَانُ وَالمَكَانُ، وَصَلَ

رَسُولُ اللهِ مِنَ الْمَسْجِدِ الحَرَامِ فِي مَكَّةَ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى بِالشَّام: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ[1] بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وَبَعَثَ اللهُ تَعَالَى أَرْوَاحَ الأَنْبِيَاءِ وَأَجْسَادَهُمْ، فَكَانُوا جَمِيعاً عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ الأَقْصَى فِي انْتِظَارِ النَّبِيِّ ﷺ .

فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُمَّ رَبطَ البُرَاقَ فِي حَلْقَةٍ فِي صَخْرَةِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ نَزَلَ فَسَلَّمَ عَلَى أَنْبِيَاءِ اللهِ جَمِيعاً الَّذِينَ بَعَثَهُمُ اللهُ تَعَالَى مُنْذُ أَنْ خَلَقَ الخَلْقَ حَتَّى مَبْعَثِ رَسُولِ اللهِ، وَبَاهَتْ أَرْضُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ الأَرْضَ جَمِيعَهَا فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ؛ فَإِنَّ الملائِكَةَ وَالأَنْبِيَاءَ جَمِيعاً الآنَ عَلَى ظَهْرِهَا.

واصْطَفَّ الأَنْبِيَاءُ لِلصَّلَاةِ، وَلَمْ يَتَقَدَّمْ أَحَدٌ لِلصَّلاةِ، فَجَاءَ جِبْرِيلُ لِيُقَدِّمَ رَسُولَ اللهِ إِماماً لِلأَنْبِيَاءِ جَمِيعاً، فَبِاللهِ انْظُرْ مَنِ الإِمَامُ وَمَنِ المَأْمُومُونَ؟!

---

(١) **الإسراء والسُّرَى**: هو السير ليلاً، والمعراج: هو الصُّعود = إلى أعلى.

وَفَرَغَ رَسُولُ اللهِ مِنَ الصَّلاةِ، فَقَامَ إِلَى البُرَاقِ لِيَفُكَّ رِبَاطَهُ.

وَبَيْنَمَا هُوَ يَفْعَلُ ذَلِكَ إِذْ نَادَاهُ مُنَادٍ عَنْ يَمِينِهِ، ثُمَّ نَادَاهُ مُنَادٍ عَنْ يَسَارِهِ فَلَمْ يَلْتَفِتْ، وَرَأَى امْرَأَةً عَجُوزاً عَلَيْهَا زِينَةٌ كَثِيرَةٌ تُنَادِيهِ فَتَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ انْتَظِرْ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ هَؤُلاءِ يَا أَخِي يَا جِبْرِيلُ؟»**

قَالَ: أَمَّا مَنْ نَادَاكَ عَنْ يَمِينِكَ فَهُوَ دَاعِي اليَهُودِ وَلَوْ أَجَبْتَهُ لَتَهَوَّدَتْ أُمَّتُكَ، وَالآخَرُ دَاعِي النَّصَارَى وَلَوْ أَجَبْتَهُ لَتَنَصَّرَتْ أُمَّتُكَ، أَمَّا الْمَرْأَةُ العَجُوزُ فَهِيَ الدُّنْيَا، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمُرِهَا إِلَّا قَلِيلٌ.

ثُمَّ قَدَّمَ جِبْرِيلُ عليه السلام لِرَسُولِ اللهِ إِنَاءَيْنِ فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ، وَفِي الآخَرِ خَمْرٌ، فَاخْتَارَ رَسُولُ اللهِ اللَّبَنَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: قَدِ اخْتَرْتَ الفِطْرَةَ(١)، وَلَوْ أَخَذْتَ الخَمْرَ لَضَلَّتْ أُمَّتُكَ.

وَبَدَأَتِ الرِّحْلَةُ العُلْوِيَّةُ وَهِيَ رِحْلَةُ «المِعْرَاجِ» لِيَصْعَدَ رَسُولُ اللهِ إِلَى السَّمَاءِ، فَيَكُونَ أَوَّلَ مَنْ صَعِدَ

---

(١) الهداية التي هدى الله الناس إياها.

الفَضَاءَ مِنَ الْبَشَرِ، فَإِذَا بِهِ يُطْلِقُ جَنَاحَي الشَّوْقِ إِلَى اللهِ، وَيُرَفْرِفُ بِأَجْنِحَةِ النُّورِ لِلِقَاءِ رَبِّهِ تَعَالَى.

وإِلَى السَّمَاءِ الأُولَى وَصَلَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ مَعَهُ جِبْرِيلُ عليه السلام، فَطَرَقَ بَابَهَا فَقَالَ مَلائِكَةُ السَّمَاءِ الأُولَى [وَلِكُلِّ سَمَاءٍ مَلائِكَةٌ يَحْفَظُونَهَا]: مَنْ أَنْتَ؟

قَالَ: أَنَا جِبْرِيلُ وَمَعِي مُحَمَّدٌ.

فَقَالُوا: أَوَقَدْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ؟

قَالَ: نَعَمْ.

فَقَالُوا: مَرْحَباً وَفَتَحُوا لَهُ البَابَ؛ فَدَخَلَ، فَإِذَا بِهِ يَرَى رَجُلًا جَالِساً عَلَى يَمِينِهِ جَمْعٌ مِنَ النَّاسِ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهِمْ ضَحِكَ، وَعَلَى يَسَارِهِ جَمْعٌ إِذَا رَآهُمْ بَكَى.

فَقَالَ جِبْرِيلُ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ؛ فَسَلَّمَ رَسُولُ اللهِ عَلَيْهِ، فَقَالَ آدَمُ: مَرْحَباً بِالابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

وَعَرَفَ رَسُولُ اللهِ أَنَّ مَنْ عَلَى يَمِينِهِ هُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَمَنْ عَلَى يَسَارِهِ هُمْ أَهْلُ النَّارِ.

وَفِي السَّماءِ الثَّانِيَةِ رَأَى يَحْيَى وَعِيسَى عليه السلام ،

وَهُمَا أَوْلادُ خَالَةٍ فَقَالا: أَهْلًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

وَأَمَّا السَّمَاءُ الثَّالِثَةُ، فَقَدْ رَأَى النَّبِيُّ ﷺ يُوسُفَ عليه السلام، وَفِي الرَّابِعَةِ الْتَقَى بِنَبِيِّ اللهِ إِدْرِيسَ عليه السلام، أَمَّا هَارُونُ عليه السلام فَقَدْ قَابَلَهُ رَسُولُ اللهِ فِي السَّمَاءِ الخَامِسَةِ، وَبَكَى مُوسَى عليه السلام فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ لَمَّا رَأَى رَسُولَ اللهِ وَقَالَ: بَكَيْتُ لِأَنَّ غُلَاماً بَعْدِي يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّا يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي.

وَإِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ تَوَجَّهَ رَسُولُ اللهِ بِصُحْبَةِ جِبْرِيلَ؛ فَوَجَدَ أَبَاهُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَهُوَ جَالِسٌ عِنْدَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَهُوَ بَيْتٌ فِي السَّمَاءِ تَحُجُّ إِلَيْهِ المَلَائِكَةُ كَمَا يَحُجُّ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْكَعْبَةِ فِي الأَرْضِ.

وَرَأَى حَوْلَهُ أَطْفَالًا صِغَاراً، فَسَأَلَ جِبْرِيلَ عَنْهُمْ فَقَالَ:

هَؤُلاءِ أَطْفَالُ أُمَّتِكَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ صِغَاراً يُعَلِّمُهُمْ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام القُرْآنَ.

وَسَلَّمَ رَسُولُ اللهِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِرَسُولِ اللهِ:

أَقْرِئْ[١] أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الماءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ.

وَنَحْنُ نَقُولُ: وَعَلَيْكَ السَّلامُ يَا نَبِيَّ اللهِ، سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ وَلَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ.

وَفِي لَمْحَةٍ مِنْ لَمَحَاتِ الزَّمَنِ، وَصَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام مَعَ رَسُولِ اللهِ إِلَى أَعْلَى مَكَانٍ فِي الوُجُودِ فَنَشَرَ جَنَاحَيْهِ فَسَدَّ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَتَعَجَّبَ رَسُولُ اللهِ مِنْ عِظَمِ خَلْقِ جِبْرِيلَ عليه السلام.

فَقَالَ جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ أَخِي مِيكَائِيلَ[٢] لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا مِثْلُ أَجْنِحَتِي جَمِيعاً وَإِنَّهُ يَقِفُ أَمَامَ اللهِ كَالعُصْفُورِ الصَّغِيرِ مِنْ خَشْيَتِهِ وَخَوْفِهِ.

وَعِنْدَ «سِدْرَةِ المُنْتَهَى» وَهِيَ شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ، يَسِيرُ الرَّاكِبُ المُسْرِعُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ لا يَقْطَعُهَا، وَقَفَ جِبْرِيلُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ هُنَا يُفَارِقُ الْحَبِيبُ حَبِيبَهُ، إِنَّكَ لَوْ صَعِدْتَ لاقْتَرَبْتَ، وَلَوْ صَعِدْتُ أَنَا لاحْتَرَقْتُ.

فَمَضَى رَسُولُ اللهِ وَحِيداً لِيَرَى أَوْرَاقَ سِدْرَةِ

(١) اقرأ وبلغ. (٢) مَلَكُ المطر.

المُنْتَهى مِنْ ذَهَبٍ كَأَنَّ أَوْرَاقَها آذَانُ الفِيلَةِ، وَهِيَ أَعْلَى مَكانٍ فِي الْوُجُودِ قَبْلَ عَرْشِ اللهِ تَعَالَى، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي عِلْمُ الخَلائِقِ جَمِيعاً.

وَعَلَى كُلِّ وَرَقَةٍ مِنْ وَرَقِهَا رَأَى رَسُولُ اللهِ مَلَكاً مِنَ المَلَائِكَةِ يُسَبِّحُ اللهَ تَعَالَى.

وَإِذَا بِنُورِ اللهِ تَعَالَى يَعُمُّ المَكَانَ وَيَسُودُهُ، وَاقْتَرَبَ رَسُولُ اللهِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى رَبِّهِ تَعَالَى، فَإِذَا بِالنُّورِ يَسُودُ المكانَ كُلَّهُ، فَالْتَقَى النُّورَانِ، نُورُ اللهِ، ثُمَّ نُورُ رَسُولِ اللهِ وَرَأَى رَسُولُ اللهِ رَبَّهُ، وَكَانَ قَدِ اشْتَاقَ إِلَيْهِ، وَسَطَعَتْ أَنْوَارُ اللهِ وَأَشْرَقَتْ عَلَى جَبِينِ رَسُولِ اللهِ، وَسَبَحَ رَسُولُ اللهِ فِي أَنْوَارِ رَبِّهِ.

ثُمَّ كَانَتْ هَدِيَّةُ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ: **الصَّلاة**.

وَكَانَتْ قَدْ فُرِضَتْ خَمْسِينَ صَلاةً، فَلَمَّا نَزَلَ رَسُولُ اللهِ إِلى مُوسَى عليه السلام، قَالَ لَهُ:

ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ؛ فَلَقَدْ عَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَكَ، وَأُمَّتُكَ ضَعِيفَةٌ.

فَمَا زَالَ رَسُولُ اللهِ يَصْعَدُ وَيَهْبِطُ حَتَّى جَعَلَهَا اللهُ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْم وَاللَّيْلَةِ، مَنْ فَعَلَهَا كَانَتْ كَأَجْرِ

خَمْسِينَ صَلاةً، **وَبِذَلِكَ تَصِيرُ الصَّلاةُ مِعْراجاً لِكُلِّ مُؤْمِنٍ.**

وَانْتَهَى اللِّقَاءُ العُلْوِيُّ بَعْدَ أَنْ رَأَى رَسُولُ اللهِ مَشَاهِدَ مِنَ الجَنَّةِ ونَعِيمِ أَهْلِهَا، وَمَشَاهِدَ مِنَ النَّارِ وَعَذَابِ أَهْلِهَا، وَعَادَ رَسُولُ اللهِ إِلَى الأَرْضِ، وَرَكِبَ البُرَاقَ لِيَعُودَ إِلَى مَكَّةَ، وَفِي طَرِيقِ العَوْدَةِ رَأَى قَافِلَةً لِقُرَيْشٍ ضَاعَ لَهُمْ جَمَلٌ، فَشَرِبَ مِنْ مَاءٍ لَهُمْ كَانُوا قَدْ غَطَّوْهُ، ثُمَّ أَعَادَ الغِطَاء، وَعَادَ إِلَى سَرِيرِهِ، فَوَجَدَهُ دَافِئاً كَمَا كَانَ.

وَأَصْبَحَ الصَّبَاحُ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ يُحَدِّثُ المُشْرِكِينَ عَنْ رِحْلَةِ الإِسْرَاءِ فَقَطْ دُونَ المِعْرَاجِ، فَقَالُوا سَاخِرِينَ: كَيْفَ؟! نَذْهَبُهَا فِي شَهْرٍ وَنَعُودُ فِي شَهْرٍ، وَأَنْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ ذَهَبْتَ وَعُدْتَ فِي لَيْلَةٍ، بَلْ فِي أَقَلَّ مِنَ اللَّيْلَةِ؟!

وَكَانُوا يَعْلَمُونَ جَيِّداً أَنَّ رَسُولَ اللهِ لَمْ يَرَ الْمَسْجِدَ الأَقْصَى طِيلَةَ حَيَاتِهِ.

فَقَالُوا: إِنْ كُنْتَ صَادِقاً صِفْ لَنَا الْمَسْجِدَ الأَقْصَى.

وَهُنَا اَغْتَمَّ رَسُولُ اللهِ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا دَخَلَ الْمَسْجِدَ الأَقْصَى لَمْ يَنْظُرْ إِلَيْهِ جَيِّداً فَقَدْ كَانَ مَشْغُولًا بِمَا هُوَ أَهَمُّ مِنْ هَذَا.

فَبَعَثَ اللهُ جِبْرِيلَ عليه السلام وَعَلَى يَدَيْهِ الْمَسْجِدُ الأَقْصَى فَوَصَفَهُ رَسُولُ اللهِ لَهُمْ، وَلَكِنَّ الْمُشْرِكِين كَذَّبُوهُ، وَلَمْ يُصَدِّقْ إِلَّا المسْلِمُونَ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ أَبُو بَكْرِ الصِّدِّيقُ - رضي الله عنه - الَّذِي قَالَ حِينَ سَأَلَهُ الْمُشْرِكُون أيُصَدِّقُ؟

- أُصَدِّقُهُ أَنَّ الأَمْرَ يَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ، أَفَلا أُصَدِّقُهُ أَنَّهُ يَصْعَدُ إِلَيْهَا وَيَهْبِطُ؟!

وَصَارَ (الصِّدِّيقُ أَبُو بَكْرٍ) - رضي الله عنه - هُوَ الَّذِي صَدَّقَ وَآمَنَ، وَأَنْفَقَ.

وَلَكِنَّ الْحَيَاةَ فِي مَكَّةَ تَزْدَادُ إِلَى سُوئِهَا سُوءًا، وَالعَذَابُ قَدِ اشْتَدَّ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَصَحَابَتِهِ، وَظَنَّ الْجَمِيعُ أَنَّ الإِسْلامَ سَيُهْزَمُ.

لَكِنْ كَانَتِ السَّمَاءُ تُدَبِّرُ أَمْراً آخَرَ لِنَبِيِّها، وَاللهُ مُطَّلِعٌ مِنْ فَوْقِ الشُّهُودِ يَسْمَعُ وَيَرَى.

الدروس المستفادة

(١) اللهُ تَعَالَى يُمِدُّ أنبياءَهُ بالمعجزاتِ وهي أمورٌ لا يأتِي بها إِلَّا الله تعالى ويعطيها للأنبياءِ فقط.

(٢) أبو طالب أَهْوَنُ النَّاسِ عَذَاباً يومَ القيامة.

(٣) أمُّ المؤمنينَ خديجةُ فِي الجَنَّة.

(٤) جِهادُ رسولِ الله من أجلِ نَشْرِ الإِسلام كان عظيماً وَصَبْرُهُ كانَ أَعْظَمَ.

(٥) اللهُ تعالى يحفظُ نبيَّهُ من كَيْدِ المشركين.

(٦) اللُّجوءُ إلى اللهِ تعالى في كلِّ الأمورِ دون انتظارٍ لما سيفعلُهُ البَشَر.



أكمل ما يأتي:

كان أول من صعد الفضاء من البشر هو . . . . . ،

وذلك ليلة . . . . و . . . . . .، وفيه انتقل من . . . . . إِلى . . . . بعد أن ركب . . . . . وذلك بعد أن كَذَّبَ المشركون بمعجزة . . . . . .، وآذاه أهل ثقيف الذين سكنوا . . . . .، واشتدت قريش في تعذيب رسول الله بعد موت . . . . . و . . . . .

*** كانت حادثة شقّ الصدر الثانية ليلة الإِسراء، فمتى كانت الحادثة الأولى؟**

*** اذكر موقفاً يدل على الآتي:**

(١) رحمة رسول الله ﷺ بالمؤمنين والمشركين.

(٢) حبُّ الله تعالى لنبيِّه ﷺ.

(٣) حرص رسول الله ﷺ على نشر الإِسلام.

من هو؟

- نبيٌّ يسكن السماء السابعة وفيها البيت المعمور.

- غُلام شَيْبَة وعُتْبَة ابْنَيْ ربيعة، وكان من أهل نِينَوَى.

- أَهْوَنُ الناسِ عَذاباً يومَ القيامة.

الإجابات

رسول الله ﷺ، الإسراء، والمعراج، المسجد الحرام، البُراق، انشقاق القمر، الطائف، أبي طالب، خديجة.

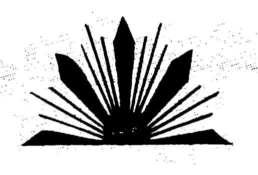
في ديار بَنِي سَعْد.

قوله: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

الإسراء والمعراج.

الهجرة إلى الطائف.

إبراهيم عليه السلام، عَدّاس، أبو طالب.



وَداعــاً مكة

أَحَدَ عَشَرَ عَاماً هِيَ عُمْرُ دَعْوَةِ الإِسْلام فِي مَكَّةَ، عَاشَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يُؤْذَى فِي اللهِ وَمَا يُؤْذِي أَحَداً، وَيُخَافُ فِي اللهِ وَمَا يُخِيفُ أَحَداً، آمَنَ فِيهَا مَنْ آمَنَ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ.

وَلَا زَالَتْ آثَارُ العَذَابِ فِي ظَهْرِ بِلالٍ وَوَجْهِهِ، وَلَا زَالَ خَبَّابٌ يَشْتَكِي آلامَ ظَهْرِهِ حَيْثُ أُطْفِئَتْ أَسْيَاخُ الْحَدِيدِ فِي ظَهْرِهِ.

وَهَا هُوَ عَمَّارٌ يَذْهَبُ إِلَى قَبْرِ سُمَيَّةَ وَيَاسِرٍ يَدْعُو لَهُمَا بِالْجَنَّةِ ، وَهَا هِيَ دُمُوعُ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِاللَّيْلِ وَهُوَ يَتْلُو الْقُرْآنَ وَآهَاتُهُ تَعْلُو فَتَبْكِي لَهَا مَلائِكَةُ السَّمَاءِ، وَمُؤْمِنُو الإِنْسِ وَالجِنِّ.

وَلَمْ يَعْرِفِ اليَأْسُ يَوْماً طَرِيقَهُ إِلَى قَلْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، بَلْ كَانَ التَّصْمِيمُ عَلَى هِدَايَةِ النَّاسِ وَنَشْرِ دِينِ اللهِ دَأْبَهُ وَهَمَّهُ؛ فَنَفَضَ غُبَارَ النَّوْمِ عَنْ عَيْنَيْهِ، وَصَارَ يَطْلُبُ العُلَا مِنَ الدَّرَجَاتِ عِنْدَ رَبِّهِ.

وَهَا هُوَ يَخْرُجُ فِي مَوْسِمِ الحَجِّ يَدْعُو القَبَائِلَ

لِلإيمانِ لَعَلَّ قَلْباً مِنَ القُلُوبِ يَهْتَدِي بِهِ حِينَ يَسْتَمِعُ القُرْآنَ، أَوْ رُوحاً تَهِيمُ فِي مَلَكُوتِ اللهِ العُلْوِيِّ حِينَ تَعْرِفُ كَلامَ رَبِّهَا، وَلَكِنَّ قُرَيْشاً مَنَعَتْهُ ذَلِكَ.

وَمَعَ هَذَا فَقَدْ أَسْلَمَ بَعْضُ النَّاسِ مِنْ خَارِجِ مَكَّةَ وَهُمْ قَلِيلٌ كَأَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ، وَإِياسِ بْنِ مُعَاذٍ مِنْ يَثْرِبَ، وَكَذَا سُوَيْدُ بْنُ صَامِتٍ، لَكِنَّهُمْ قَلِيلٌ لِلْغَايَةِ لا يَقُومُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ وَحْدَهُ بِتَبْلِيغِ دَعْوَةِ رَبِّهِ.

وَلِهٰذَا طَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي إِسْلام المزيدِ مِنَ القَادِمِينَ إِلَى مَكَّةَ، فَلَمْ يَكُنْ يَمُرَّ عَامٌ إِلَّا وَقَدْ أَسْلَمَ رَجُلٌ، أَوْ اثْنَانِ مِنْ خَارِجِ قُرَيْشٍ، حَتَّى عَرَفَتِ العَرَبُ كُلُّهَا الإِسلام.

***

كَانَتْ «يَثْرِبُ» مَدِينَةً هَامَّةً دَاخِلَ الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ، فَهِيَ مَمَرُّ القَوَافِلِ التِّجَارِيَّةِ لِقُرَيْشٍ، كَمَا أَنَّهَا اشْتُهِرَتْ بِزِرَاعَةِ النَّخِيلِ الَّذِي يُخْرِجُ التَّمرَ، وَكَانَ الْعَرَبُ يَعْتَبِرُونَ التَّمْرَ وَجْبَتَهُمُ الأَسَاسِيَّةَ، وَطَعَامَهُمُ الأَهَمَّ، كَمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ مِنْهُ الخَمْرَ.

وَكَانَ أَهْلُ «يَثْرِبَ» قَدِ انْقَسَمُوا إِلَى قَبِيلَتَيْنِ هُمَا «الأَوْسُ» وَ«الخَزْرَجُ»، وَبَيْنَهُمَا قَامَتْ حُرُوبٌ طَوِيلَةٌ

كَانَ أَهَمُّهَا يَوْمَ «بُعَاثٍ» وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي قُتِلَ فِيهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ الطَّرَفَيْنِ.

وَكُلَّمَا هَدَأَتْ نَارُ الحَرْبِ بَيْنَهُمَا أَشْعَلَهَا فَرِيقٌ ثَالِثٌ كَانَ يَسْكُنُ مَعَهُمُ المدينةَ، وَهُمُ اليَهُودُ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَبَنِي قَيْنُقَاعَ، وَبَنِي النَّضِيرِ، وَأَهْلِ خَيْبَرَ، فَقَدْ كَانُوا تُجَارَ سِلاحٍ، يُرِيدُونَ أَنْ يَبِيعُوهُ لِلْعَرَبِ، وَمِنْ مَصْلَحَتِهِمْ أَنْ تَظَلَّ الحَرْبُ دَائِرَةٌ، فَكَانُوا يَقُومُونَ بِالْوَقِيعَةِ وَالدَّسِيسَةِ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، وَالاسْتِفَادَةِ مِنْهُمَا.

إِنَّ الحَرْبَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ: الأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ أَنهَكَتْهُمْ [١]، وَاسْتَنْفَدَتْ أَمْوَالَهُمْ، وَقَتَلَتْ رِجَالَهُمْ، وَيَتَّمَتْ أَطْفَالَهُمْ، وَإِنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ سَبَباً لِهَذِهِ الْحَرْبِ اللَّعِينَةِ؛ فَتَمَنَّوْا لَوِ انْتَهَتْ هَذِهِ الْحَرْبُ وَاسْتَرَاحُوا جَمِيعاً.

وَعَلَى الجَانِبِ الآخَرِ كَانَ الْيَهُودُ قَدْ أَعْلَنُوا أَنَّ نَبِيّاً قَدِ اقْتَرَبَ زَمَانُ بِعْثَتِهِ، وَإِنَّهُمْ سَيَتَّبِعُونَهُ وَيَمْلِكُونَ الأَرْضَ كُلَّهَا، وَكَانَ الْيَهُودُ قَدْ طَمِعُوا فِي أَنْ يَكُونَ هَذَا النَّبِيُّ مِنْهُمْ، وَانْتَشَرَتْ هَذِهِ البِشَارَةُ فِي رُبُوعِ يَثْرِبَ كُلِّهَا.

---

(١) اتبعتهم.

وَفِي سُوقِ «عُكَاظٍ» بِمَكَّةَ أَثْنَاءَ مَوْسِمِ الْحَجِّ وَتَحْدِيداً فِي نِهَايَةِ شَعَائِرِ الْحَجِّ، جَلَسَ بَعْضُ أَهْلِ يَثْرِبَ، وَكَانُوا سِتَّةَ نَفَرٍ يَحْلِقُونَ رؤوسَهُمْ فِي مَكَانٍ يُسَمَّى «الْعَقَبَةَ»، وَكَانُوا مِنْ عُقَلاءِ يَثْرِبَ الَّذِينَ أَضْنَتْهُمُ الحَرْبُ، وَكَوَتْهُمْ نِيرَانُهَا.

وَكَأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مَوْعِدٍ مَعَ السَّعَادَةِ، فَقَدْ دَخَلَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ وَيَتْلُو عَلَيْهِمُ القُرْآنَ، فَأَحَسُّوا بِصِدْقِ رَسُولِ اللهِ، وَأَصَابَ سَهْمُ القُرْآنِ قُلُوبَهُمْ، وَتَذَكَّرُوا بِشَارَةَ الْيَهُودِ لَهُمْ بِنَبِيِّ آخِرِ الزَّمَانِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:

وَاللهِ إِنَّهُ لَلنَّبِيُّ الَّذِي حَدَّثَتْنَا عَنْهُ يَهُودُ، فَاسْبِقُوهُمْ إِلَيْهِ.

وَكَانَ الخَيْرُ فِي أَهْلِ يَثْرِبَ فَآمَنُوا وَأَسْلَمُوا، وَعَلَتْ أَصْوَاتُهُمْ تَنْطِقُ بِالشَّهَادَةِ.

- لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ.

وَلَمْ يَكُنْ هَؤُلاءِ يَعْلَمُونَ جَمِيعاً أَنَّهُمْ يَكْتُبُونَ بِدَايَةَ تَارِيخِ انْتِصَارِ الإِسْلامِ، فَقَدْ كَانُوا بَشَائِرَ النَّصْرِ وَطَلائِعَ الإِيمَانِ، ثُمَّ تَوَاعَدُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنْ يَلْتَقُوا بِهِ فِي الْعَامِ التَّالِي.

وَعَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَدْ أَحَسَّ أَنَّهُ قَدْ أَمْسَكَ نُجُومَ السَّمَاءِ بِيَدِهِ، فَإِنَّ الصَّيْدَ كَانَ ثَمِيناً، إِنَّهُمْ سِتَّةُ نَفَرٍ، فَهٰذِي بَشَائِرُ النَّصْرِ، وَخُيُولُ الإِيمانِ قَدْ رَكِبَتْ، فَبِسْمِ اللهِ مُجْرَاهَا.

***

وَسَرِيعاً انْقَضَى الْعَامُ، وَجَاءَ أَهْلُ يَثْرِبَ لَكِنَّهُمْ هَذِهِ المَرَّةَ زَادَ عَدَدُهُمْ فَقَدْ صَارَوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، فَالتَقَى بِهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ سِرًّا فِي «العَقَبَةِ» فَسُمِّيَتْ هَذِهِ «بَيْعَةَ العَقَبَةِ الأُولَى»؛ لِأَنَّهُمْ بَايَعُوا رَسُول اللهِ - أَيْ عَاهَدُوهُ - عَلَى الإِيمانِ باللهِ، وَتَرْكَ عِبادَةِ الأَصْنَامِ، وَأَلَّا يَعْصُوهُ فِي أَمْرٍ أَمَرَهُمْ بِهِ.

وَنَظَرَ رَسُولُ اللهِ إِلَيْهِمْ نَظْرَةَ المُوَدِّعِ بَعْدَ أَنْ عَاهَدَهُمْ وَعَاهَدُوهُ عَلَى اللِّقَاءِ فِي الْعَامِ التَّالِي، وَلَمْ يَكُنْ سَفِيرٌ فِي الإِسْلامِ خَيْراً مِنْ مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ العَبْدَرِيِّ - رضي الله عنه - الَّذِي بَعَثَهُ رَسُولُ اللهِ مَعَهُمْ لِيُعَلِّمَهُمُ القُرْآنَ وَالإِسْلامَ، وَهُوَ رَجُلٌ نَوَّرَ اللهُ قَلْبَهُ؛ فَأَنَارَ هُوَ قُلُوبَ أَهْلِ يَثْرِبَ بِنُورِ اللهِ الَّذِي سَطَعَ فِي قَلْبِهِ، فَلَمْ يَبْقَ بَيْتٌ فِي يَثْرِبَ إِلَّا وَقَدْ دَخَلَهُ الإِسْلامُ، وَآمَنَ أَهْلُ يَثْرِبَ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ.

وَجَاءَ أَهْلُ يَثْرِبَ فِي الْعَامِ التَّالِي وَقَدْ امْتَلأَتْ قُلُوبُهُمْ بِالشَّوْقِ لِلِقَاءِ الْحَبِيبِ عليه السلام، فَلَنَظْرَةٌ إِلَى وَجْهِهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَلَكِنَّ الْعَدَدَ هَذِهِ الْمَرَّةَ لَمْ يَكُنْ سِتَّةً، وَلا اثْنَيْ عَشَرَ، بَلَ كَانَ ثَلاثَةً وَسَبْعِينَ فَرْداً مَعَهُمْ امْرَأَتَانِ.

إِنَّ مَكَّةَ خَسِرَتْ كَثِيراً حِينَ رَفَضَ أَهْلُهَا الإِسْلامَ، وَكَسَبَتْ يَثْرِبُ وَرَبِحَتْ كَثِيراً حِينَ آمَنَ أَهْلُهَا، وَفَتَحُوا قُلُوبَهُمْ لِشَمْسِ الْهُدَى تَسْطَعُ فِيهِ وتُشْرِقُ، فَكَانَ مَوْعِدُهُمْ فِي الدُّنْيَا الإِيمانَ، وَفِي الآخِرَةِ الجَنَّةَ.

وَفِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ، وَحِينَ أَرْخَى سِتَارَهُ عَلَى الكَوْنِ، وَهَدَأَتْ عُيُونُ قُرَيْشٍ وَجَوَاسِيسُهَا، خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى العَقَبَةِ لِلِقَاءِ أَهْلِ الإِيمانِ الجُدُدِ، الَّذِينَ اشْتَاقُوا لِرُؤْيَاهُ وَسَمَاعِهِ، كَمَا اشْتَاقَ هُوَ لِرُؤْيَاهُمْ وَمُبَايَعَتِهِمْ، وَأَخَذَ مَعَهُ عَمَّهُ الْعَبَّاسَ بْنَ عَبْدِ المطَّلِبِ، وَكَانَ كَافِراً لَمْ يُسْلِمْ بَعْدُ.

وَبَيْنَمَا الْقَوْمُ فِي انْتِظَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِذَا بِهِمْ يَرَوْنَ النُّورَ قَدْ أَطَلَّ عَلَيْهِمْ فَكَأَنَّ الشَّمْسَ قَدْ سَطَعَتْ فِي اللَّيْلِ فَبَدَّدَتْ ظُلُمَاتِهِ وَغُيُومَهُ، وَإِنَّهُ شَمْسٌ لَكِنَّهَا شَمْسٌ تُشْرِقُ فِي الْقُلُوبِ فَتُزِيلُ الظُّلْمَةَ، وَتَبْعَثُ النُّورَ

الإلٰهِيَّ فِي الْقَلْبِ حِينَ يَتَرَنَّمُ بِالْقُرْآنِ رَائِعاً فَيَخْشَعُ الْقَلْبُ، وَتَهْدَأُ نِيرَانُهُ، وَتَدْمَعُ الْعَيْنُ، وَتَطِيرُ الرَّوحُ هَائِمَةً فِي مَلَكُوتِ رَبِّهَا.

كانَ اللِّقَاءُ حَقًّا مُمْتِعاً رَائِعاً، لِقَاءٌ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُتْلُو فِيهِ القُرْآنَ عَلَى المُؤْمِنِينَ؛ فَآمَنُوا جَمِيعاً، ثُمَّ بَايَعُوهُ عَلَى السَّمَعِ وَالطَّاعَةِ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ وَأَنْ يُجَاهِدُوا في سَبِيلِ اللهِ، وَيَنْصُرُوا رَسُولَهُ، وَيَحْمُوهُ كَمَا يَحْمُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ، وَأَزْوَاجَهُمْ؛ وَعَلَى ذَلِكَ فَإِنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ، فَبَايَعُوهُ ﷺ.

وَهَكَذَا قُدِّرَ «لِلعَقَبَةِ الثَّانِيَةِ» أَنْ تَكُونَ اللَّحْظَةَ الفَاصِلَةَ بَيْنَ مَرْحَلَتَيْنِ مِنْ مَرَاحِلِ تَارِيخِ الإِسْلام، فَهَا هِيَ يَثْرِبَ قَدْ آمَنَتْ، وَاسْتَعَدَّتْ لِلِقَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَصَحْبِهِ الكِرَام، وَتَزَيَّنَتْ كَالْعَرُوسِ لِعَرُوسِهَا، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يُهَاجِرَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ.

***

وَأَوْحَى اللهُ لِرَسُولِهِ بِأَنْ يَأْمُرَ صَحَابَتَهُ بِالهِجْرَةِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى المدينةِ، فَقَالَ لَهُمْ:

– **«إِنِّي أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ، وَهِيَ ذَاتُ نَخْلٍ بَيْنَ لابَتَيْنِ».**

أَيِ المَدِينَة، وَكَانَتْ تَقَعُ بَيْنَ مَكَانَيْنِ يُسَمَّى كُلٌّ مِنْهُمَا (الحَرَّة) أَوِ اللَّابَة، وَهِيَ الأَرْضُ ذَاتُ الحِجَارَةِ السَّوْدَاءِ.

وَبَدَأَتْ وُفُودُ المؤمنينَ تَخْرُجُ سِرًّا مِنْ مَكَّةَ إِلَى المدينَةِ، فَهَيَّؤُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَعَدُّوا العُدَّةَ لِلْفِرَارِ بِدِينِهِمْ، فَتَرَكُوا المالَ وَالأَوْلادَ وَالدِّيارَ، وَفَارَقُوا الأَوْطَانَ نَجاةً بِدِينِهِمْ، لَا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ إِلَّا مَرْضَاةَ اللهِ تَعَالَى وَطَاعَةَ أَمْرِهِ؛ طَمَعاً فِي الجَنَّةِ؛ وَفِي رِضْوَانِهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَضَرَبَ المؤمنونَ المَثَلَ الأَعْلَى فِي الطَّاعَةِ وَالتَّضْحِيَةِ مِنْ أَجْلِ رِفْعَةِ هَذَا الدِّينِ، فَتَرَكَ أَبُو سَلَمَةَ ابْنُ عَبْدِ الأَسَدِ المَخْزُومِيُّ زَوْجَتَهُ وَوَلَدَهُ وَهَاجَرَ، وَضَحَّى صُهَيْبٌ بِمَالِهِ الَّذِي جَمَعَهُ مِنَ الكَدِّ وَالعَنَاءِ، وَالوُقُوفِ طَوِيلًا أَمَامَ نَارِ الكِيرِ[1] حَتَّى احْتَرَقَتْ يَدُهُ، وَضَعُفَ بَدَنُهُ، هَانَتِ الدُّنْيَا عَلَيْهِمْ، فَقَدْ أَرَادُوا جَنَّةً عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ كَمَا وَعَدَهُمُ اللهُ تَعَالَى.

وَصَارَتْ مَكَّةُ خَاوِيَةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، خَالِيَةً مِنَ الضُّعَفَاءِ، وَالمُعَذَّبِينَ.

وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا بَعْضُ الَّذِينَ حَبَسَتْهُمْ قُرَيْشٌ، وَعَلِيُّ

(١) هو أداة ينفخ فيها الحداد.

ابْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ - رضي الله عنهما -، وَمَعَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ فَإِنَّهُ نَبِيٌّ لَا يُهَاجِرُ إِلَّا بِإِذْنٍ مِنْ رَبِّهِ، فَانْتَظَرَ إِذْنَ رَبِّهِ بِالْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ وَأَبْقَى عَلِيًّا وَأَبَا بَكْرٍ لأَنَّ لَهُمَا دَوْراً مُهِمًّا فِي رِحْلَةِ الْهِجْرَةِ.

***

أَحَسَّتْ قُرَيْشٌ بِأَنَّ مَكَّةَ قَدْ خَلَتْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا أَنَّ بَعْضَ جَواسِيسِها عَرَفُوا بِخَبَرِ إِسْلامِ أَهْلِ يَثْرِبَ. وَهُنَا اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ فِي «دَارِ النَّدْوَةِ»، وَهِيَ دَارٌ كَانُوا يَتَشَاوَرُونَ فِي أُمُورِهِمْ فِيهَا، وَعَقَدُوا فِيهَا مُؤْتَمَرَ الغَدْرِ وَالدَّسِيسَةِ، فَإِنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْنِهِمْ سَتَنْتَشِرُ دَعْوَتُهُ، وَيَظْهَرُ دِينُهُ، فَقَلَّبُوا الأَمْرَ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ.

وَتَسَلَّلَ الشَّيْطَانُ عَلَى هَيْئَةِ رَجُلٍ عَرَبِيٍّ مِنْ أَهْلِ «نَجْدٍ»؛ لِيَحْضُرَ مَعَهُمْ مُؤَامَرَةَ الغَدْرِ، وَمُؤْتَمَرَ الشَّرِّ وَفِيهِ قَالَ أَحَدُهُمْ: نَحْبِسُ مُحَمَّداً فِي سِجْنٍ مُظْلِمٍ لَا يَرَى فِيهِ النَّهَارَ أَبَداً.

فَقَالَ الشَّيْطَانُ: سَتَنْتَشِرُ دَعْوَتُهُ مِنْ وَرَاءِ سِجْنِهِ، وَيَعْرِفُ النَّاسُ بِأَمْرِهِ، فَلَيْسَ هَذَا بِالرَّأْيِ وَإِنَّ أَنْصَارَهُ وَأَصْحَابَهُ سَيُخْرِجُونَهُ.

فَقَالَ آخَرُ: إِذَنْ نُخْرِجُهُ مِنْ بينِنَا.

فَقَالَ الشَّيْطَانُ: لَا، فَلَوْ فَعَلْتُمْ فَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ يُؤْمِنُ بِهِ، فَإِنَّ لِحَدِيثِهِ حَلاوَةً وَإِنَّهُ يَغْلِبُ عَلَى الْقُلُوبِ، وَسَيَعُودَ إِلَيْكُمْ يُحَارِبُكُمْ وَيَقْتُلُكُمْ.

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: أَرَى أَنْ نَأْخُذَ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ فَتًى شَابًّا قَوِيًّا، ثُمَّ نُعْطِي كُلًّا مِنْهُمْ سَيْفاً، فَإِذَا خَرَجَ مُحَمَّدٌ مِنْ دَارِهِ ضَرَبْنَاهُ ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَمَاتَ، فَلَا تَقْدِرُ بَنُو هَاشِمٍ عَلَى حَرْبِ الْعَرَبِ كُلِّهَا؛ فَيَأْخُذُونَ مِنَّا الدِّيَةَ (١).

وَقَامَ الْجَمِيعُ بَعْدَ أَنْ وَافَقُوا عَلَى هَذَا الرَّأْيِ الَّذِي لَمْ يَخْطُرْ بِبَالِ إِبْلِيسَ نَفْسِهِ، لِمَ لَا؟! وَهُوَ فِرْعَوْنُ الأُمَّةِ شَيْطَانُ الإِنْسِ، كَمَا أَنَّ إِبْلِيسَ شَيْطَانُ الجِنِّ.

وَفَوْقَ الْجَمِيعِ كَانَتْ عَيْنُ اللهِ السَّاهِرَةُ، تَسْمَعُ وَتَرَى مَا يُدَبِّرُهُ الْقَوْمُ لِرَسُولِهِ وَحَبِيبِهِ، فَأَوْحَى اللهُ لِنَبِيِّهِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ دَارِهِ وَلا يَبِيتَ فِيهَا، بَلْ أَمَرَهُ بِالْهِجْرَةِ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ أَيْضاً.

وَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ

---

(١) مبلغ من المال يُدْفَعُ لأهل القتيل.

- رضي الله عنه - أَنْ يَنَامَ فِي فِرَاشِهِ، وَبَشَّرَهُ بِالسَّلامَةِ، وَبِأَنَّهُمْ لَنْ يَمَسُّوهُ بِأَذَى أَوْ سُوءٍ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِرَدِّ الوَدَائِعِ وَالْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا، لأَنَّ قُرَيْشاً رَغْمَ كُفْرِهَا بِاللهِ وَتَكْذِيبِهَا لِرَسُولِهِ، كَانَتْ تَضَعُ أَمَانَاتِهَا وَوَدَائِعَهَا عِنْدَ الأَمِينِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ قَادِراً عَلَى أَخْذِهَا مَعَهُ، وَلَكِنَّ الأَمَانَةَ صِفَتُهُ الغَالِبَةُ، فَأَبْقَى عَلِيًّا لِهَذِهِ المُهِمَّةِ.

وَيَا لَلْعَجَبِ مِنْ قَوْمٍ يُكَذِّبُونَ رَجُلًا ثُمَّ يَأْتَمِنُونَهُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَوَدَائِعِهِمْ!!

وَكَانَ مَوْعِدُ لِقَاءِ الْقَوْمِ مُنْتَصَفَ اللَّيْلِ فَجَاؤوا بِسُيُوفِهِمْ، وَوَقَفُوا عَلَى بَابِ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ، وَرَبُّهُ يُنَزِّلُ عَلَيْهِ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وَأَرْسَلَ اللهُ النَّوْمَ عَلَى الْكَافِرِينَ فَنَامُوا، وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمَامَهُمْ ثُمَّ أَخَذَ التُّرَابَ وَوَضَعَهُ فَوْقَ رؤُوسِهِمْ، وَهُوَ يَتلُو قَوْلَ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩].

ثُمَّ ذَهَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى دَارِ أَبِي بَكْرٍ الَّذِي جَهَّزَ نَفْسَهُ لِلْهِجْرَةِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَيَا لَسُخْرِيَةِ الأَقْدَارِ مِنْ زُعَمَاءِ قُرَيْشٍ! حِينَ قَامُوا مِنْ نَوْمِهِمْ فَهَاجُوا وَمَاجُوا لَمَّا رَأَوُا التُّرَابَ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ وَعَلِمُوا أَنَّ رَبَّ مُحَمَّدٍ قَدْ نَجَّاهُ مِنْ كَيْدِهِمْ، وَأَنَّ الطَّائِرَ الحَبِيسَ صَارَ الآنَ يُرَفْرِفُ فِي الْكَوْنِ الفَسِيحِ، فَرَأَوْا عَلِيّاً فَلَمْ يَمَسُّوهُ بِسُوءٍ، كَمَا بَشَّرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وَلَمَّا رَأَوُا الزِّمَامَ أَفْلَتَ مِنْ أَيْدِيهِمْ؛ ذَهَبُوا فِي رِحْلَةٍ لِلْبَحْثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، كَأَنَّهُمْ يَسْأَلُونَ كُلَّ حَبَّةِ رَمْلٍ فِي صَحْرَاءِ مَكَّةَ وَوُدْيَانِهَا وَجِبَالِهَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلا جَدْوَى وَلا فَائِدَةَ؛ فَالأَمْرُ مَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى.

* * *

كَانَ الصِّدِّيقُ أَبُو بَكْرٍ - رضي الله عنه - قَدْ أَعَدَّ عُدَّةَ السَّفَرِ وَالرَّحِيلِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَخَذَ مَالَهُ كُلَّهُ، فَلَمَّا سَأَلَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ.

وَمَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَعَ أَبِي بَكْرٍ - رضي الله عنه - بَعِيداً عَنْ مَكَّةَ حَتَّى وَصَلا إِلَى غَارٍ قَرِيبٍ مِنْ مَكَّة، هُوَ غَارُ «ثَوْرٍ».

وَفِي هَذِهِ اللَّحَظَاتِ سَبَقَ أَبُو بَكْرٍ رَسُولَ اللهِ، فَنَظَّفَ الْغَارَ وَمَسَحَهُ بِثَوْبِهِ، وَأَعَدَّهُ لاسْتِقْبَالِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ، وَسَدَّ كُلَّ الفَتَحَاتِ فِي الْغَارِ؛ خَوْفاً مِنَ الحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبِ حَتَّى نَامَ رَسُولُ اللهِ عَلَى قَدَمَيْهِ.

وَبَقِيَتْ فَتْحَةٌ سَدَّهَا الصِّدِّيقُ بِقَدَمِهِ؛ فَلَدَغَهُ ثُعْبَانٌ أَوْ عَقْرَبٌ، وَلَمْ يَشَأْ إِيقَاظَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى غَلَبَهُ الوَجَعُ؛ فَبَكَى وَتَدَحْرَجَتْ دَمْعَتُهُ عَلَى وَجْهِ رَسُولِ اللهِ؛ فَقَامَ دَاعِياً لَهُ بِالجَنَّةِ، وَبَصَقَ عَلَى قَدَمِهِ؛ فَشُفِيَتْ.

وَتَتَبَّعَ المُشْرِكُونَ آثَارَ أَقْدَامِ الرَّسُولِ ﷺ، وَأَبِي بَكْرٍ حَتَّى قَادَتْهُمْ هٰذِهِ الآثَارُ إِلَى غَارِ ثَوْرٍ حَيْثُ رَسُولُ اللهِ وَصَاحِبُهُ، وَنَظَرَ أَبُو بَكْرٍ فَرَأَى أَقْدَامَ الْمُشْرِكِينَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَرَآنَا.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟!»**

لَقَدْ كَانَتْ يَدُ الْعِنَايَةِ الإِلٰهِيَّةِ تَحْفَظُ رَسُولَ اللهِ وَصَاحِبَهُ، وَهٰذَا مَا كَانَ يَعْلَمُهُ رَسُولُ اللهِ جَيِّداً، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَيَعْلَمُ هٰذَا، وَلٰكِنَّهُ لا يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ بَلْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى لا يَقْتُلَهُ الْمُشْرِكُونَ. وَبَعْدَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ قَضَاهَا رَسُولُ اللهِ وَصَاحِبُهُ فِي غَارِ ثَوْرٍ انْطَلَقَا فِي

طَرِيقِ الْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَنَظَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى مَكَّةَ يُوَدِّعُهَا قَائِلًا: «**وَاللهِ إِنَّكِ لَأَحَبُّ بِلَادِ اللهِ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا خَرَجْتُ**».

وَبَدَأَ مَسِيرُ الْهِجْرَةِ، وَبَقِيَتْ آيَاتُ اللهِ تَعَالَى خَالِدَةً يَقُولُ فِيهَا: ﴿**إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة: ٤٠].

* * *

كَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ طِيْلَةَ فَتْرَةِ الْغَارِ مَعَ رَسُولِ اللهِ وَأَبِي بَكْرٍ، يَبِيتُ مَعَهُمَا، فَإِذَا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ خَرَجَ إِلَى مَكَّةَ كَأَنَّهُ كَانَ فِيهَا لَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا، وَوَرَاءَهُ كَانَ يَسِيرُ «عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ» رَاعِي أَغْنَامِ أَبِي بَكْرٍ؛ لِيَمْسَحَ آثَارَ قَدَمِهِ بِالْغَنَمِ الَّتِي تَتْرُكُ آثَارَ أَقْدَامِهَا الْكَثِيرَةِ فَلَا يَشُكُّ أَحَدٌ فِي أَمْرِهِ.

وَكَانَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ تَأْتِي لَهُمَا بِالطَّعَامِ، حَتَّى شَقَّت نِطَاقَهَا[١] وَجَعَلَتِ الطَّعَامَ فِي أَحَدِهِمَا وَرَبَطَتْ وَسْطَهَا بِالآخَرِ، فَسَمَّاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ»**.

وَاسْتَأْجَرَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا كَافِراً اسْمُهُ «عَبْدُ اللهِ بْنُ أُرَيْقِط» وَكَانَ مَاهِراً فِي حِفْظِ طُرُقِ الصَّحْرَاءِ وَشِعَابِهَا فَكَانَ دَلِيلًا لَهُمَا يُعَرِّفُهُما الطَّرِيقَ.

أَمَّا مَا رَكِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَكَانَتْ نَاقَةً اشْتَرَاهَا أَبُو بَكْرٍ لِرَسُولِ اللهِ، وَأَبَى[٢] رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَّا أَنْ يَدْفَعَ ثَمَنَهَا لِأَبِي بَكْرٍ.

وَهَكَذَا كَانَ الصِّدِّيقُ عَوْناً لِرَسُولِ اللهِ فِي رِحْلَتِهِ إِلَى الْهِجْرَةِ، ضَحَّى بِمَالِهِ، وَوَلَدِهِ، وَكُلِّ مَا يَمْلِكُهُ مِنْ أَجْلِ اللهِ وَرَسُولِهِ، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ يُحِبُّهُ وَيُقَدِّرُهُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَقُولُ:

يَا رَسُولَ اللهِ، إِنْ قَتَلُونِي فَأَنَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَإِنْ قَتَلُوكَ ضَاعَتِ الأُمَّةُ.

---

(١) حزام تربطه المرأة على وسطها.

(٢) رفض.

وَفِي مَكَّةَ كَانَ أَبُو جَهْلٍ قَدِ امْتَدَّتْ يَدُهُ الآثِمَةُ فَلَطَمَ أَسْمَاءَ – رضي الله عنها – عَلَى وَجْهِهَا؛ لِتَدُلَّهُ عَلَى مَكَانِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَبِيهَا، فَرَفَضَتْ.

وَأَعْلَنَتْ قُرَيْشٌ عَنْ جَائِزَةٍ مِقْدَارُهَا مِائَةُ نَاقَةٍ، وَهِيَ ثَرْوَةٌ كُبْرَى فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، لِمَنْ يَأْتِي بِرَسُولِ اللهِ وَأَبِي بَكْرٍ أَوْ يَدُلُّ عَلَيْهِمَا.

وَكَانَ الطَّامِعُونَ فِي هَذِهِ الْمُكَافَأَةِ كَثِيرٌ مِنْهُمْ «سُرَاقَةُ ابْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُم» الَّذِي طَوَى الطَّرِيقَ بِفَرَسِهِ حَتَّى لَحِقَ بِرَسُولِ اللهِ وَأَبِي بَكْرٍ فَلَمَا اقْتَرَبَ مِنْهُمَا، إِذَا بِيَدَيْ فَرَسِهِ يَغُوصَانِ فِي الأَرْضِ.

فَنَادَى رَسُولَ اللهِ فَأَعْطَاهُ الأَمَانَ، وَلَكِنْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا وَمَالُهَا، فَأَرَادَ الغَدْرَ وَالخِيَانَةَ، وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى فَعَلَ بِهِ كَمَا فَعَلَ فِي الْمَرَّةِ الأُولَى فَقَدْ غَاصَتْ قَدَمَا فَرَسِهِ فِي الرِّمَالِ.

وأَرَادَ الْغَدْرَ ثَالِثَةً فَعَاقَبَهُ اللهُ، فَعَادَ وَقَدْ أَسْلَمَ، وَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَنَّهُ سَيَأْخُذُ «سِوَارَيْ كِسْرَى».

وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ فِي عَهْدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ – رضي الله عنه – ، وَقَابَلَ رَسُولُ اللهِ رَجُلًا آخَرَ هُوَ «أَبُو بُرَيْدَةَ» وَكَانَ طَامِعاً فِي الْجَائِزَةِ وَلَكِنَّ اللهَ تَعَالَى هَدَاهُ،

فَأَسْلَمَ، وَنَزَعَ رَسُولُ اللهِ عِمَامَتَهُ وَجَعَلَهَا فِي رُمْحِهِ وَأَعْطَاهَا لَهُ رَايَةً؛ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الْعَدْلَ سَيَسُودُ؛ وَأَنَّ هَذَا الدِّينَ سَيَمْلَأُ الدُّنْيَا كُلَّهَا.

وَعَطِشَ رَسُولُ اللهِ وأَبُو بَكْرٍ، فَنَزَلا عَلَى امْرَأَةٍ تُسَمَّى «أُمَّ مَعْبَدِ الخُزَاعِيَّةَ» وَكَانَتْ تُقِيمُ فِي الطَّرِيقِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالمدينةِ، فَسَأَلَهَا رَسُولُ اللهِ شَرَاباً مِنْ مَاءٍ أَوْ لَبَنٍ وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهَا إِلَّا عَنْزَةٌ قَدْ جَفَّ ضَرْعُهَا، وَأَوْشَكَتْ عَلَى الْمَوْتِ.

فَمَسَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى هَذِهِ العَنْزَةِ حَتَّى عَادَتْ مَمْلُوءَةً بِاللَّبَنِ؛ فَشَرِبَ رَسُولُ اللهِ وَأَبُو بَكْرٍ، وَبَقِيَ إِنَاءُ اللَّبَنِ مَمْلُوءًا كَمَا حَلَبَ رَسُولُ اللهِ، وَتَعَجَّبَ الْجَمِيعُ، إِنَّهَا بَرَكَتُهُ الَّتِي صَحِبَتْهُ مُنْذُ أَنْ كَانَ رَضِيعاً فِي بَادِيَةِ بَنِي سَعْدٍ، لَكِنَّهَا هَذِهِ الْمَرَّةَ فِي خَيْمَةِ أُمِّ مَعْبَدٍ، وَسَتَعُمَّ الْبَرَكَةُ «يَثْرِبَ» عَمَّا قَرِيبٍ، فَلَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ.

* * *

وَفِي الْمَدِينَةِ كَادَ القَلَقُ يَفْتِكُ بِالمُهَاجِرِينَ مِنْ مَكَّةَ، وَالأَنْصَارِ مِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ، إِنَّهُمْ يَخْرُجُونَ كُلَّ لَيْلَةٍ وَيَوْم يَنْتَظِرُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَبا بَكْرٍ، ثُمَّ يَعُودُونَ مَرَّةً أُخْرَى.

وَلا زَالَتِ الأَوْهَامُ تُطَارِدُهُمْ، فَرُبَّمَا اسْتَطَاعَ المُشركونَ قَتْلَ رَسُولِ اللهِ أَوِ العُثُورَ عَلَيْهِ، وَمَا زَالَتْ أَلْسِنَتُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ تَدْعُو لِرَسُولِ اللهِ بِالنَّجاةِ، وَأَوْشَكَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَمُوتَ مِنَ فَرْطِ الانْتِظَارِ.

كُلُّ هَذَا وَرَسُولُ اللهِ فِي الطَّرِيقِ، وَكَانَ الزُّبَيْرُ بْنُ العَوَّام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي تِجارةٍ لَهُ، فَقَابَلَ رَسُولَ اللهِ وأَبَا بَكْرٍ فَكَسَاهُمَا ثَوْبَيْنِ أَبْيَضَيْنِ، وَفِي هَذِهِ اللَّحَظَاتِ اقْتَرَبَ رَكْبُ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الدُّخُولِ إِلَى المدينةِ، فَإِذَا بِيَهُودِيٍّ كَانَ عَلَى نَخْلَةٍ لَهُ؛ يَرَى رَسُولَ اللهِ ﷺ، حَتَّى عَرَفَهُ بِصِفَتِهِ وَعَلامَتِهِ، فَقَالَ:

يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ، هَذَا نَبِيُّكُمُ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ.

وَارْتَفَعَتْ صَيْحَاتُ التَّكْبِيرِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي ثَوْبِهِ الأَبْيَضِ وَنُورِهِ الَّذِي غَلَبَ نُورَ الشَّمْسِ؛ فَأَضَاءَتْ أَرْكَانُ المدينةِ كُلُّهَا، وَخَرَجَ الجَمِيعُ لِيَرَى النُّورَ المُبِينَ، فَإِذَا بِالْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ رَأَوْا رَسُولَ اللهِ بِقُلُوبِهِمْ مِنْ قَبْلُ يَرَوْنَهُ الآنَ بِعُيُونِهِمْ.

وَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُ الْجَوَارِي بِالْغِنَاءِ:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا ... مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاع

وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا ... مَا دَعَا للهِ دَاع

لَقَدَ آنَ الأَوَانُ لِيَسْتَرِيحَ رَسُولُ اللهِ مِنْ عَنَاءِ مَكَّةَ، وَيَنْشُرَ دَعْوَتَهُ فِي أَمَانٍ وَسَكِينَةٍ، فَصَارَتْ يَثْرِبُ المدينةُ الحَبِيبَةُ هِيَ «الْمَدينَةَ الْمُنَوَّرَةَ»، مَدِينَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَهَا هُوَ أَبُو بَكْرٍ - رضي الله عنه - يَضَعُ ثَوْبَهُ فَوْقَ رَسُولِ اللهِ يَحْمِيهِ بِنَفْسِهِ فِي رِحْلَةِ الْهِجْرَةِ، وَلَكِنَّهَا شَمْسٌ أُخْرَى لا يَخْشَاهَا رَسُولُ اللهِ إِنَّهَا شَمْسُ الإِيمانِ الَّتِي سَطَعَتْ فِي الْمَدِينَةِ، فَقَدْ طُوِيَتْ صَفْحَةُ مَكَّةَ بِآلامِهَا وَأَحْزَانِهَا، وَانْطَلَقَ الْمُسْلِمُونَ يَبْنُونَ دَوْلَتَهُمْ، وَيَرْفَعُونَ دِينَهُمْ.

الدروس المستفادة

(١) وحْدَةُ المسلمينَ أَساسُها الإِيمانُ بِاللهِ.

(٢) النَّصْرُ مَعَ الصَّبْرِ وَالجِهَادِ.

(٣) حِفْظُ اللهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ، كَمَا حَفِظَ نَبِيَّهُ فِي الْهِجْرَةِ.

(٤) مَحَبَّةُ رَسُولِ اللهِ أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ؛ لِكَيْ يَقْبَلَ اللهُ الإِيمانَ.



(أ) ضع علامة (✓) أمام الصحيح، وعلامة (×) أمام الخطأ من هذه العبارات:

(١) سُراقَةُ بنُ مالكٍ لم يدلَّ المشركين على رسول الله وكان هو دليله في الرحلة ( )

(٢) أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ هي ذات النطاقين ( )

(٣) آمن اليهود برسول الله وكانوا من أهل الجنة ( )

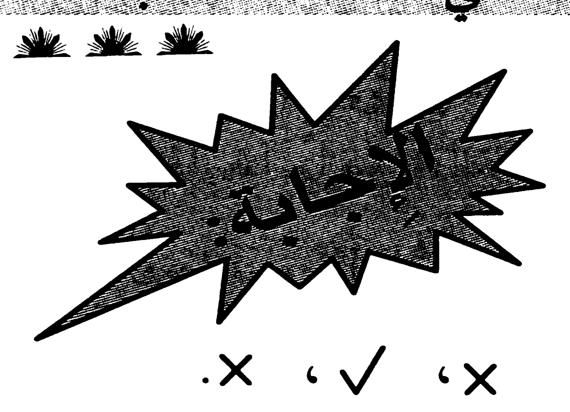
(ب) عبّر عما يأتي بلفظة واحدة:

(١) صفة طيبة كانت في رسول الله قبل الرسالة وبعدها، كان المشركون يعرفونها.

(٢) صفة جعلت أبا بكر يدفع ماله كله لله ورسوله ويجعل أولاده خدماً للإسلام.

(٣) شيء يُؤَيِّدُ الله به الأنبياء، كمسح رسول الله ﷺ على ضَرْعِ عَنْزَةِ أمِّ مَعْبَد.

(جـ) لو أردت أن تعبُر عن الهجرة بأسلوبك الشخصي . . فماذا تكتب؟



×، ✓، ×.

الأمانة، التضحية، المعجزة.

وَطنُ الإيمان والمؤمنين

لَمْ تَكُنِ المَدِينَةُ المُنَوَّرَةُ مَكاناً عَادِيًّا مِنَ الْأَرْضِ، وَلَمْ يَكُنْ أَهْلُهَا أُناساً كَبقيَّةِ النَّاسِ، وَلَكِنْ كَانَتِ المدينةُ بِحَقٍّ وَطَنَ الإِيمانِ، وَكَانَتْ قُلُوبُ أَهْلِهَا قُلوباً مُؤْمِنَةً.

فَكَانَتِ المدينةُ وطَنًا للإِيمانِ وَالمؤمنينَ، فَقَدْ صَارَ المُسْلِمُونَ قِسْمَيْنِ: المهاجرينَ الَّذِينَ تَرَكُوا دِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فَصَارُوا فُقَرَاءَ.

وَالْقِسْمُ الآخَرُ: الأَنْصَارُ أَهْلُ المدِينَةِ الَّذِينَ سَكَنُوهَا؛ فَآخَى رَسُولُ اللهِ بَيْنَ الأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ حَتَّى صَارُوا وَحْدَةً وَاحِدَةً، فَكَانَ الرَّجُلُ مِنَ الأَنْصَارِ يَقْسِمُ مَالَهُ وَدَارَهُ مَعَ المُهَاجِرِينَ؛ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ تَعَالَى، وَبِذَلِكَ ضَرَبَ الأَنْصَارُ الْمَثَلَ الأَعْلَى فِي العَطَاءِ للهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ.

أَمَّا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَإِنَّهُ أَوَّلَ مَا نَزَلَ نَزلَ بِقُبَاءَ وَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنَ المدينةِ فَصَلَّى الجُمُعَةَ بِالْمُسْلِمِينَ، فَكَانَتْ أَوَّلَ جُمُعَةٍ تُقَامُ فِي المدينةِ، ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى المدينةِ فَدَخَلَهَا، وَقَدْ رَكِبَ نَاقَتَهُ «القَصْوَاءَ» وَكَانَ كُلَّمَا مَرَّ

بِبَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الأَنْصَارِ أَمْسَكُوا بِزِمَامِ النَّاقَةِ وَقَالُوا:

- هَلُمَّ يَا رَسُولَ اللهِ إِلَى العُدَّةِ وَالعَدَدِ، وَالمَنَعَةِ وَالقُوَّةِ.

- وَرَسُولُ اللهِ يَقُولُ لَهُمْ: **«دَعُوهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ»**.

لَقَدْ كَانَتِ النَّاقَةُ تَسِيرُ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى، وَكَانَ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَالصَّحَابَةِ أَنْ يَنْتَظِرُوا حَتَّى تَقِفَ وَحْدَهَا، دُونَ أَمْرٍ مِنْ أَحَدٍ؛ فَهِيَ مَأْمُورَةٌ بِأَمْرِ اللهِ.

وَظَلَّتِ القَصْواءُ تَسِيرُ بِأَمْرِ رَبِّهَا حَتَّى وَقَفَتْ فِي أَرْضٍ مِنْ أَرَاضِي بَنِي النَّجَّارِ وَهُمْ أَخْوَالُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَمَامَ دَارِ خَالِدِ بْنِ زَيْدٍ الَّذِي عُرِفَ بَعْدَ ذَلِكَ بِاسْمِ «أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ»؛ فَفَرِحَتْ نِسَاءُ بَنِي النَّجَّارِ وَأَخْرَجْنَ الدُّفُوفَ يُغَنِّينَ:

نَحْنُ جَوارٍ مِنْ بَنِي النَّجَّار يَا حَبَّذَا مُحَمَّدٌ مِنْ جَار

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ لَهُنَّ: **«أَتُحِبُونَنِي؟»**، قُلْنَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ.

فَقَالَ: **«وَأَنَا وَاللهِ، يَعْلَمُ اللهُ أَنَّ قَلْبِي يُحِبُّكُمْ»**.

وَبَارَكَ اللهُ دَارَ أَبِي أَيُّوبَ الأَنْصَارِيِّ فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ضَيْفاً عَلَيْهِ، فَأَلَحَّ أَبُو أَيُّوبَ عَلَى رَسُولِ اللهِ أَنْ يَنَامَ فِي

الطَّابِقِ الأَعْلَى، فَرَفَضَ رَسُولُ اللهِ ذَلِكَ، حَتَّى حَدَثَ ذَاتَ لَيْلَةٍ أَنْ كُسِرَ إِنَاءٌ فِيهِ مَاءٌ لأَبِي أَيُّوبَ، فَخَشِيَ هُوَ وَزَوْجَتُهُ أَنْ يَنْزِلَ الماءُ عَلَى رَسُولِ اللهِ فَيُؤْذِيَهُ فَمَسَحَاهُ بِغِطَائِهِمَا الَّذِي يَلْتَحِفَانِ بِهِ، وَظَلَّا طِيلَةَ اللَّيْلِ الْبَارِدِ بِلَا غِطَاءٍ، عِنْدَئِذٍ قَبِلَ رَسُولُ اللهِ أَنْ يَنْتَقِلَ إِلَى الطَّابِقِ العُلْوِيِّ، فَبَارَكَهُ كَمَا بَارَكَ الطَّابِقَ الْأَوَّلَ.

وَازْدَادَتْ دَارُ أَبِي أَيُّوبَ إِيماناً بِنُزُولِ جِبْرِيلَ عليه السلام عَلَى رَسُولِ اللهِ فَطُوبَى لِأَبِي أَيُّوبَ وَأَهْلِهِ وَدَارِهِ، فَيَا لَهَا مِنْ دَارٍ هِيَ مَنْزِلُ النَّبِيِّ، وَمَهْبَطُ الْوَحْيِ، ومُجْتَمَعُ المؤمنينَ، وَهَا هِيَ جُدْرَانُهَا تَشْهَدُ لِرَسُولِ اللهِ بِالعَظَمَةِ وَكَأَنَّهَا فَرِحَتْ لِمَقْدَمِ رَسُولِ اللهِ إِلَيْهَا.

وَقَدْ كَانَ الصَّحَابَةُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ يَبْعَثُونَ لِرَسُولِ اللهِ بِطَعَامِهِ مُدَّةَ سَبْعَةِ أَشْهُرٍ كَامِلَةٍ حَتَّى تَمَّ بِنَاءُ الْمَسْجِدِ، وَتَمَّ بِنَاءُ دَارِ النَّبِيِّ عليه السلام.

***

لَمَّا وَقَفَتِ القَصْوَاءُ فِي دِيَارِ بَنِي النَّجَّارِ، عَلِمَ رَسُولُ اللهِ أَنَّ هَذِهِ الدَّارَ مَمْلُوكَةٌ لِيَتِيمَيْنِ مِنْ أَيْتَامِ المدينةِ، فَاشْتَرَاهَا رَسُولُ اللهِ مِنْ مَالِ أَبِي بَكْرٍ

ثُمَّ رَدَّ إِلَيْهِ هَذَا المالَ بَعْدَ ذَلِكَ.

ثُمَّ بَدَأَ رَسُولُ اللهِ فِي بِنَاءِ الْمَسْجِدِ حَتَّى يَكُونَ مُجْتَمَعاً وَمُلْتَقًى لِصَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ونَظَّفَ المسلمونَ هَذِهِ الأَرْضَ.

فَكَانَتْ هُنَاكَ مَقَابِرُ لِبَعْضِ الْمُشْرِكِينَ فَأَزَالُوهَا، كَمَا كَانَتْ هُنَاكَ بَعْضُ الخِرَبِ الْقَدِيمَةِ فَنَظَّفُوهَا، وَكَذَلِكَ قَطَعُوا النَّخْلَ وَجَعَلُوهُ تِجَاهَ الْقِبْلَةِ.

ثُمَّ بَدَأَ الْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ فِي بِنَاءِ الْمَسْجِدِ، وَهُمْ يَحْمِلُونَ الحِجَارَةَ وَيُنْشِدُونَ وَمَعَهُمْ رَسُولُ اللهِ.

اللَّهُمَّ إِنَّهُ لا خَيرَ إِلَّا خَيرُ الآخِرَةْ فَانْصُرِ الأَنْصَارَ والمُهَاجِرَةْ

وَصَارَ لِلْمُسْلِمِينَ مَسْجِدَانِ، مَسْجِدُ قُبَاءَ وَهُوَ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ، وَمَسْجِدُ رَسُولِ اللهِ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ عَنْهُ رَسُولُ اللهِ:

«الصَّلاةُ فِي مَسْجِدِي هَذَا خَيرٌ مِنْ أَلْفِ صَلاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الحَرَامَ».

لَقَدْ صَارَ مَسْجِدُ رَسُولِ اللهِ ثَانِيَ الحَرَمَيْنِ بَعْدَ الْكَعْبَةِ، وَصَارَ مَكَانَ اللِّقَاءِ بَيْنَ الصَّحَابَةِ وَرَسُولِ اللهِ، يَسْتَفْتُونَهُ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَفِيهِ يُعْقَدُ الزَّوَاجُ،

وَمِنْهُ تَخرُجُ الجُيُوشُ لِمُحارَبَةِ أَهْلِ الكُفْرِ وَنَشْرِ الإِسْلامِ، وَفِيهِ تُقَامُ الصَّلاةُ وَيَرْفَعُ بِلَالٌ صَوْتَهُ بِالأَذانِ صَادِعاً بِهِ، فَسُبْحَانَ مَنْ أَمَّنَ الخَائِفِينَ فِي مَكَّةَ، وَجَمَعَهُمْ فِي الْمَدِينَةِ عَلَى رَايَةِ التَّوْحِيدِ، وَإِمَامُهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وَلَمَّا بَنَى رَسُولُ اللهِ الْمَسْجِدَ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْبَرٌ[١] يَخْطُبُ عَلَيْهِ، فَكَانَ يَخْطُبُ عَلَى جِذْعِ نَخْلَةٍ، فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ وَكَانَ لَهَا وَلَدٌ نَجَّارٌ، فَاسْتَأْذَنَتْ رَسُولَ اللهِ فِي صُنْعِ مِنْبَرٍ يَخْطُبُ عَلَيْهِ ﷺ، فَصَنَعَ الغُلامُ المِنْبَرَ.

وَجَاءَ رَسُولُ اللهِ لِيَصْعَدَ عَلَيْهِ؛ فَسَمِعَ أَهْلُ الْمَسْجِدِ جَمِيعاً صَوْتاً لِجِذْعِ النَّخْلَةِ، كَأَنَّهُ صَوْتُ النَّاقَةِ الَّتِي تَلِدُ؛ فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ وَاحْتَضَنَ هَذَا الجِذْعَ؛ فَسَكَتَ كَمَا يَسْكُتُ الْمَوْلُودُ حِينَ تَحْنُو عَلَيْهِ أُمُّهُ.

وَكُلُّ مَا حَدَثَ حَقّاً أَنَّ الجِذْعَ حَنَّ لِرَسُولِ اللهِ وَاشْتَاقَ، وَحَزِنَ لِأَنَّهُ فَارَقَهُ، أَفَلا نَحِنُّ نَحْنُ وَنَشْتَاقُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ؟!

---

(١) هو المكان الذي يقف عليه الخطيب، ليخطب الناس.

وَإِذَا كَانَ رَسُولُ اللهِ قَدْ بَنَى الْمَسْجِدَ، وَآخَى بَيْنَ المُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَمِنْ قَبْلُ وَحَّدَ بَيْنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ وَأَزَالَ العَدَاوَةَ بَيْنَهُمَا، وَأَطْفَأَ نَارَ الحَرْبِ الَّتِي كَانَتْ مُشْتَعِلَةً فِيمَا بَيْنَهُمَا.

فَقَدْ بَقِيَ جَانِبٌ مُهِمٌّ لَا بُدَّ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الحَذَرِ مِنْهُ، أَلَا وَهُمْ أُولَئِكَ السُّكَّانُ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْمَدِينَةِ مِنَ الْيَهُودِ، وَهُمْ عَلَى التَّرْتِيبِ: بَنُو قَيْنُقَاعَ، وَبَنُو النَّضِيرِ، وَبَنُو قُرَيْظَةَ، وَيَهُودُ خَيْبَرَ، وَقَدْ كَانُوا عَلَى عِلْمٍ بِصِدْقِ رَسُولِ اللهِ وَلَكِنَّهُمْ أَصَرُّوا عَلَى يَهُودِيَّتِهِمْ.

حَتَّى أَنَّ رَجُلًا مِنْهُمْ وَاسْمُهُ «عَبْدُ اللهِ بْنُ صُورِيَا» سَأَلَهُ رَسُولُ اللهِ وَاسْتَحْلَفَهُ بِاللهِ هَلْ يَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ حَقّاً؟ قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: «**فَمَا الَّذِي يَجْعَلُكَ لَا تُؤْمِنُ بِي؟**»، قَالَ: أَكْرَهُ خِلَافَ قَوْمِي.

وَانْبَعَثَ مِنْ بَيْنِ الْيَهُودِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ مِثْلُ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ الَّذِي كَانَ عَالِماً مِنْ عُلَمَاءِ يَهُودَ وَأَحْبَارِهِمْ(١)، وَكَانَ مُؤْمِناً بِالتَّوْرَاةِ الَّتِي لَمْ تُحَرَّفْ وَلَمْ تُبَدَّلْ.

---

(١) **الحَبْر**: هو العالم الكبير، وهو لقب اشتُهر به علماء اليهود

فَذَهَبَ إِلَى رَسُولِ اللهِ وَهُوَ يَنْظُرُ فِيهِ، فَلَمَّا رَأَى فِيهِ صِفَاتِ النُّبُوَّةِ وَعَلامَاتِهَا أَسْلَمَ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ.

وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لَقَدْ عَلِمَتِ اليَهُودُ أَنَّنِي سَيِّدُهُمْ وَابْنُ سَيِّدِهِمْ، فَسَلْهُمْ عَنِّي أَوَّلًا قَبْلَ أَنْ تُخْبِرَهُمْ بِإِسْلامِي؛ حَتَّى لا يَقُولُوا عَلَيَّ مَا لَيْسَ فِيَّ.

فَدَعَا رَسُولُ اللهِ الْيَهُودَ وَقَالَ: «**مَا تَقُولُونَ فِي عَبْدِ اللهِ بْنِ سلامٍ**»؟

فَقَالُوا وَلَمْ يَكُنْ خَبَرُ إِسْلامِهِ قَدْ عُرِفَ بَعْدُ: سَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا، وَخَيْرُ رَجُلٍ فِينَا.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: «**لَقَدْ أَسْلَمَ**».

فَقَالُوا: إِنَّا لَا نَعْرِفُ عَنْهُ شَيْئاً، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: «**اخْرُجْ يا ابْنَ سَلامٍ**».

فَخَرَجَ وقالَ: اتَّقُوا اللهَ يا مَعْشَرَ يَهُودَ فَإِنَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ.

فَقَالُوا: كَذَبْتَ.

وأَرَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَأْمَنَ جَانِبَهُمْ، فَعَقَدَ مَعَهُمْ صُلْحاً وَمُعَاهَدَةً، وَجَعَلَ مِنْ شُرُوطِهَا:

أَنْ يَنْصُرُوا مَنْ نَصَرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنْ يُعَادُوا مَنْ عَادَاهُ رَسُولُ اللهِ، وأَنَّهُمْ يَدٌ وَاحِدَةٌ مَعَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى كُلِّ عَدُوٍّ يُرِيدُ الْمدِينَةَ بِسُوءٍ، وَظَنَّ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ الْيَهُودَ سَيُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ، لٰكِنَّ الْغَدْرَ فِي دِمَاءِ الْيَهُودِ؛ فَنَقَضُوا الْعَهْدَ مَعَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُسْلِمِينَ.

وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ كَانَ فَرِيقٌ ثَالِثٌ اخْتَارَ أَنْ يَكُونَ مُنَافِقاً، أَيْ يُظْهِرُ الإِيمَانَ وَيُخْفِي الكُفْرَ وَكَانَ كَبِيرُهُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ، فَسَمَّاهُ الْمُسْلِمُونَ «رَأْسَ النِّفَاقِ».

وَهٰكَذَا تَشَكَّلَتْ حَيَاةُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمَدِينَةِ، حَرْبٌ مِنَ الْيَهُودِ وَالْمُنَافِقِينَ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ، وَرَسُولُ اللهِ وَصَحَابَتُهُ فِي مَسْجِدِهِمْ يُمَارِسُونَ عِبَادَتَهُمْ وَطَاعَتَهُمْ للهِ، وَفِي نَفْسِ الْوَقْتِ لَمْ يَنْسَ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَكُونُوا عَلَى حَذَرٍ مِنْ أَعْدَائِهِمْ.

***

أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ ﷺ قُرآناً فِيهِ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

فَفُرِضَ القِتَالُ عَلَى المسْلِمِينَ، فَقَدْ صَارَتِ الْحَرْبُ

ضَرُورَةً؛ لِأَنَّ الأَعْرَابَ مِنَ الكُفَّارِ حَوْلَ الْمدِينَةِ كَانُوا يُغِيرُونَ عَلَى الْمدِينَةِ أَيْ يُهَاجِمُونَــهَا.

فَبَدَأَتِ الْحَرْبُ الدِّفَاعِيَّةُ ضِدَّ كُلِّ عَدُوٍّ يُرِيدُ الهُجُومَ عَلَى المدينَةِ، كَمَا كَانَتْ هُنَاكَ بَعْضُ القَوافِلِ التِّجَارِيَّةِ لِقُرَيْشٍ تَمُرُّ على المدينةِ فِي طَرِيقِ ذَهَابِهَا وَعَوْدَتِهَا إِلَى الشَّامِ وَمِنْهُ.

وَالْمَعْرَكَةُ الَّتِي كَانَ يَشْتَرِكُ فِيهَا رَسُولُ اللهِ سُمِّيَتْ بـ«الغَزْوَةِ» أَمَّا الَّتِي جَرَتْ فِي حَيَاتِهِ وَلَمْ يَشْتَرِكْ فِيهَا، وَأَرْسَلَ أَحَدَ قُوّادِهِ فَكَانَتْ تُسَمَّى «السَّرِيَّةَ».

وَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ السَّرَايَا لِمُهَاجَمَةِ قَوَافِلِ قُرَيْشٍ فَفِي العَامِ الأَوَّلِ الهِجْرِيِّ خَرَجَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ المطَّلِبِ لمُهَاجَمَةِ أَبِي جَهْلٍ فِي قَافِلَةٍ لِقُرَيْشٍ وَلَكِنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَاسْمُهُ مَجْدِي بْنُ عَمْرٍو حَجَزَ بَيْنَهُمَا فَلَمْ يَجْرِ قِتَالٌ بينهما.

ثُمَّ تَوَالَتِ السَّرَايَا، وَمِنْهَا سَرِيَّةُ عُبَيْدَةَ بْنِ الحَارِثِ ابْنِ عَبْدِ المطَّلِبِ، وَسَرِيَّةُ عَبْدِ اللهِ بْنِ جَحْشٍ وَغَيْرُهُمَا مِنَ السَّرَايَا.

وَانْتَهَى العَامُ الأَوَّلُ لِلْهِجْرَةِ بِبَعْضِ الأَحْدَاثِ

السَّعِيدَةِ، فَقَدْ وَضَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ أَوَّلَ مَوْلُودٍ فِي المَدِينَةِ بَعْدَ الهِجْرَةِ وَهُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ – رضي الله عنهما – .

وَشُرِّعَ الأَذَانُ بَعْدَ أَنِ احْتَارَ المسلمونَ كَيْفَ يَدْعُونَ وَيُنَادُونَ لِلصَّلاةِ، فَأَرْشَدَهُمُ اللهُ تَعَالَى إِلَى الأَذَانِ. وَكَذَلِكَ هَاجَرَتْ بَنَاتُ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ.

وَفِي بِدَايَةِ العام الثَّانِي لِلْهِجْرَةِ فَرَضَ اللهُ تَعَالَى الزَّكَاةَ، وَالصِّيَامَ عَلَى المسلمينَ، وَكَذَلِكَ تَغَيَّرَتِ القِبْلَةُ وَتَحَوَّلَتْ إِلَى الْكَعْبَةِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ تِجَاهَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ.

وَحَاوَلَ الْيَهُودُ أَنْ يُوقِعُوا الفِتْنَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَكِنَّ اللهَ ثَبَّتَ أَهْلَ الإِيمانِ عَلَى الْحَقِّ فَأَطَاعُوا رَبَّهُمْ عَزَّ وَجَلَّ، وَحَوَّلُوا وَجْهَهُمْ نَاحِيَةَ الْكَعْبَةِ.

***

يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ خَطَأً أَنَّ غَزْوَةَ بَدْرٍ هِيَ أُولَى غَزَوَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَهُوَ خَطَأٌ شَائِعٌ بَيْنَ المسلمينَ، فَلَقَدْ كَانَتْ أُولَى غَزَوَاتِ رَسُولِ اللهِ غَزْوَةَ «ودَّانَ» أَوِ «الأَبْوَاءِ» ثُمَّ كَانَتْ بَقِيَّةُ الغَزَوَاتِ وَعَدَدُهَا تِسْعَ عَشَرَةَ غَزْوَةٍ.

وَكَانَتْ هَذِهِ الغَزْوَةُ فِي نِهَايَةِ شَهْرِ صَفَرَ وَبِدَايَةِ شَهْرِ رَبيعِ الأَوَّلِ، ثُمَّ كَانَتْ غَزْوَةُ «بُوَاطَ» فِي شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ، ثُمَّ غَزْوَةُ العشيرةِ.

وَكَانَتْ غَزْوَةٌ تُسَمَّى «بَدْراً الأُولَى» وَسَبَبُهَا أَنَّ رَجُلًا مِنَ الأَعْرَابِ حَوْلَ الْمَدِينَةِ اسْمُهُ «كُرْزُ بْنُ جابِرٍ الفِهْرِيُّ» هَاجَمَ المدينةَ وَسَرَقَ بَعْضَ الأَغْنَامِ مِنْهَا، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ وَمَعَهُ بَعضُ الصَّحَابَةِ لِلِّحَاقِ بِهِ، لَكِنَّهُ أَسْرَعَ فَلَمْ يُدْرِكْهُ ﷺ.

وَكَانَتِ الْمُفَاجَأَةُ حِينَ أَسْلَمَ هَذَا الرَّجُلُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَصَار جُنْدِيّاً مِنْ جُنُودِ الْمُسْلِمِينَ.

وَحَدَثَ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ وَهُوَ الزَّعِيمُ التِّجَارِيُّ لِمَكَّةَ، وَأَمْهَرُ تُجَّارِهَا، جَمَعَ مَالًا وَجَهَّزَ قَافِلَةً عَظِيمَةً بِمالِ قُرَيْشٍ كُلِّهَا، وَعَلِمَ رَسُولُ اللهِ بِهٰذَا، فَجَهَّزَ جَيْشاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ لاعْتِرَاضِ هَذِهِ العِيرِ التِّجَارِيَّةِ لَكِنَّ أَبَا سُفْيَانَ اسْتَطَاعَ الإِفْلاتَ بِهَذِهِ القَافِلَةِ فَعَزَمَ رَسُولُ اللهِ عَلَى انْتِظَارِ هَذِهِ الْقَافِلَةِ حِينَ عَوْدَتِهَا، لِتَحْدُثَ وَاقِعَةٌ كُبْرَى فِي تارِيخِ الإِسْلامِ، كانَتْ خَطّاً فاصِلًا، حَوَّلَتْ وَغَيَّرَتِ التَّارِيخَ كَثِيراً.

***

الدروس المستفادة

(١) أَهَمِّيَّةُ الْمَسْجِدِ في حَيَاةِ المسلمينَ.

(٢) المؤمنونَ إِخْوَةٌ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ.

(٣) غَزْوَةُ الأَبْوَاءِ هِيَ أُولَى غَزَوَاتِ الإِسْلامِ.



أكمل ما يأتي:

(١) كانت أولى غزوات الإسلام هي غزوة الأبواء أو . . . .

(٢) سُميت المعركة التي اشترك فيها رسول الله ﷺ . . . .، بينما سُمِّيت المعركة التي لم يشترك فيها . . . .

(٣) نزل رسول الله ضيفاً على ....، حتى بنى ....

ما أهميةُ المسجد في حياة المسلمين؟

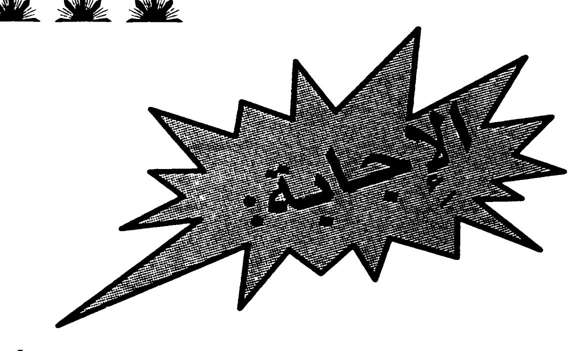
*** كانت أسس بناء المجتمع المسلم هي:**

(١)

(٢)

(٣)

***



ودان، غزوة، سرية، أبي أيوب الأنصاري، المسجد.

المؤاخاة بين المسلمين من المهاجرين والأنصار.

بناء المسجد.

معاهدة اليهود.

***

انتصارُ الإيمان

فِي طَرِيقِ عَوْدَةِ أَبِي سُفْيَانَ إِلَى مَكَّةَ عَلِمَ بِنَبَإِ تَجْهِيزِ رَسُولِ اللهِ ﷺ جَيْشاً لِمُهَاجَمَةِ قَافِلَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ رَجُلًا عَادِيّاً فَإِنَّهُ صَاحِبُ مَهَارَةٍ تِجَارِيَّةٍ كَبِيرَةٍ.

كَمَا أَنَّهُ مِنْ أَذْكِيَاءِ الْعَرَبِ وَدُهَاتِهِمْ حَتَّى سُمِّي «دَاهِيَةَ الْعَرَبِ وَقُرَيْشٍ»، كَمَا أَنَّ خُبْرَتَهُ بِالطُّرُقِ التِّجَارِيَّةِ كَانَتْ عَظِيمَةً.

وَلِذَلِكَ فَإِنَّهُ حِينَمَا سَمِعَ بِنَبَإِ اسْتِعْدَادَاتِ جَيْشِ رَسُولِ اللهِ لِمُهَاجَمَتِهِ؛ قَرَّرَ تَغْيِيرَ الطَّرِيقِ الَّذِي سَيَسْلُكُهُ إِلَى طَرِيقٍ آخَرَ؛ حَتَّى يَنْجُوَ مِنْ مُوَاجَهَةِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ.

ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى مَكَّةَ رَجُلًا اسْمُهُ «ضَمْضَمُ بْنُ عَمْرٍو الغِفَارِيُّ»؛ لِكَيْ يُخْبِرَهُمْ بِمَا عَقَدَ الْمُسْلِمُونَ العَزْمَ عَلَيْهِ مِنْ مُهَاجَمَتِهِ؛ وَحَتَّى لا يَتَحَمَّلَ مَسْؤولِيَّةَ الْهَزِيمَةِ وَحْدَهُ.

فَلَمَّا وَصَلَ هَذَا الرَّجُلُ إِلَى مَكَّةَ قَطَعَ أُذُنَهُ، وَصَرَخَ

كَمَا تَصْرُخُ النِّسَاءُ، وَلَطَمَ خَدَّيْهِ، حَتَّى اجْتَمَعَ النَّاسُ حَوْلَهُ وَعَرَفُوا الخَبَرَ، فَخَرَجَتْ مَكَّةُ كُلُّهَا تُرِيدُ حَرْبَ المسلمينَ وَهَزِيمَةَ رَسُولِ اللهِ.

وَلَمْ يَبْقَ فِي مَكَّةَ إِلَّا أَبُو لَهَبٍ - عَمُّ رَسُولِ اللهِ - الَّذِي ظَلَّ كَافِراً وَعَدُوّاً لِلْمُسْلِمِينَ، فَأَرْسَلَ رَجُلًا بَدَلًا مِنْهُ، وَبَلَغَ عَدَدُ المُشْرِكِينَ أَلْفَ رَجُلٍ، وَمَعَهُمْ مِائَتَا فَرَسٍ يَقُودُونَهَا، كَمَا اتَّخَذُوا سُيُوفاً وَسِهاماً كَثِيرَةً، وَخَرَجُوا يَمْلَؤُهُمُ الزَّهْوُ وَالفَخْرُ، وَلا شَكَّ عِنْدَهُمْ أَنَّ النَّصْرَ سَيَكُونُ حَلِيفَهُمْ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ.

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ نَادَى فِي المسلمينَ؛ لِكَيْ يَجْتَمِعُوا لِمُقَابَلَةِ هَذِهِ القَافِلَةِ حَتَّى يُعَوِّضَهُمُ اللهُ بِهَا شَيْئاً مِمَّا تَرَكُوهُ فِي مَكَّةَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، فَخَرَجَ ثَلاثُمِائَةٍ وأَرْبَعَة عَشَرَ رَجُلًا مِنَ المُسْلِمِينَ مَعَهُمْ فَرَسَانِ فَقَطْ فَرَسٌ يَرْكَبُهُ الزُّبَيْرُ، وَفَرَسٌ رَكِبَهُ الْمِقْدَادُ بْنُ الأَسْوَدِ.

وَكَانَ المُسْلِمُونَ يَتَنَاوَبُونَ[١] الرُّكُوبَ عَلَى الجِمَالِ، الرَّجُلانِ وَالثَّلاثَةُ عَلَى البَعِيرِ الْوَاحِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ قَدْ رَكِبَ عَلَى بَعِيرٍ، ثُمَّ نَزَلَ لِيَرْكَبَ أَبُو لُبَابَةَ وَهُوَ أَحَدُ

---

(١) أي يتبادلون.

صَحَابَتِهِ، وَمَعَهُ رَجُلٌ آخَرُ، فَأَرَادَا أَنْ يَجْعَلَا رَسُولَ اللهِ يَرْكَبُ وَيَمْشِيَان هُمَا.

وَهُنَا تَتَجَلَّى الْقِيَادَةُ الحَكِيمَةُ، وَالمُسَاوَاةُ بَيْنَ القَائِدِ وَجُنُودِهِ فَقَالَ عليه السلام: **«مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي وَلَا أَنَا بِأَغْنَى عَنِ الأَجْرِ مِنْكُمَا»**.

وَمَشَى رَسُولُ اللهِ وَقَدْ رَأَى صَحَابَتَهُ حُفَاةً عُرَاةً جِياعاً، فَقَالَ: **«اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ عُرَاةٌ فَاكْسُهُمْ، جَوْعَى فَأَطْعِمْهُمْ، فُقَرَاءُ فَأَغْنِهِمْ»**.

وَلَمْ تَكُنْ سُيوفُ المُسْلِمِينَ وَرِمَاحُهُمْ وَبَقِيَّةُ الأَسْلِحَةِ بِأَفْضَلَ حَالًا مِنْ بَاقِي عُدَّتِهِمْ، فَقَدْ رَبَطُوا السُّيُوفَ بِالخِرَقِ وَالحِبَالِ، وَلَكِنْ كَانَ هُنَاكَ سِلاحٌ لا يَعْرِفُهُ إِلَّا المؤمنونَ، إِنَّهُ سِلاحُ الإِيمانِ، وَالثِّقَةِ بِاللهِ، وَاليَقِينِ بِنَصْرِهِ تَعَالَى.

فَخَرَجَ جَيْشُ الإِيمانِ، ورَكِبَتْ خُيُولُ النَّصْرِ، بَعْدَ أَنْ نَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللهِ: حَيَّ عَلَى الجِهَادِ.

وَوَصَلَ رَسُولُ اللهِ إِلَى مَكَانٍ بَيْنَ مَكَّةَ والمدينةِ، وَهُوَ بِئْرُ «بَدْرٍ» الَّتِي سُمِّيَتِ الْمَعْرَكَةُ بِاسْمِهَا، وَعَلِمَ رَسُولُ اللهِ بِأَنَّ أَبا سُفْيَانَ قَدْ فَرَّ بِقَافِلَتِهِ، وَأَوْشَكَ رَسُولُ

اللهِ عَلَى العَوْدَةِ إِلَى المَدِينَةِ، وَيَتَدَخَّلُ الْقَدَرُ لِيَجْعَلَ مِنْ بَدْرٍ مَعْرَكَةً كُبْرَى فِي تارِيخِ الإِسْلامِ.

***

فَلَمَّا وَصَلَ جَيْشُ المُشْرِكِينَ قَرِيباً مِنْ بَدْرٍ، وَعَلِمُوا بِنَجاةِ قَافِلَةِ أَبِي سُفْيَانَ قَرَّرُوا العَوْدَةَ إِلَى مَكَّةَ، وَلَكِنْ خَرَجَ مِنْ بَيْنِ القَوْمِ أَشَدُّهُمْ كَرَاهِيَةً لِلْمُسْلِمِينَ وَهُوَ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ:

وَاللهِ لا نَرْجِعُ حَتَّى نَرِدَ بَدْراً - وَكَانَتْ بَدْرٌ سُوقاً مِنْ أَسْوَاقِ العَرَبِ - فَنُقِيمَ عَلَيْهِ ثَلاثاً[١]، فَنَنْحَرَ الجُزُرَ[٢]، وَنُطْعِمَ الطَّعَامَ، وَنُسْقَى الخَمْرَ، وَتَعْزِفَ عَلَيْنَا الْقِيَانَ[٣]، وتَسْمَعَ بِنَا الْعَرَبُ فَلا يَزَالُونَ يَخَافُونَنَا أَبَداً.

وَصَمَّمَ «فِرْعَوْنُ الأُمَّةِ» عَلَى حَرْبِ المسلمينَ، فَوَافَقَ الْعَرَبُ إِلَّا قَبِيلَةَ بَنِي زُهْرَةَ الَّذِينَ كانُوا أَخْوَالَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَمْ يُحَارِبُوا رَسُولَ اللهِ.

---

(١) أي ثلاثة أيام.

(٢) نذبح الإبل.

(٣) الجواري المغنيات.

وَتَمَثَّلَ الشَّيْطَانُ عَلَى هَيْئَةِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكٍ فَقَالَ لِلْمُشْرِكِينَ: إِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَحَارِبُوا؛ فَاغْتَرُّوا بِهِ، وَلَكِنْ حِينَمَا بَدَأَتِ الْمَعْرَكَةُ وَلَّى الشَّيْطَانُ هَارِباً لَمَّا رَأَى الملائِكَةَ تَنْصُرُ المسلمينَ.

وَنَزَلَ جَيْشُ المشركينَ قُرْبَ بِئْرِ بَدْرٍ فِي مَكانٍ هُوَ «العُدْوة القُصْوَى»، أَيِ المَكَانُ الأَعْلَى، وَتأَكَّدَتِ الأَخْبَارُ لَدَى رَسُولِ اللهِ مِنْ أَنَّ المُشْرِكِينَ قَدِ اسْتَعَدُّوا لِلْحَرْبِ؛ فَلَمْ يَعُدْ إِلَى المَدِينَةِ.

وَبَدَأَ فِي تَجْهِيزِ نَفْسِهِ وَأَصْحَابِهِ لِلْحَرْبِ، فَبَعَثَ بَعْضَ المسلمينَ يَسْتَطْلِعُونَ خَبَرَ الْمُشْرِكِينَ وَيَعْرِفُونَ عَدَدَهُمْ، ثُمَّ خَرَجَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ فَقَابَلَ شَيْخاً كانَ قَدْ مَرَّ عَلَى جَيْشِ المشركينَ؛ فَقَالَ لَهُ:

- **«هَلْ رَأَيْتَ خيلَ قُرَيْشٍ»؟**

فَقَالَ الرَّجُلُ: مَنْ أَنتُمَا؟ وَمِنْ أَيْنَ جِئْتُمَا؟

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: **«أَخْبِرْنَا أَوَّلًا، ثُمَّ نُخْبِرُكَ نَحْنُ»**.

فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنَّ عَدَدَهُمْ بَيْنَ التِّسْعِمِائَةِ وَالأَلْفِ؛ فَقَدْ ذَبَحُوا عَشَرَةً مِنَ الإِبِلِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ.

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ يَعْلَمُ أَنَّ الجَمَلَ الوَاحِدَ يَكْفِي عَشَرَةَ رِجالٍ.

فَقَالَ الرَّجُلُ: مِنْ أَيْنَ أَنْتُمَا؟

لَمْ يَشَأْ رَسُولُ اللهِ أَنْ يُعَرِّفَ الرَّجُلَ؛ فَقَالَ لَهُ دُونَ أَنْ يَكْذِبَ عَلَيْهِ: «**نَحْنُ مِنْ مَاء!**»

وَتَرَكَهُ النَّبِيُّ وَأَبُو بَكْرٍ، فَرَاحَ الرَّجُلُ يَتَسَاءَلُ: مِنْ مَاءِ العِرَاقِ؟ أَمْ مِنْ مَاءِ الشَّامِ؟ أَمْ مِنْ أَيِّ مَاءٍ؟!

وَهَكَذَا يَتَّضِحُ ذَكَاءُ النَّبِيِّ ﷺ وَخُبْرَتُهُ.

وَحِينَمَا عَرَفَ النَّبِيُّ بِهَذَا الْخَبَرِ وَأَنَّ عَدَدَ المشركينَ ثَلاثَةُ أَضْعَافِ عَدَدِ المسلمينَ أَرَادَ أَنْ يَخْتَبِرَ اسْتِعْدَاد جُنُودِهِ لِلْقِتَالِ؛ فَقَالَ: «**أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا الْقَوْمُ**».

فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فَتَكَلَّمَ وَأَحْسَنَ، وَكَذَا قَالَ عُمَرُ.

ثُمَّ قَامَ المِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، امْضِ لِمَا أَمَرَكَ اللهُ بِهِ، فَوَاللهِ لَوْ خُضْتَ هَذَا الْبَحْرَ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ.

وَأَعَادَ رَسُولُ اللهِ الْكلامَ، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ سَيِّدُ الأَنْصَارِ، وَكَانَ يَعْرِفُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ يُرِيدُ أَنْ يَتَأَكَّدَ مِنْ

أَنَّهُمْ سَيُوَفُّونَ بِعَهْدِهِمْ مَعَهُ فِي العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ فَقَالَ: كَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللهِ، لَقَدْ آمَنَّا بِكَ، وَصَدَّقْنَاكَ، وَعَاهَدْنَاكَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَامْضِ لِمَا أَمَرَكَ اللهُ بِهِ، فَلَا وَاللهِ لا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لموسَى اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ، وَلَكِنِ اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ.

تَأَكَّدَ رَسُولُ اللهِ مِنْ أَنَّ الْجَمِيعَ الآنَ مَعَهُ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ، فَبَشَّرَهُ رَبُّهُ بِالنَّصْرِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: «**امْضُوا، وَسِيرُوا، وَأَبْشِرُوا، فَقَدْ وَعَدَنِي اللهُ النَّصْرَ، فَلَكَأَنِّي أَنْظُرُ الآنَ إِلَى مَصَارِعِ**(١) **الْقَوْمِ**».

ثُمَّ قَالَ لِصَحَابَتِهِ: «**هُنَا مَقْتَلُ أَبِي جَهْلٍ، وَهُنَا مَقْتَلُ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَهُنَا مَقْتَلُ عُتْبَةَ وَشَيْبَةَ ابْنَيْ رَبِيعَةَ**»، فَفَرِحَ المسْلِمُونَ لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ صِدْقَ نَبِيِّهِمْ.

***

جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى مَيْمَنَةِ الْجَيْشِ الزُّبَيْرَ بْنَ العَوَّامِ، وَعَلَى الْمَيْسَرَةِ المِقْدَادَ بْنَ الأَسْوَدِ، وَأَعْطَى لِوَاءَهُ إِلَى مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ، وَكَانَتْ رَايَةُ الْمُهَاجِرِينَ مَعَ

---

(١) يعني مكان موتهم.

عَليِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رضي الله عنه - .

أَمَّا رَايَةُ الأَنْصَارِ فَكَانَتْ مَعَ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، كَمَا كَانَ قَيْسُ بْنُ أَبِي صَعْصَعَةَ قَائِدَ مُؤَخَّرَةِ الْجَيْشِ.

وَخَرَجَ الحُبَابُ بْنُ المُنْذِرِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ هَذَا المَنْزِلُ[١] أَنْزَلَكَهُ اللهُ - يَعْنِي عَن طَرِيقِ الْوَحْيِ.

أَمْ هُوَ الرَّأْيُ وَالحَرْبُ وَالمَكِيدَةُ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: «**بَلْ هُوَ الرَّأْيُ وَالحَرْبُ وَالمَكِيدَةُ**».

فَقَالَ: فَلَيْسَ هَذا بِالْمَنْزِلِ الجَيِّدِ، وَلَكِنْ نَنْزِلُ قَرِيباً مِنَ الماءِ، فَنَبْنِي عَلَيْهِ حَوْضاً؛ فَيَكُونُ مَعَنَا الماءُ؛ فَلَا يَشْرَبُ مِنْهُ أَحَدٌ مِنَ المُشْرِكِينَ.

وَكَانَتْ فِكْرَةً جَيِّدَةً وَحِيلَةً مَاكِرَةً، نَفَّذَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، حِينَ نَزَلَ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ، وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّ رَبَّكَ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ: الرَّأْيُ رَأْيُ الحُبَابِ.

ثُمَّ قَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَبَنَى عَرِيشاً[٢]، يَحْتَمِي فِيهِ رَسُولُ اللهِ مِنَ المُشْرِكِينَ وَقَالَ:

---

(١) المكان الذي نزلنا فيه.

(٢) مكان كأنه المظلة من الشمس.

- يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ أَعَزَّنَا اللهُ كَانَ هَذا مَا أَرَدْنَا، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ لَمْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فِي عَرِيشِكَ هَذَا، وَلَقَدْ تَرَكْنَا إِخْوَانَنَا هُنَاكَ يُحِبُّونَكَ كَمَا نُحِبُّكَ، فَإِذَا هُزِمْنَا عُدْتَ أَنْتَ إِلَيْهِمْ.

وَأَقْبَلَتْ قُرَيْشٌ قَرِيباً مِنْ جَيْشِ المُسْلِمِينَ فَلَمَّا رَآهُمُ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ دَاعِياً رَبَّهُ:

«اللَّهُمَّ هَذِهِ قُرَيْشٌ أَقْبَلَتْ بِخَيْلِهَا وَخُيَلائِهَا[١] تُكَذِّبُكَ وَتُكَذِّبُ رَسُولَكَ، اللَّهُمَّ نَصْرَكَ الَّذِي وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ أَحْنِهِمُ الْغَدَاةَ[٢]، اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ العِصَابَةُ - وَهُمُ المسلمونَ - فَإِنَّكَ لَنْ تُعْبَدَ بَعْدَ الْيَوْمِ فِي الأَرْضِ أَبَداً». وَاشْتَدَّ رَسُولُ اللهِ فِي دُعَائِهِ حَتَّى أَشْفَقَ عَلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَيْسَ اللهُ قَدْ وَعَدَكَ النَّصْرَ؟!

وَلَكِنَّ الدُّعَاءَ ضَرُورِيٌّ فِي حَيَاةِ المؤمِنِ فَهُوَ سِلاحُهُ، وَهُوَ خَيْرُ عِبَادَةٍ يَتَقَرَّبُ بِهَا المُؤْمِنُ إِلَى رَبِّهِ بَعْدَ أَدَاءِ أَرْكَانِ الإِسْلامِ مِنَ الصَّلاةِ وَالصَّوْمِ وَالزَّكَاةِ وَالحَجِّ.

---

(١) كبريائها. (٢) أهلكهم.

وَسَوَّى رَسُولُ اللهِ الصُّفُوفَ فَكَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَجُلٌ هُوَ «سَوَادُ بْنُ غَزِيَّةَ» وَقَفَ مُتَقَدِّماً عَنِ الصُّفُوفِ، فَضَرَبَهُ رَسُولُ اللهِ عَلَى بَطْنِهِ وَقَالَ: «**اسْتَوِ – أَيِ اعْتَدِلْ – يَا سَوَادُ**».

فَقَالَ سَوَادٌ: أَوْجَعْتَنِي يَا رَسُولَ اللهِ؛ فَكَشَفَ رَسُولُ اللهِ عَنْ بَطْنِهِ وَقَالَ: «**اقْتَصَّ مِنِّي يَا سَوَادُ**».

فَانْكَبَّ سَوَادٌ عَلَى بَطْنِ رَسُولِ اللهِ يُقَبِّلُهَا وَهُوَ يَبْكِي، فَقَالَ النَّبِيُّ: «**لِمَ فَعَلْتَ ذلِكَ يَا سَوَادُ؟!**»

– قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ آخِرُ عَهْدِي فِي الدُّنْيَا أَنْ يَلْمَسَ جَسَدِي جَسَدَكَ.

وَتَأَثَّرَ الجَمِيعُ بِقَوْلِ سَوَادٍ، وَتَحَقَّقَ لَهُ مَا أَرَادَ، فَقَدْ مَاتَ فِي الْمَعْرَكَةِ شَهِيداً، بَعْدَ أَنْ كَانَ آخِرُ مَا لَمَسَهُ فِي الدُّنْيَا بَطْنَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ، فَيَا لَرَوْعَةِ الحُبِّ الطَّاغِي فِي قُلُوبِ الصَّحَابَةِ لِرَسُولِ اللهِ! وَرَأَى النَّبِيُّ جَيْشَ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: «**هَذِهِ مَكَّةُ أَلْقَتْ بِخَيْرِ أَوْلادِهَا**».

وَفِي يَوْمِ الجُمُعَةِ السَّابِعَ عَشَرَ مِنْ رَمَضَانَ مِنَ العام الثَّانِي لِلْهِجْرَةِ وَقَفَ الفَرِيقَانِ مُعسْكَرُ الْكُفْرِ كَثِيرُ العَدَدِ وَالعُدَّةِ، وَمُعَسْكَرُ الإِيمانِ كَثِيرُ الإِيمانِ وَالإِسْلام قَلِيلُ العَدَدِ وَالعُدَّةِ.

وَكَانَ أَوَّلَ مَا حَدَثَ فِي الْمَعْرَكَةِ أَنَّ رَجُلًا مِنَ المشركينَ وَهُوَ الأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ الأَسَدِ الْمَخْزُومِيُّ أَقْسَمَ لَيَشْرَبَنَّ مِنْ مَاءِ بَدْرٍ، وَكَانَ فَاحِشاً سَيِّءَ الخُلُقِ، فَوَصَلَ إِلَى الْمَاءِ فَقَامَ أَسَدُ اللهِ حَمْزَةُ فَقَتَلَهُ، وَبَدَأَتْ بَعْدَ ذَلِكَ الْمَعْرَكَةُ.

***

كَانَتِ الْحُرُوبُ قَدِيماً تَبْدَأُ بِالْمُبَارَزَةِ بِالسُّيُوفِ، فَخَرَجَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَأَخُوهُ شَيْبَةُ، وَالْوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ وَنَادَوْا: هَلْ مِنْ مُبَارِزٍ؟

فَخَرَجَ عَوْفٌ وَمُعَاذٌ ابْنَا عَفْرَاءَ، وَمَعَهُمَا عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ.

فَقَالَ الكُفَّارُ: إِنَّما نُرِيدُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ مُبَارِزاً.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**قُمْ يَا حَمْزَةُ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَقُمْ يَا عَلِيُّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، وَأَنْتَ يَا عُبَيْدَةُ بْنَ الحَارِثِ**».

وَتَبَارَزَ الْقَوْمُ لِيَنْزِلَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩].

وَقَتَلَ حَمْزَةُ شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، أَمَّا عَلِيٌّ فَقَدْ قَتَلَ الْوَلِيدَ، وَبَقِيَ عُبَيْدَةُ بْنُ الحَارِثِ يُقَاتِلُ عُتْبَةَ فَضَرَبَ كُلٌّ

مِنْهُمَا الآخَرَ، فَكَرَّ عَلِيٌّ وَحَمْزَةُ عَلَى جُثَّةِ عُتْبَةَ فَقَتَلاهُ، وَحَمَلا عُبَيْدَةَ بْنَ الحَارِثِ فَإِذَا بِهِ يَمُوتُ شَهِيداً بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ آثَارِ هَذِهِ الضَّرْبَةِ.

وَالْتَقَى الجَمْعَانِ وَشِعَارُ الْمُسْلِمِينَ «أَحَدٌ أَحَدٌ».

وَإِذَا بِالْمَلاَئِكَةِ تَنْزِلُ لِتُحَارِبَ فِي صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ ضِدَّ المُشْرِكِينَ.

فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام وَمَعَهُ أَلْفٌ مِنَ الْمَلائِكَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾(١) [الأنفال: ٩].

ثُمَّ أَرْسَلَ اللهُ تَعَالَى النَّوْمَ عَلَى بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ فَكَانَ السَّيْفُ يَسْقُطُ مِنْ أَحَدِهِمْ ثُمَّ يَأْخُذُهُ مَرَّةً أُخْرَى، وَنَزَلَ المَطَرُ فَثَبَّتَ اللهُ بِهِ المُؤْمِنِينَ، وَانْزَلَقَتْ أَقْدَامُ المشْرِكِينَ فِيهِ.

وَرَأَى الشَّيْطَانُ الملائِكَةَ فَفَرَّ مِنْ مَيْدَانِ الْمَعْرَكَةِ؛ لِأَنَّهُ تَيَقَّنَ مِنَ الهَزِيمَةِ.

وَوَسَطَ اشْتِعَالِ الْمَعْرَكَةِ أُصيبَتْ عَيْنُ قَتَادَةَ بْنِ

---

(١) أي مدداً وعوناً لكم.

النُّعْمَانِ أَحَدِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ؛ فَحَمَلَهَا عَلَى يَدِهِ بَعْدَ مَا سَقَطَتْ عَلَى خَدِّهِ، فَرَدَّهَا رَسُولُ اللهِ مَكَانَهَا؛ فَكَانَتْ أَحْسَنَ عَيْنَيْهِ وَأَفْضَلَهُمَا.

وَانْجَلَى غُبَارُ الْمَعْرَكَةِ عَنْ هَزِيمَةِ الْمُشْرِكِينَ وَمَقْتَلِ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنْهُمْ، فِيهِمْ عُتْبَة وَشَيْبَةُ، وَالْوَلِيدُ، وأَبُو جَهْلٍ، وَعُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ، وَخَلْقٌ كَثِيرٌ مِنَ الَّذِينَ آذَوْا رَسُولَ اللهِ فِي مَكَّةَ، وَاسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ رَجُلًا.

فَوَقَفَ رَسُولُ اللهِ عَلَى رَأْسِ قَتْلَى الْمُشْرِكِينَ، وَقَالَ:

«إِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقّاً، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟»

فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ تُكَلِّمُ جُثَثاً لا تَسْمَعُ.

فَقَالَ: **«إِنَّهُمْ يَسْمَعُونَ، لَكِنْ لا يَرُدُّونَ»**.

وَهَكَذَا انْتَصَرَ الإِيمانُ فِي مَعْرَكَتِهِ الكُبْرَى ضِدَّ الكُفْرِ، فَسُمِّيَتْ بَدرٌ بِبَدْرِ الكُبْرَى وَبِغَزْوَةِ «الفُرْقَانِ» وَاطَّلَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِ أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ:

افْعَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ جَمِيعاً.

وَعَادَ رَسُولُ اللهِ إِلَى المَدِينَةِ لِيَجِدَ ابْنَتَهُ رُقَيَّةَ قَدْ فَارَقَتِ الْحَيَاةَ، فَاخْتَلَطَتْ دُمُوعُهُ بِبَسَمَاتِهِ، لٰكِنَّ قَضَاءَ اللهِ حَقٌّ، وَالصَّبْرَ عَلَيْهِ وَاجِبٌ، فَلَمْ يُفْسِدْ فَرْحَةَ المُسْلِمِينَ بِانْتِصَارِهِمْ، وَمَا أَعْظَمَ هَذَا النَّبِيَّ الَّذِي لَمْ يَشَأْ أَنْ يُفْسِدَ انْتِصَارَ الإِيمانِ!

الدروس المستفادة

(١) اللهُ تَعَالَى يَنْصُرُ المُؤمِنِينَ وَلَوْ كَانُوا قِلَّةً.

(٢) النَّصْرُ بِالإِيمانِ لَا بِالْعَدَدِ وَلَا بِالْعُدَّةِ.

(٣) الدُّعَاءُ مِنْ أَهَمِّ أَسْلِحَةِ المؤمنينَ ضِدَّ أَهْلِ الكُفْرِ.

(٤) المَلائِكَةُ تُحِبُّ المؤمنينَ وَتُعِينُهُمْ عَلَى أعدائِهِمْ.

(٥) الغُرورُ مِنْ صِفَاتِ المشركينَ.

(٦) النِّظَامُ من صِفَاتِ أَهْلِ الإِيمانِ.



*** مرّ بك عدد من معجزات رسول الله ﷺ في غزوة بدر، فاذكر لنا منها معجزتين.**

*** اختر الصحيح من بين الأقواس:**

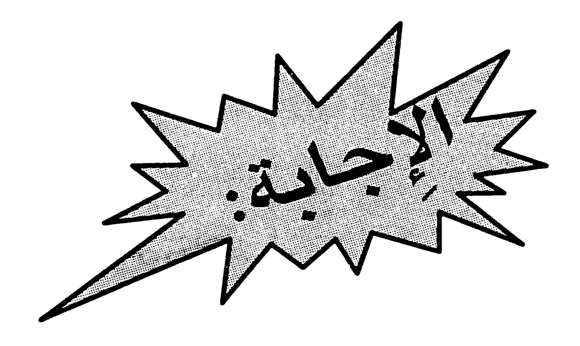
(١) كان قائد القافلة التجارية لقريش هو ......
[أبو جهل - أبو لهب - أبو سفيان].

(٢) بنى المسلمون لرسول الله .... يحتمي به من المشركين [حصناً - عريشاً - بيتاً].

(٣) كان زعيم الأنصار في غزوة بدر ......
[سعد بن عُبَادة - سعد بن أبي وقاص - سعد بن معاذ].

*** الرسول ﷺ ذَكِيّ؛ فاذكر موقفاً يدل على هذا.**

*** اذكر دروساً مستفادة من غزوة بدر.**



أبو سفيان، عريشاً، سعد بن معاذ.

انكسارات .. وانتصارات

وَمَضَتْ حَيَاةُ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ غَزْوَةِ بَدْرٍ، فَلَمْ يَهْنَأْ لَهُمْ بَالٌ، وَلَمْ يَغْمُضْ لَهُمْ جَفْنٌ، بَلْ كَانُوا يَتَنَقَّلُونَ مِنْ سَرِيَّةٍ، إِلَى غَزْوَةٍ، إِلَى صُلْحٍ وَدَعْوَةٍ إِلَى الإِسْلامِ.

وَفِي الْعَامِ الثَّانِي مِنَ الْهِجْرَةِ نَقَضَ الْيَهُودُ مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعَ عَهْدَهُمْ مَعَ رَسُولِ اللهِ، فَكَشَفُوا حِجَابَ امْرَأَةٍ مُسْلِمَةٍ، وَقَتَلُوا أَحَدَ المسلمينَ فَأَجْلاهُمْ رَسُولُ الله ﷺ عَنِ الْمَدِينَةِ وَطَهَّرَهَا مِنْهُمْ.

وَكَانَ هَذَا فِي نِهَايَةِ شَهْرِ شَوَّالَ مِنَ الْعَامِ الثَّانِي لِلْهِجْرَةِ بَعْدَ أَنْ حَاصَرَهُمْ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْماً؛ فَاسْتَسْلَمُوا وَتَرَكُوا المدِينَةَ طَاهِرَةً مِنْ دَنَسِهِمْ.

وَلَمَّا عَادَ الْمُشْرِكُونَ يَجُرُّونَ أَذْيَالَ الْخَيْبَةِ إِلَى مَكَّةَ، لَمْ يُنْفِقُوا مَالَهُمْ مِنْ مَكَاسِبِ الْقَافِلَةِ التِّجَارِيَّةِ، بَلْ حَبَسُوهَا لإِنْفَاقِهَا فِي تَجْهِيزِ جَيْشٍ يَأْخُذُ بِثَأْرِ قَتْلاهُمْ فِي بَدْرٍ.

وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى قَوْلَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ

حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

فَبَاعُوا القَافِلَةَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ دِينارٍ، وَجَهَّزُوا جَيْشَهُمْ لِمُهَاجَمَةِ المدينةِ.

ثُمَّ جَمَعَت قُرَيْشٌ كُلَّ القَبَائِلِ ضِدَّ المسلمينَ مِثْلَ: كِنَانَةَ، وَتِهَامَةَ، وَالأَحَابِيشِ، فَبَلَغَ عَدَدُ الْجَيْشِ ثَلاثَةَ آلافِ رَجُلٍ، مَعَهُمْ ثَلاثَةُ آلافِ جَمَلٍ، وَمِائَتَا فَرَسٍ، وَسَبْعُمِائَةِ دِرْعٍ، وَجَعَلُوا قِيَادَةَ الْجَيْشِ لأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ الَّذِي نَجَا مِنَ الْمَوْتِ فِي بَدْرٍ.

وَوَصَلَتِ الأَخْبَارُ إِلَى الْمَدِينَةِ عَنْ طَرِيقِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المطَّلِبِ الَّذِي كَانَ عَيْناً لِرَسُولِ اللهِ فِي مَكَّةَ، فَعَقَدَ رَسُولُ اللهِ مَجْلِسَ الشُّورَى لِيَنْظُرَ فِي أَمْرِهِ، فَأَشَارَ عَلَيْهِ بَعْضُ المسلمينَ بِالبَقَاءِ فِي المدينةِ وَكَانَ كِبَارُ الصَّحَابَةِ هُمُ الَّذِينَ تَبَنَّوْا هَذَا الرَّأْيَ، وَمَعَهُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ.

إِلَّا أَنَّ فَرِيقاً آخَرَ مِنْ أَصْحَابِهِ رَأَى أَنْ يَخْرُجَ لِلِقَاءِ المشركينَ خَارِجَ المدينةِ، وَهُمُ الَّذِينَ لَمْ يَحْضُرُوا بَدْراً وَاسْتَقَرَّ الرَّأْيُ عَلَى الخُرُوجِ لِمُلاقَاةِ المُشْرِكِينَ.

فَاجْتَمَعَ أَلْفُ رَجُلٍ مِنَ المُسْلِمِينَ، مَعَهُمْ مِنَ

الْخُيُولِ خَمْسُونَ فَرَساً، ثُمَّ لَبِسَ رَسُولُ اللهِ دِرْعَهُ، وَخَرَجَ لِصَلاةِ العَصْرِ، فَأَبْدَى بَعْضُ المسلمينَ نَدَمَهُمْ؛ لأَنَّهُمْ أَجْبَرُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى الخُرُوجِ، فَقَالُوا:

- يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ شِئْتَ بَقِينَا مَعَكَ فِي الْمَدِينَةِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: **«مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَخْلَعَ لأْمَتَهُ**[١] **بَعْدَ أَنْ لَبِسَهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوِّهِ»**.

وَقَسَمَ رَسُولُ اللهِ الْمُسْلِمِينَ إِلى ثَلاثِ كَتَائِبَ:

كَتِيبَةِ الأَنْصارِ، وَعَلَيْهَا الحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ، وَهِيَ كَتِيبَةُ الخَزْرَجِ.

وَكَتِيبَةٍ أُخْرَى لِلأَنْصَارِ وَعَلَيْهَا أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَهِيَ كَتِيبَةُ الأَوْسِ.

وَكَتِيبَةِ الْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهَا مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَقَبْلَ الْوُصُولِ إِلَى «أُحُدٍ» وَهُوَ جَبَلٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالمدينةِ عَادَ رَأْسُ النِّفَاقِ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلُولَ بِثُلُثِ الْجَيْشِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ.

---

(١) دِرعه.

وَبِذَلِكَ صَارَ عَدَدُ المُسْلِمِينَ سَبْعَمِائَةِ رَجُلٍ فَقَطْ، وَلَكِنَّ المسْلِمَ يُحَارِبُ بِالدِّينِ وَالعَقِيدَةِ والإِيمَانِ، لا بالعَدَدِ وَالْعَتَادِ وَالعُدَّةِ.

***

وَبَدَأَتِ الْحَرْبُ بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَالمُشْرِكِينَ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ قَدْ وَضَعَ خُطَّةً حَرْبِيَّةً تَدُلُّ عَلَى ذَكَائِهِ الحَرْبِيِّ وَالْعَسْكَرِيِّ، فَلَقَدْ جَعَلَ جَبَلَ أُحُدٍ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَوَضَعَ عَلَيْهِ خَمْسِينَ مِنْ رُمَاةِ السِّهَامِ، وَجَعَلَ عَبْدَ اللهِ بْنَ جُبَيْرٍ قَائِدَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ:

- **«لَوْ رَأَيْتَمْ الطَّيْرَ تَخَطَّفُنَا فَلَا تَهْبِطُوا لِمُسَاعَدَتِنَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ»**.

جَعَلَ رَسُولُ اللهِ الجِبَالَ مِنْ حَوْلِهِ تَحْمِيهِ، وَالمدِينَةَ فِي وَجْهِهِ، فَإِذَا انْهَزَمَ الأَعْدَاءُ، وَأَرَادُوا الفِرَارَ، كَانَ فِرَارُهُمْ إِلَى المدينةِ وَهُنَاكَ تَقْضِي عَلَيْهِمُ الْبَقِيَّةُ البَاقِيَةُ مِنَ المسلمينَ.

وَقَدْ كَانَ شِعَارُ المسلمينَ فِي الْمَعْرَكَةِ: أَمِتْ أَمِتْ.

وَكَانَ النَّصْرُ حَلِيفَ الْمسلمينَ فِي البِدَايَةِ، وَبَدَأَ المُشْرِكُونَ فِي الانْسِحَابِ، وَظَنَّ المسلمونَ أَنَّ الْمَعْرَكَةَ

قَدِ انْتَهَتْ؛ فَنَزَلَ الرُّمَاةُ طَمَعاً فِي مَكَاسِبِ الحَرْبِ، وَفِي طَرْفَةِ عَيْنٍ تَغَيَّرَتِ المَعْرَكَةُ.

فَقَدْ لَمَحَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ - وَكَانَ كَافِراً لَمْ يُسْلِمْ بَعْدُ - الجَبَلَ خَالِياً مِنَ الرُّمَاةِ، فَعَادَ سَرِيعاً لِيُهَاجِمَ مُؤَخِّرَةَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ.

فَحَدَثَ الهَرْجُ وَالمَرْجُ فِي صُفُوفِ المسلمينَ، وَانْهَزَمُوا حَتَّى أُشِيعَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ قُتِلَ؛ وَهُنَا تَتَجَلَّى شَجَاعَةُ رَسُولِ اللهِ، فَدَخَلَ الْمَعْرَكَةَ وَهُوَ يُنَادِي فِي المسلمينَ حَتَّى يَجْتَمِعُوا حَوْلَهُ، وَلَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ أَشْجَعَ النَّاسِ، وَأَحْسَنَهُمْ، وَكَانَ لَا يَخْشَى الْموتَ، بَلْ كَانَ المسلمونَ إِذَا اشْتَدَّتِ الْمَعْرَكَةُ احْتَمَوْا بِهِ ﷺ.

وَاجْتَمَعَ المُسْلِمُونَ فِي رَائِعَةٍ مِنْ رَوَائِعِ الإِيمانِ يُدَافِعُونَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَنَادَى أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ فِي المسلمينَ: «لَا عُذْرَ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ إِنْ قُتِلَ رَسُولُ اللهِ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، قُومُوا فَقَاتِلُوا عَنْ دِينِكُمْ».

وَانْضَمَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ يُدَافِعُ عَنْ رَسُولِ اللهِ حَتَّى شَلَّتْ يَدُهُ، وَدَافَعَ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ عَوْفٍ حَتَّى

أَصَابَهُ الهَتْمُ فِي لِسَانِهِ، وَالعَرَجُ فِي قَدَمِهِ، وَاسْتُشْهِدَ صَحَابَةٌ كَثِيرُونَ وَهُمْ يُدَافِعُونَ عَنْ رَسُولِ اللهِ حُبّاً لَهُ، وَرَغْبَةً فِي الشَّهَادَةِ.

وَصَبَرَ المسلمونَ وَمَعَهُمْ رَسُولُ اللهِ حَتَّى أَدْرَكَ المشْرِكُونَ أَنَّهُمْ لا سَبِيلَ لَهُمْ عَلَى المسلمينَ وَلَا انْتِصَارَ.

وَعَادَ المسلمونَ يَحْمِلُونَ جَرْحَاهُمْ، بَعْدَ أَنْ دَفَنُوا شُهَدَاءَهُمْ، وَخَرَجَتِ امْرَأَةٌ اسْتُشْهِدَ ابْنُهَا فَلَمَّا رَأَتْ رَسُولَ اللهِ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ رَأَيْتُكَ سَالماً فَهَانَتْ مُصِيبَتِي.

وَامْرَأَةٌ أُخْرَى مَاتَ أَبُوهَا، وَزَوْجُهَا، وَأَخُوهَا، فَقَالَتْ: مَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ؟

قَالُوا: خَيْراً، قَالَتْ: لَا، حَتَّى أَرَاهُ.

فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ عِبَارَتَهَا الخَالِدَةَ: كُلُّ مُصِيبَةٍ بَعْدَكَ جَلَلٌ[١] يَا رَسُولَ اللهِ.

ثُمَّ دَعَا رَسُولُ اللهِ فَقَالَ:

---

(١) صغيرة.

«اللَّهُمَّ أَذْهِبْ حَزَنَ قُلُوبِهِمْ، وَاجْبُرْ مُصِيبَتَهُمْ، وَأَحْسِنِ الخَلَفَ عَلَى مَنْ خَلَفُوا».

وَمَا أَرْوَعَ رَسُولَ اللهِ شُجَاعاً، وَمُقَاتِلًا، وَصَابِراً، وَرَسُولًا، وإِنْسَاناً ﷺ!

* * *

وَفِي الْعَامِ الرَّابِعِ الهِجْرِيِّ فَقَدَ رَسُولُ اللهِ سَبْعِينَ مِنْ صَحَابَتِهِ، فِي يَوْمَيْنِ حَزِينَيْنِ مِنْ أَيَّامِ الإِسْلامِ، وَهُمَا يَوْمُ الرَّجِيعِ، وَبِئْرُ مَعُونَة.

وَعَوَّضَ اللهُ رَسُولَهُ خَيْراً فَقَدْ فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ دِيَارَ بَنِي النَّضِيرِ، وَهُمْ يَهُودٌ سَكَنُوا المدينةَ، وَأَرَادُوا قَتْلَ رَسُولِ اللهِ بِإِلْقَاءِ حَجَرٍ عَلَيْهِ وَهُوَ جَالِسٌ، وَلَكِنَّ اللهَ نَبَّأَ رَسُولَهُ بِهَذَا، فَقَامَ مُسْرِعاً، وَسَقَطَ الحَجَرُ عَلَى الأَرْضِ، وَلَمْ يُصَبْ رَسُولُ اللهِ بِسُوءٍ، فَأَجْلاهُمْ رَسُولُ اللهِ عَنِ المدينةِ، وَطَهَّرَهَا مِنْ دَنَسِهِمْ، وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى سُورَةَ الحَشْرِ تَتَحَدَّثُ عَنْ هَذِهِ الغَزْوَةِ وَمَا حَدَثَ فِيهَا.

وَمِنْ مَظَاهِرِ حِفْظِ اللهِ لِنَبِيِّهِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ فِي غَزْوَةِ «ذَاتِ الرِّقَاعِ» مِنَ الْعَامِ الرَّابِعِ لِلْهِجْرَةِ، نَامَ وَوَضَعَ سَيْفَهُ عَلَى شَجَرَةٍ، فَجَاءَ رَجُلٌ اسْمُهُ «دُعْثُورٌ» فَأَخَذَ السَّيْفَ، ثُمَّ أَيْقَظ رَسُولَ اللهِ وَهُوَ يُرِيدُ قَتْلَهُ، وَقَالَ:

- يَا مُحَمَّدُ مَنْ يَحْمِيكَ مِنِّي الآنَ؟

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ فِي ثَبَاتٍ: «**اللهُ**» فَسَقَطَ السَّيْفُ مِنْ يَدِ هَذا الرَّجُلِ؛ فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللهِ، وقَالَ:

- **«مَنْ يَحْمِيكَ مِنِّي الآنَ»؟**

وَلَكِنَّ رَسُولَ اللهِ لَمْ يُقَابِلِ السَّيِّئَةِ بِالسَّيِّئَةِ، بَلْ عَفَا عَنْهُ، وَعَاهَدَهُ الرَّجُلُ عَلَى الخَيْرِ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى قَومِهِ يَقُولُ: جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ.

وَفِي هَذِهِ الغَزْوَةِ - ذَاتِ الرِّقَاعِ - يَضْرِبُ لَنَا رَسُولُ اللهِ الْمَثَلَ فِي حُبِّهِ لأَصْحَابِهِ فِي قِصَّةٍ لَهُ مَعَ الصَّحَابِيِّ الجَلِيلِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَرَام، وَكَانَ أَبُوهُ قَدِ اسْتُشْهِدَ فِي «أُحُدٍ» وَتَرَكَ لَهُ أَخَوَاتٍ بَنَاتٍ يُرَبِّيهُنَّ، فَأَرَادَ رَسُولُ اللهِ أَنْ يَتَفَقَّدَ حَالَ جَابِرٍ، وَيُسَاعِدَهُ بِطَرِيقَةٍ لا يَجْرَحُ فِيهَا إِحْسَاسَهُ أَوْ مَشَاعِرَهُ.

فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ المسلمينَ يَتَقَدَّمُونَ ثُمَّ بَقِيَ مَعَ جَابِرٍ فِي المُؤَخِرَةِ لِيَدُورَ بَيْنَهُمَا هَذَا الْحِوَارُ الَّذِي يَبْعَثُ عَلَى الإِعْجَابِ بِرَسُولِ اللهِ وَطَرِيقَةِ تَعَامُلِهِ مَعَ أَصْحَابِهِ، فَلَقَدْ لاحَظَ رَسُولُ اللهِ أَنَّ جَمَلَ جَابِرٍ ضَعِيفٌ فَقَالَ: **«يَا جَابِرُ مَا الَّذِي أَخَّرَكَ»؟**

فَقَالَ: إِنَّ جَمَلِي ضَعِيفٌ يَا رَسُولَ اللهِ.

- فَقَالَ: «أَنِخْهُ». ثُمَّ غَمَزَهُ رَسُولُ اللهِ بِعَصَاهُ، فَإِذَا بِالْجَمَلِ يَعُودُ قَوِيًّا سَرِيعاً.

ثُمَّ رَكِبَ جَابِرٌ جَمَلَهُ وَكَذَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ لِجَابِرٍ:

- **«هَلْ تَبِيعُنِي هَذَا الْجَمَلَ يَا جَابِرُ»؟**

قَالَ: بَلْ أُعْطِيهِ لَكَ هَدِيَّةً يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: «**لَا، وَلَكِنْ بِعْنِيهِ**».

فَقَالَ: «**أَشْتَرِيهِ بِدِرْهَمٍ**».

فَقَالَ: إِذَنْ لا تُوفِينِي حَقَّهُ يَا رَسُولَ اللهِ.

فَمَا زَالَ رَسُولُ اللهِ يَتَحَدَّثُ مَعَ جَابِرٍ حَتَّى بَلَغَ أُوقِيةً. ثُمَّ قَالَ: «**هَلْ رَضِيتَ يَا جَابِرُ**»؟

قَالَ: هُوَ لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ.

ثُمَّ رَاحَ رَسُولُ اللهِ يَسْأَلُ عَنْ حَالِهِ.

فَقَالَ: «**هَلْ تَزَوَّجْتَ يَا جَابِرُ**»؟

قَالَ: نَعَمْ، تَزَوَّجْتُ ثَيِّباً[١]، حَتَّى تَرْعَى أَخَوَاتِي الْبَنَاتِ.

---

(١) يعني امرأة كانت متزوجة قبل ذلك.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: «**إِذَنْ حِينَمَا نَعُودُ نَذْبَحُ جَمَلًا، فَإِذَا سَمِعَتِ امْرَأَتُك بِذَلِكَ أَعَدَّت لَنَا مَكَاناً، وَجَهَّزَتْ وَسَائِدَها لِنَجْلِسَ عَلَيْهَا**».

فَقَالَ جَابِرٌ: لَيْسَ عِنْدَنَا وَسَائِدُ يَا رَسُولَ اللهِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: «**سَوْفَ تَكُونُ لَكَ وَسَائِدُ يَا جَابِرُ إِنْ شَاءَ اللهُ**».

فَلَمَّا وَصَلَ رَسُولُ اللهِ إِلَى مَكَانٍ يُسَمَّى «صِرَاراً» وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ المدينَةِ، ذَبَحَ رَسُولُ اللهِ جَمَلًا، ثُمَّ ظَلَّ هُوَ وَصَحَابَتُهُ يَأْكُلُونَ مِنْهُ ثُمَّ دَخَلُوا المدينَةَ.

وَأَخَذَ جَابِرٌ الجَمَلَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْهُ النَّبِيُّ لِيُعْطِيَهُ لَهُ، وَرَبَطَهُ أَمَامَ دَارِ النَّبِيِّ عليه السلام.

فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللهِ قَالَ: «**مَا هَذَا**»؟

فَقَالُوا: إِنَّهُ جَمَلٌ جَاءَ بِهِ جَابِرٌ.

فَقَالَ: «**أَيْنَ جَابِرٌ**»؟

فَجَاءَ جَابِرٌ، فَأَعْطَاهُ رَسُولُ اللهِ أُوقِيَةً مِنْ ذَهَبٍ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «**خُذْ جَمَلَكَ يَا جَابِرُ**».

وَعَادَ جَابِرٌ مَعَهُ الْجَمَلُ وَالمالُ، فَمَا زَالَ يُتَاجِرُ بِهَذَا المالِ حَتَّى زَادَ مَالُهُ وَأَصْبَحَ غَنِيّاً بِهِ.

وَاشْتَرَى وَسَائِدَ، وَوَضَعَها فِي دَارِهِ، وَتَحَقَّقَتْ بُشْرَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، الَّذِي سَاعَدَهُ بِالمالِ، وَأَعْطَاهُ الصَّدَقَةَ، دُونَ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْهِ أَوْ يُحْرِجَهُ بَيْنَ المُسْلِمِينَ، فَمَا أَعْظَمَ رَسُولَ اللهِ حَقًّا !!

***

وَيَعُودُ إِلَيْنَا جابِرٌ هَذِهِ الْمَرَّةَ لِيَحْكِيَ لَنَا وَاحِدَةً مِنْ مُعْجِزَاتِهِ ﷺ، فقَدْ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ فِي إِحْدَى غَزَوَاتِهِ لِيَقْضِيَ حَاجَتَهُ فِي الْخَلاءِ، وَكَانَ المكانُ مُتَّسِعاً لَيْسَ فِيهِ مَكَانٌ يَسْتَتِرُ فِيهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْوَادِي إِلَّا شَجَرَتَانِ مُتَبَاعِدَتَانِ، وَقَدْ خَرَجَ جَابِرٌ وَرَاءَ النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَهُ إِنَاءٌ فِيهِ مَاءٌ حَتَّى يَتَطَهَّرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ فَرَأَى عَجَباً.

لَقَدْ نَادَى رَسُولُ اللهِ عَلَى الشَّجَرَةِ الأُولَى فَأَطَاعَتْهُ وَجَاءَتْ مُسْرِعَةً.

ثُمَّ دَعَا الثَّانِيَةَ فَجَاءَتْ مِثْلَ الأُولَى.

ثُمَّ شَبَّكَ رَسُولُ اللهِ بَيْنَهُمَا، وَقَالَ: «**الْتَئِمَا**(١) **عَلَيَّ بِإِذْنِ اللهِ**»، فَالْتَأَمَتِ الشَّجَرَتَانِ. فَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ بَيْنَهُمَا، ثُمَّ قَضَى حَاجَتَهُ وَتَطَهَّرَ.

---

(١) اجتمعا والتصقا.

ثُمَّ قَالَ لِلشَّجَرَتَيْنِ: «**عودا بإذْنِ اللهِ كما كُنْتُما**»؛ فَعَادَتِ الشَّجَرَتَانِ.

وَأَصَابَتِ جَابِراً الدَّهْشَةُ، وَلَكِنْ سُرْعَانَ مَا عَلِمَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ يُطِيعُهُ بِإِذْنِ اللهِ مَنْ فِي الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ.

وَفِي الْعَامِ الخَامِسِ الْهِجْرِيِّ جهّزَتْ مَكَّةُ وَثَقِيفٌ جَيْشاً كَبِيراً اجْتَمَعَ فِيهِ العَرَبُ كُلُّهُمْ؛ لِيَغْزُوا المدينةَ وَزَادَ عَلَيْهِمُ اليَهُودُ المطرُودُونَ مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعَ وَبَنِي النَّضِيرِ.

فَصَارَ العدُوُّ عَشَرَةَ آلافِ مُقَاتِلٍ.

وَخَرَجَ سَلْمَانُ الفَارِسِيُّ عَلَى المسْلِمِينُ بِفِكْرَةٍ جَدِيدَةٍ، وَهِيَ حَفْرُ الْخَنْدَقِ أَمَامَ المدينةِ، فَإِذَا حَفَرَهُ الْمُسْلِمُونَ لَمْ يَسْتَطِعِ المُشركونَ مُهَاجَمَةَ الْمَدِينَةِ؛ فَإِنَّ الخَنْدَقَ وَهُوَ حُفْرَةٌ عَظِيمَةٌ، سَتَكُونُ مَانِعاً بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يُرِيدُونَ؛ وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ هَذِهِ الْغَزْوَةُ بِغَزْوَةِ الأَحْزَابِ، أَوِ الْخَنْدَقِ.

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ يُشَارِكُ أَصْحَابَهُ حَفْرَ الخَنْدَقِ، وَحَمْلَ التُّرَابِ، ويُنْشِدُ مَعَهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا ... عَلَى الجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

فَيَرُدُّ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ:

اللَّهُمَّ لا خَيْرَ إلا خَيْرُ الآخِرَةْ   فَأَصْلِحِ الأَنْصَارَ والمُهَاجِرَةْ

وَوَقَفَتْ أَمَامَ الْمُسْلِمِينَ صَخْرَةٌ عَظِيمَةٌ لَمْ يَسْتَطِيعُوا تَحْطِيمَهَا فَلَجَؤُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ، فَحَمَلَ المِعْوَلَ[١] ثُمَّ ضَرَبَهَا وَهُوَ يَقُولُ: اللهُ «**أَكْبَرُ فُتِحَتْ فَارِسُ .. اللهُ أَكْبَرُ فُتِحَتِ القُسْطَنْطِينِيَّةُ**»[٢].

وَصَارَتِ الصَّخْرَةُ تُراباً بَعْدَ أَنْ ضَرَبَهَا رَسُولُ اللهِ مُسْتَعِيناً بِحَوْلِ اللهِ وَقُوَّتِهِ.

وَأَثْنَاءَ الحَفْرِ جَاعَ الْمُسْلِمُونَ وَمَعَهُمْ رَسُولُ اللهِ، فَإِذَا بِجَابِرٍ يَذْهَبُ إِلَى زَوْجَتِهِ فَيَأْمُرُهَا بِذَبْحِ شَاةٍ، وَإِعْدَادِ بَعْضِ خُبْزِ الشَّعِيرِ، فَفَعَلَتْ.

فَذَهَبَ جَابِرٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ يَدْعُوهُ لِلطَّعَامِ وَحْدَهُ، وَلَكِنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ لِلْمُسْلِمِينَ جَمِيعاً:

«**قُومُوا إِلَى جَابِرٍ**»؛ فَقَامُوا جَمِيعاً.

وَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ بِالْمُسْلِمِينَ جَمِيعاً، وَكَانَ قَدْ رَبَطَ عَلَى بَطْنِهِ حَجَرَيْنِ مِنْ شِدَّةِ الجُوعِ، هَذَا وَجَابِرٌ قَدْ أَصَابَهُ الغَمُّ؛ لِأَنَّ الطَّعَامَ لَنْ يَكْفِيَ.

---

(١) آلة الهدم.   (٢) عاصمة دولة الروم قديماً.

لَكِنَّ رَسُولَ اللهِ رَاحَ يُقَسِّمُ اللَّحْمَ وَالطَّعَامَ عَلَى الصَّحَابَةِ فَأَكَلُوا جَمِيعاً.

وَبَارَكَ اللهُ لِرَسُولِهِ فِي طَعَامِهِ، فَقَامَ الْمُسْلِمُونَ وَبَقِيَ الطَّعَامُ كَمَا هُوَ لَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ شَيْءٌ.

وَكَانَ يَهُودُ بَنِي قُرَيْظَةَ قَدْ عَقَدَ مَعَهُمْ رَسُولُ اللهِ عَهْداً أَنْ يَحْمُوهُ مِنْ ظَهْرِهِ حَتَّى لا يَدْخُلَ الْمُشْرِكُونَ المدينةَ مِنَ الْخَلْفِ؛ فَيُصْبِحَ الْمُسْلِمُونَ لُقْمَةً سَهْلَةً فِي أَيْدِيهِمْ.

وَحَضَرَ الْمُشْرِكُونَ، وَحَاصَرُوا الْمُسْلِمِينَ فِي الْخَنْدَقِ، وَحَدَثَتِ الكَارِثَةُ فَقَدْ فَتَحَ الْيَهُودُ الطَّرِيقَ لِلْمُشْرِكِينَ، وَأَوْشَكَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الانْكِشَافِ، حَتَّى أُصِيبَ سَيِّدُ الأَنْصَارِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ – رضي الله عنه – بِسَهْمٍ فِي مَقْتَلٍ، فَجَرَحَهُ جُرْحاً شَدِيداً.

وَأَرْسَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ رِيحاً بَارِدَةً شَدِيدَةً دَمَّرَتْ كُلَّ شَيْءٍ؛ فَخَافُوا وَرَحَلُوا.

وَكَانَ هَذَا انْتِصَارَ السَّمَاءِ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الأَرْضِ بَعْدَ أَنْ دَعَا رَسُولُ اللهِ قَائِلًا: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ سَرِيعَ الحِسَابِ، اهْزِمِ الأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ**».

فَلَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللهِ وَصَحَابَتُهُ مِنَ الْخَنْدَقِ، ذَهَبَ رَسُولُ اللهِ إِلَى دِيَارِ بَنِي قُرَيْظَةَ فَأَجْلاهُمْ عَنِ المدينةِ وَطَهَّرَهَا مِنْهُمْ تَمَاماً، وَكَانَ ذَلِكَ حُكْمَ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِيهِمْ، وَلَمْ يَلْبَثْ سَعْدٌ أَنْ مَاتَ؛ فَاهْتَزَّ عَرْشُ اللهِ تَعَالَى لِمَوْتِهِ - رضي الله عنه - ، وَلَمْ يَبْقَ فِي الْمَدِينَةِ إِلَّا يَهُودُ خَيْبَرَ، وَكَانُوا قَرِيباً مِنَ المدينةِ، وَلَهُمْ مَوْعِدٌ قَرِيبٌ مَعَ رَسُولِ اللهِ.

* * *

وَفِي الْعَامِ السَّادِسِ لِلْهِجْرَةِ رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي نَوْمِهِ كَأَنَّهُ قَدْ طَافَ حَوْلَ الكَعْبَةِ، وَرُؤْيَا الأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ مِنَ اللهِ.

فَأَمَرَ الْمُسْلِمِينَ بِالتَّجَهُّزِ لِلْخُرُوجِ إِلَى العُمْرَةِ فَاجْتَمَعَ مَعَهُ أَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةِ رَجُلٍ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ إِلَّا السُّيُوفُ فَقَطْ.

وَبَدَأَ رَسُولُ اللهِ المَسِيرَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَشَارِفِ مَكَّةَ، فَمَنَعَتْهُ قُرَيْش مِنَ الدُّخُولِ إِلَى الكَعْبَةِ وَأَدَاءِ العُمْرَةِ.

فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ لِيَعْرِضَ عَلَيْهِمُ الأَمْرَ، وَتَأَخَّرَ عُثْمَانُ وَظَنَّ المسلمونَ أَنَّهُ قَدْ قُتِلَ.

وَتَحْتَ شَجَرَةِ الحُدَيْبِيَةِ - وَهِيَ مَوْضِعٌ قَرِيبٌ مِنْ مَكَّةَ - قَالَ رَسُولُ اللهِ لأَصْحَابِهِ: **«مَنْ يُبَايِعُنِي عَلَى الْمَوْتِ»**؟.

فَمَدُّوا جَمِيعاً أَيْدِيَهُمْ وَبَايَعُوا عَلَى الْمَوْتِ، وَكَانَتْ بَيْعَةً هَامَّةً، لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ بِلا سِلاحٍ، وَلَكِنَّهُمْ قَبِلُوا الْمَوْتَ فِي سَبِيلِ اللهِ فِداءً لِعُثْمَانَ - رضي الله عنه - الَّذِي ظَنُّوهُ قَدْ قُتِلَ.

وسُمِّيَتْ هَذِهِ الْبَيْعَةُ: بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ، وَرَضِيَ اللهُ عَنِ المؤمنينَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

فَلَمَّا عَادَ عُثْمَانُ - رضي الله عنه - إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ حَيّاً لَمْ تَمْسَسْهُ قُرَيْشٌ بِسُوءٍ، وَبَدَأَتِ المُفَاوَضَاتُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ.

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ قَدْ رَأَى نَاقَتَهُ «القَصْوَاءَ» قَدْ وَقَفَتْ فِي الطَّرِيقِ لَا تُرِيدُ أَنْ تَتَحَرَّكَ، فَعَلِمَ أَنَّ هَذِهِ إِشَارَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى بِأَنَّ العُمْرَةَ لَنْ تَتِمَّ.

فَقَالَ: **«وَاللهِ لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا الْبَيْتَ إِلَّا أَجَبْتُهُمْ»**.

وَفِي النِّهَايَةِ تَوَصَّلَ الطَّرَفَانِ إِلَى كِتَابَةِ صُلْح بَيْنَهُمَا، عُرِفَ بِاسْمِ «صُلْحِ الحُدَيْبِيَةِ»، وَكَانَ مِنْ شُرُوطِهِ:

- أَنْ تَهْدَأَ الْحَرْبُ بَيْنَ المُسْلِمِينَ وَقُرَيْشٍ مُدَّةَ عَشَرَةِ أَعْوَامٍ.

- مَنْ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ دُونَ إِذْنِ قُرَيْشٍ يُعِيدُهُ إِلَيْهِمْ، وَمَنْ جَاءَ مِنْ عِنْدِهِ إِلَيْهِمْ لا يَرُدُّونَهُ إِلَيْهِ.

- يَعُودُ الْمُسْلِمُونَ فِي هَذَا الْعَامِ إِلَى الْمَدِينَةِ، عَلَى أَنْ يَعْتَمِرُوا[1] فِي الْعَامِ الَّذِي يَلِيهِ.

- مَنْ أَرادَ الدُّخُولَ فِي حِلْفِ رَسُولِ اللهِ فَلْيَدْخُلْ، وَمَنْ أَرَادَ الدُّخُولَ فِي حِلْفِ قُرَيْشٍ فَلْيَفْعَلْ.

وَظَنَّ المُسْلِمُونَ أَنَّ هَذِهِ الشُّرُوطَ ظَالِمَةٌ لَهُمْ حَتَّى قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ:

- يَا رَسُولَ اللهِ أَلَيْسُوا بِالْمُشْرِكِينَ؟ قَالَ: **«نَعَمْ»**.

- فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوَلَسْنَا بِالمسلمينَ؟ قَالَ: **«نَعَمْ»**.

---

(١) **يعتمروا**: يقوموا بأداء العمرة.

- قَالَ عُمَرُ: فَعلامَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ[١] فِي دِينِنَا؟!

وَلَكِنَّ رَسُولَ اللهِ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، وَمَا يَفْعَلُهُ إِنَّما يَفْعَلُهُ بِوَحْيٍ.

فَقَالَ: «**يَا عُمَرُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ وَعَبْدُهُ وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللهُ وَلَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ**».

وَنَزَلَ الْقُرْآنُ مُصَدِّقاً لِرَسُولِ اللهِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١].

وَهُنَا تَأَكَّدَ عُمَرُ وَالصَّحَابَةُ أَنَّ السَّمَاءَ تُجَهِّزُ لَهُمْ نَبَأً سَعِيداً، فَلَقَدْ طَالَ صَبْرُهُمْ، وَاسْتَغْفَرَ عُمَرُ رَبَّهُ.

وَعَادَ رَسُولُ اللهِ إِلَى المدينةِ ثُمَّ عَادَ فِي الْعَامِ التَّالِي؛ لِيَعْتَمِرَ وَيَطُوفَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ، وَهُوَ يَعْلَمُ تَمَاماً أَنَّ رَبَّهُ سَيُحَقِّقُ لَهُ مَا وَعَدَهُ، وَأَنَّ الإِسْلامَ يَعْلُو وَلَا يُعْلَى عَلَيْهِ، وأَنَّ اللهَ نَاصِرٌ عِبَادَهُ المؤمنينَ.

***

(١) يقصد بذلك أننا أعطيناهم أكثر من حقهم وتنازلنا لهم.

الدروس المستفادة

(١) طاعَةُ اللهِ وَرَسُولِهِ فِي كُلِّ ما أَمَرَ بِهِ.

(٢) حُبُّ رَسُولِ اللهِ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ.

(٣) القائدُ النَّاجِحُ هُوَ الذي يَتَفَقَّدُ أحوالَ جُنُودِهِ.

(٤) إِهْدَاءُ المعروفِ بِطَرِيقَةٍ لَا تَجْرَحُ شُعُورَ الْفَقِيرِ.



أ - من هو؟

(١) قائد قُرَشِيٌّ هزم المسلمين في أُحد قبل أن يؤمن بالله.

(٢) رجل مُؤمن جُرِحَ في غزوة الخندق، واسْتُشهد بعد غزوة بني قُريظة.

(٣) كافر أراد قتل رسول الله فعصم الله نبيه.

ب - اذكر بعضاً من مُعْجِزاته - ﷺ - التي مرّت عليك في هذه الفقرة.

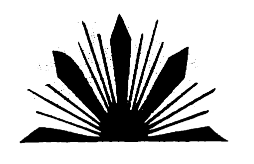
جـ - اذكر صفاتٍ لرسول الله اسْتَنْتَجْتَهَا من هذه الفقرة.

***



خالد بن الوليد، سعد بن معاذ، دُعْثُور.

***



الفتحُ المبين

لَمْ يَبْقَ فِي المدِينَةِ مِنَ الْيَهُودِ بَعْدَ جَلاءِ بَنِي قَيْنُقَاعَ، والنَّضيرِ، وَبَنِي قُرَيْظَةَ إِلَّا قَرْيَةٌ كَبِيرَةٌ هِيَ خَيْبَرُ.

وَالَّتِي كَانَتْ وَكْراً لِلدَّسَائِسِ وَالمُؤَامَرَاتِ، فَمُعَظْمُ الْيَهُودِ الخارِجِينَ مِنَ المدينةِ يَأْوُونَ إِلَيْهَا، كَمَا كَانَ جَمِيعُ المنافقينَ عَلَى عَلاقَةٍ بِيَهُودِ خَيْبَرَ، هَؤُلاءِ الَّذِينَ قامُوا بِدَوْرِهِمْ بِتَوْحِيدِ الجُهُودِ ضِدَّ المسلمينَ.

وَلَمْ يَطُلْ تَفْكِيرُ النَّبِيِّ - عليه السلام - فَقَدْ جَمَعَ أَصْحَابَ الشَّجَرَةِ الَّذِينَ خَرَجُوا مَعَهُ إِلَى الحُدَيْبِيَةِ وَكَانَ هَذَا فِي بِدَايَــةِ العَامِ السَّابع الْهِجْرِيِّ، فَكَانَ عَدَدُ المسلمينَ أَلْفاً وَخَمْسَمِائَة رَجُلٍ، وفي الطريق أَنْشَدَ عَامِرُ بْنُ الأَكْوَع قَائِلًا:

اللَّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... ولا تَصَدَّقْنَا ولا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنا ... وثَبِّتِ الأقْدَامَ إِنْ لاقَيْنَا

فَسَمِعَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُنْشِدُ هَذِهِ الكَلِمَاتِ فَقَالَ: «**يَرْحَمُهُ اللهُ**» - أَيْ عامِر بن الأَكْوَع -.

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ المسلمينَ: وَجَبَتْ يَا رَسُولَ اللهِ.

وَكَانَ الصَّحَابَةُ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَنْ يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللهِ (يَرْحَمُكَ اللهُ) سَوْفَ يَمُوتُ شَهِيداً فِي المَعْرَكَةِ وَقَدْ كَانَ.

وَمَضَى الطَّرِيقُ إِلَى خَيْبَرَ سَرِيعاً فَلَمَّا رَأَى اليَهُودُ رَسُولَ اللهِ خَافُوا وَعَادُوا إِلَى بُيُوتِهِمْ وَحُصُونِهِمْ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: «**اللهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ. اللهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ**».

«**إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ المُنْذَرِينَ**».

فَكَانَتْ هَذِهِ هِيَ بِشَارَةَ النَّصْرِ الأُولَى.

وَلَمْ تَكُنْ خَيْبَرُ مَدِينَةً يَسْهُلُ دُخُولُهَا؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ مَدِينَةً حَصِينَةً، فَقَدِ اعْتَادَ اليَهُودُ أَنْ يُقِيمُوا الحُصُونَ وَالمَوانِعَ.

فَأَعْطَى رَسُولُ اللهِ الرَّايَةَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ – رضي الله عنه – بَعْدَ أَنْ تَفَلَ فِي عَيْنَيْهِ وَكَانَ فِيهِمَا رَمَدٌ فَشَفَاهُ اللهِ تَعَالَى، وَوَصَّى رَسُولُ اللهِ عَلِيًّا فَقَالَ: «**يَا عَلِيُّ، إِذَا وَصَلت إِلَى هُنَاكَ، فَادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلام أَوَّلًا، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ، فَلَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِداً خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**»[١].

---

(١) أي خير لك من الإبل الحمراء، وكانت تُعَدُّ ثروة كبيرة

وَهَذِهِ هِيَ حَضَارَةُ الإِسْلام الَّتِي تُحَرِّضُ عَلَى تَكْرِيم الإِنْسَانِ، فَلا تَعْرِفُ حَرْبَ الإِبَادَةِ، وَقَتْلَ الأَبْرِيَاءِ، بَلْ هِيَ حَضَارَةٌ تَبْنِي وَلَا تَهْدِمُ، وَتَعْرِفُ لِلإِنْسَانِ قِيمَتَهُ، فَتَنْهَى عَنِ الصَّغِيرِ فَلَا يُقْتَلُ، وَعَنِ الشَّيْخِ فَلَا يُذْبَحُ وَهَذَا هُوَ رَسُولُ اللهِ يُوصِي جُنُودَهُ فِي كُلِّ حَرْبٍ قَائِلًا:

«اغْزُوا بِسْمِ اللهِ، فِي سَبِيلِ اللهِ، مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، لَا تَغْدِرُوا، وَلا تُغِيرُوا، وَلا تَقْتُلُوا وَلِيداً، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا شَيْخاً كَبِيراً، وَلَا مُنْعَزِلًا بِصَوْمَعَةٍ - أَيْ رَاهِباً -، **وَلَا تَقْطَعُوا شَجَرَةً، وَلا تَهْدِمُوا بِنَاءً»**.

لَقَدْ سَادَ الإِسْلامُ بِهَذِهِ المَبَادِئِ وَغَيْرِهَا، فَكَانَ الجَمِيعُ يَعْرِفُونَ لِلإِسْلامِ قُوَّتَهُ وَسَمَاحَتَهُ، وَقَدْ فَتَحَ اللهُ خَيْبَرَ عَلَى المسلمينَ بِسلاحِ «الرُّعْبِ»، وَهُوَ سِلاحٌ نَصَرَ اللهُ بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَدْ قَالَ عليه السلام: **«نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ»**.

فَكَانَ أَعْدَاءُ المُسْلِمِينَ إِذَا سَمِعُوا بِرَسُولِ اللهِ وَجَيْشِهِ؛ أَصَابَهُمُ الرُّعْبُ؛ فَتَرَكُوا أَمَاكِنَهُمْ وَدِيَارَهُمْ، وَهَزَمَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِالرُّعْبِ.

وَحَدَثَتْ مُعْجِزَةٌ أُخْرَى فِي «خَيْبَرَ» فَلَقَدْ وَضَعَتِ امْرَأَةٌ يَهُودِيَّةٌ اسْمُهَا «زَيْنَبُ بِنْتُ الحَارِثِ» السُّمَّ فِي شَاةٍ

قَدْ أَعَدَّتْهَا لِرَسُولِ اللهِ يَأْكُلُهَا وَمَعَهُ صَاحِبُهُ الجَلِيلُ بِشْرُ ابْنُ البَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ، وَوَضَعَتِ المرْأَةُ السُّمَّ فِي الذِّرَاعِ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ مَكَانٍ آخَرَ؛ لِعِلْمِهَا بُحِبِّ رَسُولِ اللهِ إِيَّاه

فَأَكَلَ بِشْرُ بْنُ البَرَاءِ - رضي الله عنه - أَمَّا رَسُولُ اللهِ - عليه السلام - فَقَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الشَّاةَ تُخْبِرُنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ**».

وَجِيءَ بِالْمَرأَةِ فَاعْتَرَفَتْ، وَقَالَتْ: إِنَّمَا وَضَعْتُ السُّمَّ وَقُلْتُ: إِنْ كَانَ نَبِيًّا فَسَيَعْلَمُ مِنَ اللهِ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ اسْتَرَحْنَا مِنْهُ.

وَهَذِهِ أَيْضاً مِن مُعْجِزَاتِهِ ﷺ.

وَلَقَدْ كَانَ فَتْحُ خَيْبَرَ نِعْمَةً كُبْرَى عَلَى المُسْلِمِينَ، فَقَدِ اغْتَنَوا بَعْدَهَا حَتَّى قَالَ الصَّحَابَةُ:

- ما شَبِعْنَا حَتَّى فَتَحْنَا خَيْبَرَ.

وَآتَتِ الشَّجَرَةُ ثِمَارَهَا حَيْثُ رَدَّ المُهَاجِرُونَ لِلْأَنْصَارِ مَا مَنَحُوهُ إِيَّاهُمْ؛ عِرْفَاناً بِالْجَمِيلِ، وَلَكِنَّ الأَنْصَارَ مَا قَبِلُوا، وَمَا أَخْرَجُوهُمْ مِنْ دِيارِهِمْ.

وَمَا أَشَدَّ سُرُورَ النَّبِيِّ - عليه السلام - بِصَحَابَتِهِ الَّذِينَ رَبَّاهُمْ عَلَى عَيْنِهِ بِمَنْهَجِ اللهِ وكِتَابِهِ!

وَفِي العَامِ الثَّامِنِ لِلْهِجْرَةِ أَسْلَمَ رِجَالٌ مِنْ مَكَّةَ، هُمْ خَيْرُ شَبَابِهَا، فَقَدْ جَاءَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَعَمْرو بْنُ العَاصِ، وَعُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ، فَأَسْلَمُوا وَآمَنُوا، لِيَبْزُغَ نَجْمُهُمْ كَقُوَّادٍ لِلْمُسْلِمِينَ، فَتَحَ اللهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ كَثِيراً مِنَ البِلادِ، وَهَدَى بِهِمْ قُلُوباً عُمْياً، وآذاناً صُمًّا، وَأَطْفَأَ بِهِمْ نَارَ الكُفْرِ وَأَحْقَادَهُ، وَتَهَاوَتْ[1] عَلَى أَيْدِيهِمْ أَصْنَامُ الكُفْرِ وَأَوْثَانُهُ.

وَفِي هَـذَا الـعَامِ مِنْ شَهْرِ جُمَادَى الأُولَى حَدَثَتْ مَعْرَكَةُ مُؤْتَةَ وَالَّتِي كَانَتْ لِقَاءً سَطَعْت فِيهِ شَمْسُ القَائِدِ خَالِدِ بْنِ الوَلِيدِ سَيْفِ اللهِ المَسْلُولِ.

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ قَدْ أَمَّنَ حُدُودَ دَوْلَتِهِ بِفَتْحِ خَيْبَرَ، وَالصُّلح مَعَ أَهْلِ مَكَّةَ فِي الحُدَيْبِيَةِ، وَبَدَأَتِ الدَّعْوَةُ خَارِجَ الجَزِيرَةِ العَرَبِيَّةِ؛ لأَنَّ دَعْوَةَ الإِسْلام دَعْوَةٌ عَالَمِيَّةٌ لَيْسَ لِلْعَرَبِ فَقَطْ بَل لِلنَّاسِ كَافَّةً فَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ الرَّسَائِلَ إِلَى كِسْرَى مَلِكِ الفُرْسِ فَكَانَتْ إِجَابَتُهُ سَيِّئَةً وَمَزَّقَ كِتَابَ رَسُولِ اللهِ؛ فَمَزَّقَ اللهُ مُلْكَهُ.

وَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ إِلى «المُقَوْقِسِ» حَاكِمِ مِصْرَ،

---

(١) سقطت.

فَكَانَ رَدُّهُ لَطِيفاً، حَيْثُ بَعَثَ لَهُ الْهَدَايَا، وَمِنْهَا جَارِيَةٌ هِيَ مَارِيَّةُ القِبْطِيَّةُ الَّتِي أَنْجبَتْ لِرَسُولِ اللهِ وَلَدَهُ «إِبْرَاهِيمَ» الَّذِي تُوفِّيَ فِي حَيَاتِهِ ﷺ.

وَكَذَلِكَ أَرْسَلَ النَّبِيُّ إِلَى هِرَقْلَ مَلِكِ دَوْلَةِ الرُّومِ، وَالنَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ، وَمُلُوكِ عُمَانَ، وَالبَحْرَيْنِ، فَأَسْلَمَ مَنْ أَسْلَمَ وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ.

وَفِي تِلْكُمُ الأَثْنَاءِ حَدَثَ أَنِ اعْتَدَتْ قَبِيلَةُ «بَكْرٍ» وَكَانَتْ فِي حِلْفِ قُرَيْشٍ، عَلَى قَبِيلَةِ «خُزَاعَةَ» وَكَانَتْ فِي حِلْفِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ هَذَا نَقْضاً لِلْعَهْدِ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ وَقُرَيْشٍ، فَخَرَجَ عَشَرَةُ آلافِ مُقَاتِلٍ مِنَ المسلمينَ لا يَعْلَمُونَ إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُونَ، وَلَكِنَّ رَسُولَ اللهِ وَحْدَهُ الَّذِي كَانَ يَعْلَمُ أَيْنَ سَيَذْهَبُ بِجُنُودِهِ؟

***

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ خُذْ عَلَى أَسْمَاعِهِمْ وأَبْصَارِهِمْ؛ فَلَا يَرَوْنَا إلا بَغْتَةً وَلَا يَسْمَعُونَ بِنَا إِلَّا فَجْأَةً**»، كَانَ هَذَا دُعَاءُ رَسُولِ اللهِ عَلَى أَعْدَائِهِ، أَنْ يَشْغَلَهُمُ اللهُ عَنْهُ، فَلا يَسْمَعُونَ بِهِ وَلَا يَرَوْنَهُ إِلَّا فَجْأَةً.

وَلَمْ يَدُرْ بِخَلَدِ أَحَدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ذَاهِبٌ إِلَى مَكَّةَ لِيَفْتَحَهَا، وَإِنَّما دَعَا بِهَذِهِ الدَّعَوَاتِ حَتَّى

لا يَنْتَهِكَ حُرْمَةَ الْكَعْبَةِ بالْحَرْبِ فِي مَكَّةَ، وَحَتَّى يَحْقُنَ دِمَاءَ المسلمينَ، وَدِمَاءَ أَهْلِهِ فِي مَكَّةَ وَاسْتَجَابَ اللهُ لِدُعَاءِ نَبِيِّهِ، فَإِنَّ قُرَيْشاً فِي مَكَّةَ لَمْ تَشْعُرْ، إِلَّا بِمَشَاعِلِ المسلمينَ قَدِ ارْتَفَعَتْ حَتَّى أَضَاءَتْ لَيْلَ مَكَّةَ فَجَعَلَتْهَا نَهَاراً، وَقَدْ فَشِلَتْ مُحَاوَلَةُ أَحَدِ المسلمينَ لإِبْلاغِ قُرَيْشٍ بِمَسِيرِ رَسُولِ اللهِ فَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ نَبِيَّهُ بِهَذِهِ الْمُحَاوَلَةِ.

فَذَهَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - رضي الله عنه - مَعَهُ الزُّبَيْرُ ابْنُ الْعَوَّامِ، وَالمِقْدَادُ حَتَّى أَدْرَكُوا الْمَرْأَةَ الَّتِي أَرْسَلَهَا «حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ» لإِبْلاغِ قُرَيْشٍ بِمَسِيرِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَهَذَا مِنْ بَابِ إِجَابَةِ اللهِ لِدُعَاءِ نَبِيِّهِ ﷺ، وَحِفْظِهِ لِحُرْمَةِ الْكَعْبَةِ.

وَوَصَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْكَعْبَةِ، وَدَخَلَ مَكَّةَ مُتَوَاضِعاً، حَانِياً رَأْسَهُ للهِ تَعَالَى حَتَّى كَادَتْ لِحْيَتُهُ تُلامِسُ دَابَّتَهُ الَّتِي يَرْكَبُهَا عليه السلام، وَهُوَ يُسَبِّحُ للهِ تَعَالَى وَيَشْكُرُهُ عَلَى نِعْمَائِهِ.

وَصَرَخَ سَعْدُ بْنَ عُبَادَةَ وَهُوَ صَحَابِيٌّ جَلِيلٌ: الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ(١)، الْيَوْمَ تُسْتَحَلُّ الكَعْبَةُ.

---

(١) المعركة والحرب.

فَقَالَ ﷺ: «**الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَرْحَمَةِ**».

وَاجْتَمَعَ أَهْلُ مَكَّةَ، وَإِنَّ كُلًّا مِنْهُمُ الْيَوْمَ لَيَذْكُرُ مَا فَعَلَهُ مَعَ رَسُولِ اللهِ، أَوَلَيْسُوا الَّذِينَ عَذَّبُوهُ وَأَصْحَابَهُ، وَأَخْرَجُوهُ مِنْ مَكَّةَ؟ إِنَّ مِنْهُمُ الْقَاتِلَ لِأَصْحَابِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ سَبَّ رَسُولَ اللهِ وَلَعَنَهُ وَآذَاهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَتَلَ حَمْزَةَ ابْنَ عَبْدِ الْمطَّلِبِ وَآلَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ.

وَلَكِنْ وَقَفَ رَسُولُ اللهِ يَبْتَسِمُ قَائِلًا: «**مَا تَظُنُّونَ أَنِّي فاعِلٌ بِكُمْ**»؟

قَالُوا: أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ.

قَالَ: «**اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ، لَا تَثْرِيبَ**[1] **عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ**».

وَهَكَذَا سَجَّلَهَا التَّارِيخُ، بَعْدَ أَنْ أَطْلَقَهَا رَسُولُ اللهِ مُدَوِّيَةً فِي الآفَاقِ.

إِنَّهُ هُوَ الصَّفَّاحُ الَّذِي يَصْفَحُ وَيَعْفُو عِنْدَ الْمَقْدِرَةِ، وَيُسَامِحُ مَنْ آذَاهُ وَقَتَلَ أَصْحَابَهُ؛ طَمَعاً فِي إِيمَانِهِمْ، وَنَجاتِهِمْ مِنَ النَّارِ، وَإِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ،

---

(١) لا لوم عليكم.

وَبَعَثَهُ مُيَسِّراً لا مُعَسِّراً، وَمُبَشِّراً لا مُنَفِّراً، فَيَا لِلرَّحْمَةِ السَّارِيَةِ فِي الوُجُودِ كَأَنَّهَا شَلَّالٌ جَارِفٌ وَنَهْرٌ هَادِرٌ!

لَقَدِ ارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ فِي مَكَّةَ لَا تَقُولُ: يَحيْا مُحَمَّدٌ .. أَوْ عَاشَ رَسُولُ اللهِ، بَلْ تَقُولُ هَذِهِ الأَصْوَاتُ:

اللهُ أَكْبَرُ ...... اللهُ أَكْبَرُ .... اللهُ أَكْبَرُ .... لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

الله أَكْبَرُ .. اللهُ أَكْبَرُ .. وَللهِ الْحَمْدُ.

لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ .. صَدَقَ وَعْدَهُ .. وَنَصرَ عَبْدَهُ .. وَأَعَزَّ جُنْدَهُ .. وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ.

وَيَا لَرَوْعَةِ هَذَا النَّشِيدِ الإِلٰهِيِّ، وَتَوَاضُعِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ!

***

عَادَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى المدينةِ مَعَ المسلمينَ وَفَاءً بِالْعَهْدِ مَعَ الأَنْصارِ يَوْمَ العَقَبَةِ فَلَم يَنْسَ يَوْماً أَنْ يَكُونَ وَفِيًّا بِعَهْدِهِ، مُنْجِزاً لِوَعْدِهِ ﷺ.

وَلَمْ يَهْدَأْ ﷺ وَقَدْ بَلَغَ مِنَ الْعُمُرِ سِتِّينَ عاماً، وَبَعْدَ ثَمَانِي سَنواتٍ كَامِلَةٍ مِنَ الهِجْرَةِ خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى «هَوَازِنَ» وَهِيَ قَبِيلَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ.

وَكَانَ مَع رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ المُسْلِمُونَ الجُدُدُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا يَوْمَ الْفَتْحِ، فَكَانَ عَدَدُ المسلمينَ عَظِيماً، وَنَظَرَ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ قَائِدُ «هَوَازِنَ» فِي أَمْرِهِ فَجَمَعَ أَهْلَ قَبِيلَةِ «ثَقِيفٍ» مِنَ الطَّائِفِ القَرِيبَةِ مِنْهُ، ثُمَّ قَامُوا بِرَسْمِ خُطَّةٍ حَرْبِيَّةٍ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ، فَقَدْ لَجؤُوا إِلَى أَعَالِي الْجِبَالِ وَاخْتَبَؤُوا فِيهَا، وَبَقِيَ بَعْضُ الْجَيْشِ الكَافِرِ كَمَصْيَدَةٍ لِلْمُسْلِمِينَ، فَنَظَرَ رَجُلٌ مِنَ المسلمينَ فَرَأَى عَدَداً قَلِيلًا مِنَ المُشْرِكِينَ فَقَالَ: لَنْ نُغْلَبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الصَّحَابِيَّ - رضي الله عنه - كَان مِنْ حَدِيثِي الإِسْلام، فَإِنَّ المسْلِمِينَ فِي مَعَارِكِهِمُ السَّابِقَةَ انْتَصَرُوا بِالإِيمانِ لَا بِالْعُدَّةِ وَالْعَتَادِ.

فَلَمَّا اغْتَرَّ المسلمونَ بِقُوَّتِهِمْ، كَانَتِ اللَّحْظَةُ الَّتِي عَلَّمَتْهُمْ كَيْفَ يَكُون الإِيمانُ هُوَ سَبَبَ النَّصْرِ، لَقَدْ هَجَمَ المُشْرِكُونَ وَأَحَاطُوا بِالْمسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَصَارَ أَسَدُ اللهِ فِي شَبَكَةِ الْمشْرِكِينَ.

وَهُنَا تَتَجَلَّى حَمَاسَةُ رَسُولِ اللهِ وَشَجَاعَتُهُ، فَقَدْ انْبَرَى كَالأَسَدِ مِنْ عَرِينِهِ لا يَخْشَى سُيُوفَ المشْرِكِينَ رِمَاحَهُمْ، وَلا يَخَافُ الأَسْرَ، فَإِنَّ مَعَهُ رَبَّهُ سَيَهْدِيهِ، وَنَادَى النَّبِيُّ ﷺ بِصَوْتٍ عَالٍ:

«أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِبْ . . أَنَا ابْنُ عَبْدِ المطَّلِبْ».

ثُمَّ نَادَى فَقَالَ: **«يَا أَصْحَابَ الشَّجَرَةِ، يَا أَصْحَابَ بَيْعَةِ الرِّضْوَان».**

وَمَعَهُ عَمَّهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ المطَّلِبِ يُنَادِي، وَكَانَ صَاحِبَ صَوْتٍ عَالٍ قَوِيٍّ، حَتَّى اجْتَمَعَ أَصْحَابُ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ؛ فَانْتَصَرُوا بِإِذْنِ اللهِ عَلَى عَدُوِّهِمْ، وَهَا هِيَ الفِئَةُ المُؤْمِنَةُ الْقَلِيلَةُ تَثْبُتُ فِي الْمَعْرَكَةِ بَعْدَ فِرَارِ المسلمينَ الجُدُدِ، وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ، وَكَانَتْ تِلْكَ غَزْوَةُ «حُنَيْن».

وَعَفَا رَسُولُ اللهِ عَنْ أَهْلِ هَوَازِنَ وَثَقِيفٍ؛ فَأَسْلَمَ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ؛ وَأَسْلَمُ أَهْلُ ثَقِيفٍ وَهَوَازِنَ وَالطَّائِفِ جَمِيعُهُمْ بَعْدَ أَنْ غزاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وَجَاءَتْ لَحْظَةٌ مُؤَثِّرَةٌ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللهِ وَالأَنْصَارِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرَادَ أَنْ يُعْطِيَ لِأَهْلِ مَكَّةَ مِنَ الَّذِينَ أسْلَمُوا يَوْمَ الْفَتْحِ بَعْضَ الْمَكَاسِبِ وَالْغَنَائِمِ؛ حَتَّى يُصْلِحَ قُلُوبَهُمْ، وَيُحِبُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَالمسلمينَ، فَلَمَّا رَأَى الأَنْصَارُ هَذا حَزِنُوا فِي أَنْفُسِهِمْ، وَقَالُوا:

- وَجَدَ رَسُولُ اللهِ أَهْلَهُ؛ فَأَعْطَاهُمْ.

فَلَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللهِ هَذَا؛ جَمَعَ الأَنْصَارَ فِي مَكانٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ وَقَفَ فِيهِمْ خَطِيباً يَقُولُ:

– **«يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، مَا هَذَا الَّذِي بَلَغَنِي عَنْكُمْ»؟**

«لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ جِئْتَنَا خَائِفاً فَأَمَّنَّاكَ، وَطَرِيداً فَآوَيْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ».

قَالُوا: بَلْ للهِ المَنُّ[1] وَالْفَضْلُ عَلَيْنَا وَلِرَسُولِهِ.

فَقَالَ ﷺ: **«يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَلَمْ أَجِدْكُم ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي؟ أَلَمْ أَجِدْكُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللَّهُ بِي؟ وعَالَةً[2] فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي»؟**

ثُمَّ قَالَ ﷺ: **«أَمَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَذْهَبُونَ أَنْتُمْ بِرَسُولِ اللهِ، وَاللهِ لَوْ سَلَكَ النَّاسُ طَرِيقاً وَسَلَكَ الأَنْصَارُ طَرِيقاً لَسَلَكْتُ طَرِيقَ الأَنْصَارِ، وَلَوْلَا الهِجْرَةُ لَكُنْتُ مِنَ الأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ».**

فَبَكَى الأَنْصَارُ حَتَّى ابْتَلَّتْ لِحَاهُمْ، وَقَالُوا:

---

(١) الفضل. (٢) فقراء.

رَضِينَا بِرَسُولِ اللهِ حَظًّا وَقِسْماً ونَصِيباً.

وَعَادَ النَّبِيُّ إِلَى المدينةِ مَعَ الأَنْصَارِ؛ لِيَغْزُو آخِرَ غَزْوَةٍ فِي حَيَاتِهِ وَهِيَ غَزْوَةُ تبُوكَ الَّتِي كَانَتْ فِي الْعَامِ التَّاسِعِ لِلْهِجْرَةِ، وَتَوَافَدَتْ قَبَائِلُ الْعَرَبِ تُعْلِنُ الإِسْلامَ وَالْوَلاءَ للهِ وَرَسُولِهِ، وتُبَايِعُ رَسُولَ اللهِ عَلَى الإِيمانِ وَالطَّاعَةِ، وَالقِيَامِ بِفَرَائِض الإِسْلامِ، فَكَانَ هَذَا تَمَامَ الإِسْلامِ وكَمَالَهُ، وَلَيْسَ بَعْدَ التَّمَامِ إِلَّا النُقْصَانُ.

* * *

الدروس المستفادة

* اللهُ تَعَالَى يَنْصُرُ المسلمينَ بالإِيمانِ لا بِالْعَدَدِ وَالعُدَّة.

* الْعَفْو عِنْدَ المَقْدِرَةِ مِنْ صِفَاتِ المؤمنينَ.

* التَّوَاضُعُ مِنْ صِفَاتِ المؤمنينَ.

* الشَّجَاعَةُ مِنْ صفاتِ النبيِّ ﷺ.

* حُبُّ رَسُولِ اللهِ وَحُبُّ الأَنْصَارِ مِنَ الإِيمان.

الأسئلة

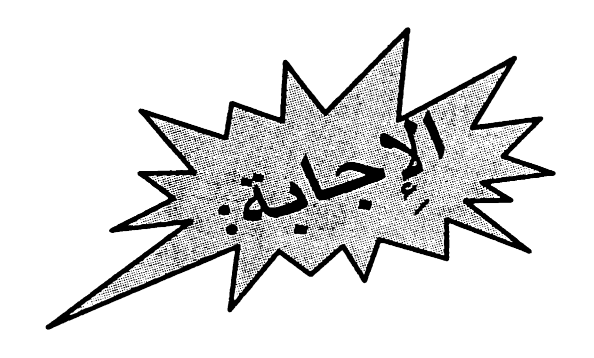
* كانت غزوة ...... في العام ...... الهجري وقد غزا فيها رسول الله هوازن وثقيف وكان قائدهم ...... بن ...... الذي ...... بعد ذلك وعفا عنه رسول الله وقد فتح رسول الله ......، التي كانت آخر حصون اليهود في ...... ونصره الله با ...... مسيرة شهر، ونجّاه الله تعالى من أكل ...... المسمومة.

* اذكر صفاتٍ تعلَّمْتَها عن النبيِّ ﷺ من خلال هذه الفقرة.

* كانت تبوك آخر غزوات رسول الله فأيُّ الغزوات كانت أولًا؟

* رَتِّبِ الأحداثَ التاليةَ ترتيباً صحيحاً حسب حدوثها أولًا:

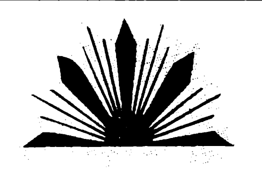
[غزوة خيبر - غزوة حنين - فتح مكة - غزوة تبوك].



حُنين، الثامن، مالك، عوف، أَسلم.

خيبر، المدينة، الرُّعب، الشاة.

غزوة خيبر، فتح مكة، غزوة حنين غزوة تبوك.



النهاية

أَسْلَمَتِ الجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّة كُلُّهَا، وَلَمْ يَعُدْ بِهَا مِنَ القَبَائِلِ إِلَّا وَقَدْ جَاءَ فَبَايَعَ رَسُولَ اللهِ، وَأَعْلَنَ الدُّخُول فِي الإِسْلامِ طَوَاعِيَةً.

وَرَأَى النَّبِيُّ ﷺ ثِمَارَ ثَلاثَةٍ وَعِشْرِينَ عَاماً مِنَ الْجِهَادِ الْمُتَوَاصِلِ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِنَّهُ لَيَذْكُرُ الآنَ يَوْمَ «حِراء» حَيْثُ كَانَتْ كَلِمَاتُ رَبِّهِ الأُولَى تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِ «اقْرأْ» لَقَدْ قَرَأَ وَكانَ أُمِّيًّا.

وَبِاسْمِ رَبِّهِ الآنَ صَارَ الكُلُّ يَنْطِقُ وَيَتَكَلَّمُ، وَهَا هِيَ الأَصْنَامُ قَدْ تَهَاوَتْ فَلَمْ يَعُدْ صَوْتٌ يَرْتَفِعُ فِي الْكَعْبَةِ إِلَّا صَوْتُ بِلالٍ يُرَدِّدُ:

اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ .. لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

وَهَا هُمُ الحَجِيجُ يُلَبُّونَ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ .. لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ .. إِنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالمُلْكَ .. لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ.

لَقَدْ تَحَطَّمَتِ اللّاتُ وَالعُزَّى وَمَنَاةُ وَهُبَلُ، وَلَمْ يَعُدْ إِلَّا اسْمُ اللهِ تَعَالَى يَقْرَأُ بِهِ الْجَمِيعُ.

وَأَحسَّ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ بِالسَّعَادَةِ الغَامِرَةِ حِينَ رَأَى المسْلِمِينَ قَدْ كَثُرَ عَدَدُهُمْ حَتَّى لَمْ يَعُدْ فِي أَرْضِ الْعَرَبِ كَافِرٌ وَاحِدٌ.

وَهَا هِيَ عَلامَاتُ الشَّيْبِ وَالكِبَرِ قَدْ ظَهَرَتْ فِي كُلِّ جَسَدِهِ ﷺ فَقَدْ بَلَغَ مِنَ العُمُرِ ثَلاثاً وَسِتِّينَ سَنَةً، بَعْدَ أَنْ ظَلَّ مَا يَقْرُبُ مِنْ رُبْعِ قَرْنٍ مِنَ الزَّمَانِ يَتَحَمَّلُ الإِيذَاءَ، وَيُقَاتِلُ كَأَنَّهُ شَابٌّ فِي الْعِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ، وَنَظَرَ فَوَجَدَ أَنَّهُ لَمْ يَحُجَّ إِلَى الكَعْبَةِ، فَقَدْ بَقِيَتْ هَذِهِ الفَرِيضَةُ يُؤَدِّيهَا رَسُولُ اللهِ؛ فَأَعْلَنَ أَنَّهُ خَارِجٌ لِلْحَجِّ.

فَلَمَّا عَلِمَتِ القَبَائِلُ كُلُّهَا بِهٰذَا الأَمْرِ تَجَهَّزُوا؛ لِيَنَالُوا شَرَفَ الخُرُوجِ مَعَهُ ﷺ، وَلِيَتَعلَّمُوا مِنْهُ الحَجَّ وَخُطُواتِهِ، كَمَا أَوْحَاهَا اللهُ إِلَيْهِ، فَيَأْخُذُوا دِينَهُمْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَخَرَجَتِ الجُمُوعُ الحَاشِدَةُ فِي رَكْبِ الإِيمانِ، مُتَّجِهَةً إِلَى اللهِ لِيَحُجَّ المسْلِمُونَ حَجًّا طَيِّباً نَقِيًّا صَافِياً، يُرْضِي عَنْهُمْ رَبَّهُمْ، لَا شِرْكَ فِيهِ وَلا كُفْرَ، وَلَا وَثَنَ أَوْ صَنَمَ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ تَعَالَى.

بَلِ الكُلُّ الآنَ قَلْبُهُ وَاحِدٌ، دِينُهُ وَاحِدٌ، مَقْصِدُهُ وَاحِدٌ؛ فَإِلَى بَيْتِ اللهِ الحَرَامِ سَارَ رَكْبُ الإِيمانِ، قَائِدُهُ نَبِيُّ السَّمَاءِ ﷺ.

وَكَأَنَّمَا كَانَتِ الْكَعْبَةُ فِي انْتِظَارِ ضُيُوفِ الرَّحْمٰنِ، وَوَفْدِ اللهِ، فَلَبِسَتْ أَبْهَى حُلَلِهَا، وَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ بِمَلابِسِهِ الْبَيْضَاءِ، وَوَجْهِهِ الْمُنِيرِ، وَقَلْبِهِ الْمُضِيءِ، فَكَأَنَّمَا غَابَتْ شَمْسُ النَّهَارِ حَيَاءً وَخَجَلًا مِنْ شَمْسِ الشُّمُوسِ، وَنجم النُّجُومِ، وَقَمَرِ السَّمَاءِ ﷺ، وَيَا لَسَعَادَةِ تُرْبِ مَكَّةَ وَثَرَاهَا حِينَ طَيَّبَهُ الْحَبِيبُ بِالسَّيْرِ عَلَيْهِ، وَالصَّلاةِ فَوْقَهُ.

وَإِنَّ صَحَابَتَهُ لَيَقُولُونَ عَنْهُ: نَظَرْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ فِي لَيْلَةٍ مُقْمِرَةٍ، وَالْقَمَرُ فِيهَا بَدْرٌ، فَإِذَا رَسُولُ اللهِ أَحْلَى عِنْدَنَا مِنَ الْقَمَرِ.

وَإِنَّ كَفَّهُ أَلْيَنُ مِنَ الْحَرِيرِ، وَرَائِحَتَهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، أَحْسَنُ النَّاسِ خُلُقاً وَخَلْقاً، وَأَحْسَنُهُمْ بِالْقُرْآنِ صَوْتاً، وَأَطْوَعُهُمْ للهِ، نَبِيُّ اللهِ وَأَوَّلُ الْمؤمنينَ، وَقَائِدُهُمْ، النُّورُ الْمُبِينُ، وَالْهَادِي إِلَى طَرِيقِ اللهِ الْمُسْتَقِيمِ.

* * *

وَلَمَّا تَمَّتْ شَعَائِرُ الْحَجِّ، وَقَفَ رَسُولُ اللهِ يَخْطُبُ فِي المسلمينَ قَائِلًا:

- «**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ**

حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ.

أَلَا كُلُّ دَمٍ مِنْ دِمَاءِ الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ دَمٍ دَمُ ابْنِ الحَارِثِ كَانَ مُسْتَرْضَعاً فِي بَنِي لَيْثٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ.

أَلَا إِنَّ رِبَا الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ رِباً أَضَعُهُ رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المطَّلِبِ.

وَإِنَّ الشُّهُورَ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً، فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ.

رَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ، وَذُو القِعْدَةِ، وَذُو الحِجَّةِ وَالمُحَرّمُ.

وَإِنَّ النِّسَاءَ عِنْدَكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللهِ وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ لَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقٌّ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ حَقٌّ، وَمِنْ حَقِّكُمْ عَلَيْهِنَّ أَلَّا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَداً غَيْرَكُمْ، وَلَا يَعْصِينَكُمْ فِي مَعْرُوفٍ، وَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ، وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ.

وَلا يَحِلُّ لامْرِئٍ مُسْلِمٍ مِنْ مَالِ أَخِيهِ إِلَّا عَنْ طِيبِ النَّفْسِ. وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَبَداً كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي».

وَهَكَذَا وَضَعَ رَسُولُ اللهِ الأُسُسَ لِلْمُسْلِمِينَ لِكَيْ يَسِيرُوا عَلَيْهَا، فَقَدْ اكْتَمَلَتْ شَرِيعَةُ الإِسْلام وَآدَابُهُ، وَنَزَلَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ثم نزل قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١-٣].

وَعَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّهُ الوَدَاعُ، فَسُمِّيَتْ هَذِهِ الحَجَّةُ بـ«حَجَّةِ الوَدَاعِ»، فَقَدْ كَانَ هَذَا آخِرُ لِقَاءٍ جَامِعٍ بَيْنَ رَسُولِ اللهِ وأَصْحَابِهِ وَكُلِّ مَنْ أَسْلَمَ، وَسُمِّيَتْ هَذِهِ الخُطْبَةُ خُطْبَةَ الْوَدَاعِ، وَخُطْبَةَ البَلَاغِ.

وعند هذا راح النبيُّ ﷺ يقول: **«اللَّهمَّ بَلَغتُ .. اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ»**.

لَقَدْ بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ، وَشَهِدَ لَهُ رَبُّهُ بِأَنَّهُ بَلَّغَ، وَبِهَٰذَا شَهِدَ المُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ الآنَ إِلَّا أَنْ يَقْضِيَ اللهُ أَمْرَهُ فِي نَبِيِّهِ.

***

وَلَمْ يَمْكُثْ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَثِيراً بَعْدَ عَوْدَتِهِ إِلَى

المدينةِ حتَّى أَحسَّ بِأَنَّ حَياتَهُ سَتَنْقَضِي، وَاشْتَاقَ كَثِيراً لِلِقَاءِ اللهِ، فَلَقَدْ تحرَّكَتْ فِي النَّفْسِ ذِكْرَى لِقَاءِ رَبِّهِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ وَهَا هِيَ أَيَّامُهُ فِي الدُّنْيَا قَدْ آذَنَتْ بالرَّحِيلِ، فَخَرَجَ مُوَدِّعاً لِأَهْلِ القُبُورِ مِنْ شُهَدَاءِ المسْلِمِينَ وَهُوَ يَقُولُ لَهُمْ: **«وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لاحِقُونَ»**.

وَإِذَا بِهِ ﷺ يَقُولُ: **(وَا رَأْسَاهُ!)** لَقَدْ آلَمَهُ رَأْسُهُ كَثِيراً حَتَّى اشْتَدَّ بِهِ الْوَجَعُ، وَلَمْ يَكُنْ يَتَحَدَّثُ بِأَلَمِهِ لأَحَدٍ أَوْ يَشْكُو مِنْهُ إِلَّا هَذِهِ الْمَرَّةَ فَقَطْ.

وَرَقَدَ رَسُولُ اللهِ فِي فِرَاشِهِ مَرِيضاً، يَنْتَقِلُ بَيْنَ بُيُوتِ زَوْجَاتِهِ وَهُوَ مُسْتَنِدٌ عَلَى ابْنِ عَمِّهِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام حَتَّى رَضِيَتْ زَوْجَاتُهُ أَنْ يَرْقُدُ فِي مَرَضِهِ عِنْدَ عَائِشَةَ – رضي الله عنها – .

وَاغْتَسَلَ رَسُولُ اللهِ حَتَّى زَالَتْ عَنْهُ بَعْضُ الحَرَارَةِ الَّتِي اتَّقَدَتَ فِي جَسَدِهِ، فَخَرَجَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: **«مَنْ كُنْتُ جَلَدْتُ لَهُ ظَهراً، فَهَذَا ظَهْرِي فَلْيَسْتَقِدْ مِنْهُ، وَمَنْ كُنْتُ شَتَمْتُ لَهُ عِرْضاً فَهَذَا عِرْضِي فَلْيَسْتَقِدْ مِنْهُ»**(١)، وَأَعَادَهَا أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ثُمَّ قَالَ:

---

(١) استقَادَ: اقتصَّ

- **«إِنَّ عَبْداً خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ؛ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللهِ»**، وَلَمْ يَفْهَمْ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنْ هَذِهِ لَحظَاتُ الْوَدَاعِ، إِلَّا أَبُو بَكْرٍ الَّذِي بَكَى وقَالَ:

- فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا، وَأُمَّهَاتِنَا يَا رَسُولَ اللهِ.

وَاشْتَدَّ الْمَرَضُ بِرَسُولِ اللهِ، وَهُنَا تَأَلَّمَ لَكِنْ لَيْسَ مِنْ شِدَّةِ الْمَرَضِ، بَلْ لِفِرَاقِ أُمَّتِهِ وَصَحَابَتِهِ، وَحُزناً عَلَيْهِمْ حَتَّى نَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام فَقَالَ:

- يَا مُحَمَّدُ إِنَّ رَبِّي قَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُبَلِّغَكَ أَنْ بَشِّرْ حَبِيبِي أَنِّي لَا أَخْذُلُهُ فِي أُمَّتِهِ وَبَشِّرْهُ بِأَنَّهُ أَسْرَعُ النَّاس خُرُوجاً مِنَ الأَرْضِ إِذَا بُعِثُوا، وَسَيِّدُهُمْ إِذَا جُمِعُوا، وَأَنَّ الجَنَّةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى الأُمَمِ حَتَّى تَدْخُلَهَا أُمَّتُهُ.

فَقَالَ عليه السلام: **«الآنَ قَرَّتْ عَيْنِي»**[١].

وَاشْتَدَّ قَلَقُ الصَّحَابَةِ عَلَى رَسُولِ اللهِ، وَخَافُوا عَلَيْهِ الموتَ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ قَائلًا:

- **«أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكُمْ أَنَّكُمْ تَخَافُونَ**

(١) يقصد أنه قد ارتاح.

عَلَيَّ الموتَ، كَأَنَّهُ اسْتِنْكَارٌ مِنْكُمْ، فَهَلْ عَاشَ قَبْلِي مِنَ الأَنْبِيَاءِ أَحَدٌ فَأَعِيشَ، أَلَا إِنِّي لَاحِقٌ بِرَبِّي، وَإِنَّكُمْ لَاحِقُونَ بِهِ، وَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِالمهاجِرِينَ الأَوَّلِينَ خَيْراً».

وَجَاءَ الْيَوْمُ الأَخِيرُ فِي حَيَاتِهِ ﷺ، وَلَمْ يَكُنْ فِي بَيْتِهِ إِلَّا سَبْعَةُ دَنَانِيرَ، فَتَصَدَّقَ بِهَا، وَأَعْتَقَ كُلَّ غِلْمَانِهِ وَجَوارِيهِ، وَتَصَدَّقَ بِأَسْلِحَتِهِ عَلَى المُسْلِمِينَ.

فَلَمَّا دَخَلَ اللَّيْلُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ طَعَامٌ، فَرَهَنَ دِرْعَهُ عِنْدَ يَهُودِيٍّ مُقَابِلَ بَعْضِ الشَّعِيرِ يَخْبِزُونَهُ، وَيَأْكُلُونَ مِنْهُ، وَاسْتَعَارَتْ عَائِشَةُ - رضي الله عنها - زَيْتاً لِلْمِصْبَاحِ تُضِيئُهُ بِهِ.

وَأَذَّنَ الْفَجْرُ، وَدَخَلَ المُسْلِمُونَ فِي الصَّلاةِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ يَبْتَسِمُ مِنْ وَرَاءِ سِتَارٍ لَهُ، وَأَوْشَكَ المسلمونَ عَلَى الخُرُوجِ مِنْ صَلاتِهِمْ؛ فَرَحاً بِرَسُولِ اللهِ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ أَنْ أَكْمِلُوا صَلاتَكُمْ.

وَأَحَسَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِآثَارِ السُّمِّ يَوْمَ خَيْبَرَ تَجْرِي فِي جَسَدِهِ، فَاشْتَدَّ الْوَجَعُ وَالْأَلَمُ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: **«لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِنَّ لِلْمَوتِ لَسَكَرَاتٍ»**.

ثُمَّ نَزَلَ جِبْرِيلُ عليه السلام يَقُولُ:

يَا مُحَمَّدُ إِنَّ رَبَّكَ إِلَيْكَ مُشْتَاقٌ، وَإِنَّهُ قَدْ بَعَثَ مَعِي مَلَكَ المَوْتِ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْكَ وَمَا اسْتَأْذَنَ عَلَى أَحَدٍ قَبْلَكَ، وَلَنْ يَسْتَأْذِنَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَكَ، وَهَذَا آخِرُ عَهْدِي بِالدُّنْيَا وَلَنْ أَهْبِطَ إِلَى الأَرْضِ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ بَعْدِكَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«وَأَنَا مُشْتَاقٌ إِلَى رَبِّي»**.

ثُمَّ نَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، وَتَحَرَّكَتْ شَفَتَاهُ قَائِلًا:

«مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي، وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ الأَعْلَى، اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى، اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى، اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى».

وَغَمَضَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَسَكَتَ صَوْتُهُ، وَصَعِدَتْ رُوحُهُ إلى مَوْلاهُ، وَآنَ لِلْجَسَدِ المُتْعَبِ أَنْ يَسْتَرِيحَ، وَلِرَسُولِ اللهِ أَنْ يَعِيشَ بِرُوحِهِ فِي السَّمَاءِ بِجِوَارِ رَبِّهِ ومَوْلاهُ، فَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

وَأَظْلَمَتْ أَرْجَاءُ المدينةِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مُنِيرَةً بِرَسُولِ اللهِ حَتَّى قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ عليه السلام: مَا رَأَيْتُ يَوْماً قَطُّ كَانَ أَحْسَنَ وَلَا أَضْوَأَ مِنْ يَوْم دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ

اللهِ، وَمَا رَأَيْتُ يَوْماً كَانَ أَقْبَحَ وَلَا أَظْلَمَ مِنْ يَوْمٍ مَاتَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ.

وَإِنَّ الْعَيْنَ لَتَدْمَعُ، وَإِنَّ الْقَلْبَ لَيَحْزَنُ، وَإِنَّا لِفِراقِ رَسُولِ اللهِ لَمَحْزُونُونَ، وَاللهُ يَجْمَعُنا بِهِ عَلَى الْحَوْضِ المَوْرُودِ، والفِرْدَوْسِ المَوْعُودِ.

***

من شمائله ﷺ

وَصَفَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالُوا عَنْهُ [١]:

كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ظَاهِرَ الوَضَاءَةِ، مُشْرِقَ الْوَجْهِ، حَسَنَ الخَلْقِ، لَيْسَ بِالطَّوِيلِ وَلَا بِالقَصِيرِ، وَسِيماً قَسِيماً حَسَنَ الملامح، في عينيه دَعَج [٢].

وَفِي صَوْتِهِ صَحَلٌ [٣]، وَكَانَ شَدِيدَ سَوَادِ الْعَيْنِ، مَقْرونَ الحَاجِبَيْنِ، شَدِيدَ سَوَادِ الشَّعَرِ، فِي رَقَبَتِهِ طُولٌ، وَفِي لِحْيَتِهِ كَثَافَةٌ، إِذَا صَمَتَ عَلَاهُ الوَقَارُ، وَإِذَا تَكَلَّمَ رَفَعَ رَأْسَهُ فَعَلَاهُ النُّورُ وَالبَهَاءُ، وَكَأَنَّ كَلِمَاتِهِ لُؤْلُؤٌ ودُرٌّ.

أَجْمَلُ النَّاسِ إِذا رَآهُ الرَّجُلُ مِنْ بَعِيدٍ، وَأَحْلَاهُمْ إِذَا رَآهُ مِنْ قَرِيبٍ، كَانَ وَاسِعَ الفَمِ مُفَلَّجَ [٤] الأَسْنَانِ، يَنْظُرُ إِلَى الأَرْضِ تَوَاضُعاً، ﷺ، إِذَا عَرِقَ كَانَتْ رَائِحَةُ عَرَقِهِ

---

(١) الرواية هنا بالمعنى لا باللفظ

(٢) شدَّة سواد العين وشدَّة بيَاض بياضها.

(٣) بحّة.

(٤) أي هناك فروق بين أسنانه.

أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، وَكَأَنَّ حَبَّاتِ العَرَقِ حَبَّاتُ اللُّؤْلُؤِ.

وَكَانَ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ كَأَنَّهُ شَعَرَاتٌ بِجِوَارِ بَعْضِهَا.

وَكَانَ ﷺ شَدِيدَ التَّوَاضُعِ لِلنَّاسِ يَقُولُ لَهُمْ: «**إِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**».

وَكَانَ يَعُودُ الْمَرْضَى، وَيَشْهَدُ الْجَنَائِزَ، وَيُلَبِّي دَعْوَةَ مَنْ دَعَاهُ فَقِيراً كَانَ أَوْ غَنِيًّا وَكَانَ لا يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ بَلْ لِلَّهِ تَعَالَى، وإِذَا غَضِبَ للهِ احْمَرَّ وَجْهُهُ، يَعْطِفُ عَلَى الصَّغِيرِ، وَيُوَقِّرُ الْكَبِيرَ، وَيَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَةِ الصِّغَارِ، ويُقَبِّلُهُمْ، ويَخْدُم نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ.

وَإِذَا جَلَسَ فِي بَيْتِهِ كَانَ يُسَاعِدُ أَهْلَ بَيْتِهِ، أَوْ يَرْقَعُ ثوباً لِيُعْطِيَهُ يَتِيماً، أَوْ يُصْلِحُ نَعْلًا لامْرَأَةٍ مِنْ أَرَامِلِ المدينةِ.

وَلَقَدْ خَدَمَهُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ - رضي الله عنه - عَشْرَ سِنِينَ فَلَمْ يَقُلْ لَهُ ﷺ لِشَيْءٍ فَعَلَهُ لِمَ فَعَلْتَهُ؟، وَلَا شَيْءٍ لَمْ يَفْعَلْهُ لِمَ لَمْ تَفْعَلْهُ؟، وَلَمْ يَقُلْ لَهُ أُفٍّ قَطُّ.

وَكَانَ ﷺ حَيِيًّا أَشَدَّ مِنَ الْبِنْتِ العَذْرَاءِ يَسْتَحْيِي مِنَ

اللهِ تَعَالَى، يَبَشُّ في وَجْهِ أَصْحَابِهِ وَيَقُولُ: «**لَا تُبَلِّغُونِي عَنْ أَصْحَابِي إِلا خَيْراً**».

وَكَانَ إِذَا مَشَى يَقُولُ: «**لَا تَمْشُوا وَرَائِي**»، إِذْ كَانَتْ مَلائِكَةُ اللهِ تَعَالَى تَحْمِيهِ فِي ظَهْرِهِ.

وَلَوْ أَرَادَ ﷺ أَنْ يَكُونَ غَنِيًّا مَعَهُ مَفَاتِيحُ كُنُوزِ الأَرْضِ لَفَعَلَ، لَكِنَّهُ رَضِيَ الفَقْرَ فِي الدُّنْيَا ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ تَعَالَى.

وَحَتَّى لَا تَشْغَلَهُ الدُّنْيَا عَنِ الآخِرَةِ، حَتَّى أَنَّ ابْنَتَهُ فَاطِمَةَ - رضي الله عنها - خَبَزَتْ قُرْصَ خُبْزٍ، فَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهُ إِلَّا إِذَا أَكَلَ مِنْهُ رَسُولُ اللهِ، فَلَمَّا جَاءَتْ بِهِ، وَأَعْطَتْهُ لِرَسُولِ اللهِ، فَقَالَ: «**مَا هَذَا يَا فَاطِمَةُ**»؟

قَالَتْ: خبْزٌ يَا أَبِي، لَمْ آكُلْهُ حَتَّى تَأْكُلَ مِنْهُ.

فَقَالَ: «**وَاللهِ يَا ابْنَتِي إِنَّهُ أَوَّلُ طَعَامٍ يَدْخُلُ جَوْفَ أَبِيكِ مُنْذُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ**».

وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَرُدَّ سَائِلًا بَلْ كَانَ يُعْطِي الفُقَرَاءَ وَيَحْرِمُ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ، وَيَظَلُّ طِيلَةَ اللَّيْلِ يُصَلِّي، وَيَتَعَبَّدُ لِلَّهِ وَيَبْكِي حَتَّى قَالَ الصَّحَابَةُ لَهُ:

- يَا رَسُولَ اللهِ رِفْقاً بِنَفْسِكَ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ.

فَقَالَ: «أَفَلا أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً».

وَحَدَثَ أَنْ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ذَاتَ مَرَّةٍ مَعَهُ ثَمَانِيَةُ دَرَاهِمَ يَشْتَرِي بِهَا قَمِيصَيْنِ يَلْبَسُهُمَا فَلَمْ يَكُنْ يَمْلِكُ إِلَّا قَمِيصاً وَاحِداً قَدِيماً وَفِي الطَّرِيقِ رَأَى مِسْكِيناً عَارِياً، فَأَعْطَاهُ أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ يَشْتَرِي بِهَا قَمِيصاً لَهُ، وَاحْتَفَظَ لِنَفْسِهِ بِأَرْبَعَةِ دَرَاهِمَ.

وَوَاصَلَ المَسِيرَ إِلَى السُّوقِ، فَوَجَدَ جَارِيَةً تَبْكِي، فَسَأَلَهَا عَنْ سَبَبِ بُكَائِهَا، وَعَرَفَ مِنْهَا أَنَّ أَصْحَابَهَا أَرْسَلُوها لِتَشْتَرِيَ شَيْئاً بِأَرْبَعَةِ دَرَاهِمَ فَضَاعَتْ مِنْهَا الدَّرَاهِمُ.

فَأَعْطَاهَا رَسُولُ اللهِ مَا بَقِيَ مَعَهُ، ثُمَّ مَضَى يَنْظُرُ فِي أَمْرِ المسلمينَ، وَفِي طَرِيقِ عَوْدَتِهِ وَجَدَ الجَارِيَةَ تَبْكِي مَرَّةً أُخْرَى؛ فَسَأَلَهَا عَنْ سِرِّ بُكَائِهَا، فَقَالَتْ: إِنِّي تَأَخَّرْتُ عَنْ أَهْلِي؛ وَأَخْشَى أَنْ يَضْرِبُونِي.

فَذَهَبَ مَعَهَا رَسُولُ اللهِ يَشْفَعُ لَهَا، وَلَمْ يَكُنْ بِالدَّارِ إِلَّا النِّسَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ:

- «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ».

فَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْهُنَّ؛ فَكَرَّرَ السَّلَامَ ثَانِيَةً، فَمَا رَدَدْنَ عَلَيْهِ، وَفِي الثَّالِثَةِ قُلْنَ:

- وَعَلَيْكَ السَّلامُ يَا رَسُولَ اللهِ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.

فَقَالَ: «**لِمَاذَا لَمْ تَرْدُدْنَ عَلَيَّ السَّلامَ أَوَّلًا**»؟

فَقُلْنَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَدْنَا أَنْ تَزِيدَ دَارُنَا بَرَكَةً بِسَلامِكَ عَلَيْنَا.

فَحَدَّثَهُنَّ فِي أَمْرِ الجَارِيَةِ، فَقُلْنَ:

- لَقَدْ عَفَوْنَا عَنْهَا يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنَّهَا حُرَّةٌ لِوَجْهِ اللهِ.

فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ مُبْتَسِماً يَقُولُ: «**مَا أَجْمَلَ هَذِهِ الثَّمَانِيَةَ دَرَاهِمَ! كَسَا اللهُ بِهَا عُرْيَاناً، وَأَنْقَذَ بِهَا رَقَبَةً مِنَ الرِّقِّ**».

وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَعْرَابِ وَكَانَ دَمِيمَ[١] الخَلْقِ، وَاسْمُهُ «زَاهِرٌ»، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ يُحِبُّهُ حُبًّا شَدِيداً، وَيَقُولُ: «**زَاهِرٌ بَادِيَتُنَا، وَنَحْنُ حَاضِرَتُهُ**».

فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ ثُمَّ أَمْسَكَهُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ: «**مَنْ هَذَا**»؟

---

(١) قبيح المنظر.

فَقَالَ الرَّجُلُ: اتْرُكْنِي.

فَالْتَفَتَ فَوَجَدَهُ رَسُولُ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: «**مَنْ يَشْتَرِي العَبْدَ**»؟

فَقَالَ زَاهِرٌ: إِذَنْ يَا رَسُولَ اللهِ لا يَشْتَرِينِي أَحَدٌ إِلَّا بِثَمَنٍ رَخِيصٍ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**بَلْ إِنَّكَ عِنْدَ اللهِ غَالٍ يَا زَاهِرُ**».

وَهَكَذَا كَانَ مِزَاحُهُ ﷺ صِدْقاً، وَكَانَ حَبِيباً لِأَصْحَابِهِ جَمِيعاً حَتَّى قَالَ الْكُفَّارُ:

- مَا رَأَيْنَا أَحَدًا يُحِبُّ أَحَداً كَحُبِّ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّداً.

وَكَانَ ﷺ، **أَشْجَعَ** النَّاسِ وَأَقْوَاهُمْ، فَقَدْ صَرَعَ «رُكَانَةَ» **أَشْهَرَ** مُصَارِعِي الْعَرَبِ جَمِيعاً، وَكَانَ يُجِيدُ رُكُوبَ الْخَيْلِ، وَيُحْسِنُ الْعَدْوَ وَالْجَرْيَ حَتَّى سَبَقَتْهُ عَائِشَةُ أُمُّ المؤمِنِينَ ذَاتَ مَرَّةٍ، وَسَبَقَهَا هُوَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهَا: «**هَذِهِ بِتِلْكَ**».

وَتَرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ أَزْوَاجِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عَائِشَةَ، وَزَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ، وَحَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَأُمَّ سَلَمَةَ، وَسَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ، وَأُمَّ حَبِيبَةَ بِنْتَ أَبِي

سُفْيَانَ، وَصَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ، وَجُوَيْرِيَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ بْنِ أَبِي ضِرَارٍ، وَمَيْمُونَةَ بِنْتَ الحَارِثِ الْهِلَالِيَّةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ.

وَكَانَتْ خَدِيجَةُ - رضي الله عنها - قَدْ تُوُفِّيَتْ فِي حَيَاتِهِ ﷺ، كَمَا مَاتَتْ زَيْنَبُ - رضي الله عنها - أُمُّ المَسَاكِينِ فِي حَيَاتِهِ.

وَكَانَ لَهُ جَارِيَتَانِ هُمَا: مَارِيَّةُ القِبْطِيَّةِ، وَرَيْحَانَةُ القُرَظِيَّةُ.

كَمَا تُوُفِّيَ كُلُّ أَوْلَادِهِ وَبَنَاتِهِ فِي حَيَاتِهِ إِلَّا فَاطِمَةَ - رضي الله عنها - الَّتِي تُوُفِّيَتْ بَعْدَهُ بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ.

وَكَانَ لَهُ ﷺ مِنَ الْوَلَدِ ثَلاثَةٌ: القَاسِمُ، وَعَبْدُ اللهِ، وإِبْرَاهِيمُ - رضي الله عنهم -.

وَمِنَ الْبَنَاتِ: زَيْنَبُ، وَرُقَيَّةُ، وَأُمُّ كُلْثُومٍ، وَفَاطِمَةُ رضي اللّه عنهن.

وَهَكَذَا كَانَتْ حَيَاتُهُ ﷺ قُدْوَةً وَأُسْوَةً لِلْمُؤْمِنِينَ فِي كُلِّ بِقَاعِ الأَرْضِ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾

[الأحزاب: ٢١].

الدروس المستفادة

(١) حُبُّ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، وَحُبُّ رَسُولِ اللهِ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحُبُّ الصَّحَابَةِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

(٢) الموتُ مَصِيرُ كلِّ العبادِ وَلَوْ كَانَ رَسُولَ اللهِ ﷺ.

(٣) النَّبِيُّ ﷺ هُوَ خيرُ العبادِ وأَحَبُّهم إِلى الله.

(٤) التَّمَسُّكُ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّة.

(٥) رسولُ اللهِ هُوَ الإِمامُ والقُدْوَةُ والأُسْوَةُ.

(٦) تَعَلَّمْ كلَّ صفاتِ رسولِ اللهِ الطَّيِّبَة كالتواضُعِ، والشَّجَاعة، والأَمَانة، والصِّدْق حتى في المزاحِ.

(٧) المحبَّةُ بينَ المؤمنين على أساس التَّقْوَى والإِيمانِ لا المالِ أوِ الجمالِ.



صل بين هذه العبارات:

(١) كان صحابة النبي إِذا نظروا إِليه.

(٢) كتاب الله وسنة نبيه.

(٣) أحب رسول الله أمته حتى.

(٤) تُوفِّي رسولُ الله وكان عمره.

(١) ثلاثة وستين عاماً.

(٢) كأنهم نظروا إِلى القمر.

(٣) لا بدّ من التمسك بهما.

(٤) بَشَّرَهُ ربُّه أنه لن يضيعه في أمته.

* لهذه الشخصيات مواقف مع رسول الله فاذكرها:

(١) زاهر

(٢) أبو بكر الصديق.

(٣) مالك بن عوف.

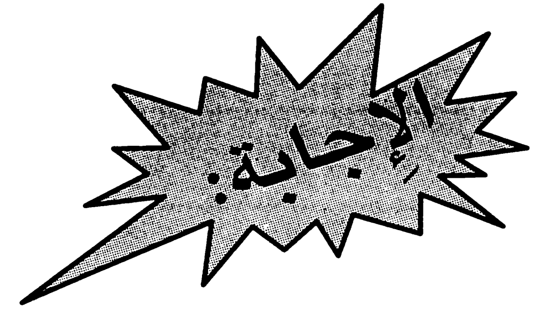
(٤) جبريل عليه السلام.

أكمل الآتي:

سُمِّيَتْ حجة رسول الله بحجة ..... وحجة ......، وكانت في العام ..... الهجري، وكان من صفاته عليه السلام ......، ......، .....

ولما بشَّرَهُ رَبُّهُ بالخير في أمته قال: .....

***



١، ٢ - ٢، ٣ - ٣، ٤ - ٤، ١.

البلاغ، الوداع، العاشر، الشجاعة، الصِّدق، الأمانة، الآن قرَّتْ عيني.

***

الفهرس